

تراثنا

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

حسين نصار

الأستاذ والجائزة ملف خاص

♦ طرق تأريخ النسخ في المخطوطات

♦ الهوية بين الأصالة والتغيير

♦ أساسيات العلوم الفيزيائية



دار الكتب والوثائق القومية

العدد الرابع (جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ - يوليو ٢٠٠٤ م)



کتابخانه و اسناد ملی جمهوری اسلامی ایران
مركز تحقيق التراث

تراثيات

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

العدد الرابع

يوليو ٢٠٠٤

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. أحمد مرسى

تراثيات/ مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث بدار
الكتب والوثائق القومية . - س ٢، ع ٤ (يوليو ٢٠٠٤)
- القاهرة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٤ -

مج ٢٩؛ سم.

نصف سنوية.

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٢٢٠٧/٢٠٠٣

تراث

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

في هذا العدد

افتتاحية العدد أ.د. عبدالستار الحلوجي

٥ بحوث ودراسات :

- ٩ - طرق تأريخ النسخ في المخطوطات - النشأة والحل أ. عصام محمد الشنطي
- ٢٥ - الهوية بين الأصالة والتغريب أ.د. عفت الشرقاوي
- ٢٥ - أساسيات العلوم الفيزيائية المعاصرة في التراث العربي أ.د. أحمد فؤاد باشا
- ٥٥ - قراءة معاصرة في السيرة والمنهج العلمي للشيخ الرئيس أ.د. رفعت حسن هلال
- ٦٥ - الحكومة النبوية (٢) أ. عبدالمتعال سالم عاشور

٦٥ نصوص قرائية :

- ١٠٧ - نصوص من كتاب أندلسي مفقود د. رجب عبد الجواد إبراهيم
- ١١٩ - إرشاد الخل لتحقيق الساعة بربع الشعاع والظل تقديم أ. أحمد عبد الباسط

١١٩ متابعات نقدية :

- ١٢٥ - تاريخ خزائن الكتب بالمغرب - قراءة في كتاب د. بنين حسين نصار الأستاذ والجائزة :

١٦٢ - أما قبل أ.د. عبد الستار الحلوجي

١٦٥ - سيرة ذاتية أ.د. حسين نصار

١٦٩ - تكريم الدكتور حسين نصار - أسلوب يحتذى د. ماهر شفيق

١٧٢ - جهود الدكتور حسين نصار في الدراسات المعجمية أ.د. وفاء كامل

١٨١ - الدكتور حسين نصار والصناعة المعجمية أ.د. صلاح الدين حسنين

١٩٢ - نشأة الكتابة الفنية والتفسير الحضاري لظهور النوع الأدبي أ.د. عبد الحكيم راضي

٢١١ - الدكتور حسين نصار ومنهجه في دراسة الأدب المصري د. عوض الفباري

٢٢٥ - الدكتور حسين نصار محققا للنصوص المعجمية أ. عشري محمد علي

٢٢٥ بيلوجرافيات :

٢٢٢ - المخطوطات التي حققت كرسائل جامعية بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر (٢) إعداد / أ. أحمد عبد الباسط ، أ. أحمد عبدالستار

٢٢٢ من أخبار التراث :

٢٥٢ - ندوات - مؤتمرات - إصدارات جديدة إعداد / أ. حسام عبدالظاهر

٢٦٩ القسم الأجنبي :

٣ - روايات شعر الحظيئة أ.د. إبراهيم عبد الرحمن أحمد

هيئة التحرير

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. أحمد مرسى

رئيس الإدارة المركزية للمراكز العلمية

رفعت هلال

رئيس التحرير

عبدالستار الحلوجي

نائب رئيس التحرير

عفت الشرقاوي

مدير التحرير

محفوظ الشرقاوي

سكرتير التحرير

نجوى مصطفى كامل

مستشارو التحرير

إبراهيم شيوخ (لوس)

أحمد شوقي بنين (المغرب)

اسامه ناصر النقشبندی (العراق)

حسين نصار (مصر)

رضوان السيد (لبنان)

عبدان درويش (سوريا)

عصام الشنطي (الأردن)

فيصل الحفيان (معهد المخطوطات العربية)

يحيى محمود بن جنيدي (السعودية)



مركز تحقيق التراث

المراسلات والاشتراكات

مركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية

كورنيش النيل - رملة بولاق - القاهرة

ت. ٨٩١٠٨٩١ - فاكس : ٥٧٨٩٦٧٨

E-mail:scenlers@darelkotob.org

سعر النسخة : داخل جمهورية مصر العربية : ١٠

جنيهاً للأفراد : ٢٠ جنية للهيئات

خارج جمهورية مصر العربية : ١٠ دولار أمريكي

إشراف فني

مهندس / فتحى عبد رب النبي

مدير عام المطابع

الاشتراكات السنوية : ١٥ جنيهاً للأفراد : ٣٥ جنيهاً للهيئات : ١٥ دولاراً خارج جمهورية مصر العربية

إفتتاحية العدد

هذا هو العدد الرابع من مجلة «تراثيات» . وبصدوره تكمل المجلة عامها الثانى . وخلال الفترة التى فصلت بين هذا العدد وسابقه ، أعلن عن فوز الأستاذ الدكتور حسين نصار بجائزة الملك فيصل العالمية فى مجال اللغة والأدب .

وإذا كانت الجائزة تعد تنويجاً لجهوده العلمية التى تواصلت على مدى أكثر من خمسين عاما ، فإن مجلة «تراثيات» يسعدنا أن تغتنم هذه الفرصة فتقدم لقرائها الكرام ملفا خاصا عن سيادته ، أسهم فيه بعض تلاميذه ومريديه .

والحق أننا لم ننشر كل ما وصلنا من بحوث ودراسات عن الدكتور نصار ، وذلك لسببين :

أولهما : أننا لم نشأ أن نحرم قراء المجلة من الأبواب الثابتة التى درجت عليها منذ صدورها .

وثانيهما : أننا حرصنا فى الوقت نفسه على أن نلتزم بالحجم الذى تصدر به المجلة قدر الإمكان وعلى ألا يتضخم هذا العدد فيكون نشازاً بين الأعداد السابقة واللاحقة .

وعلى ضوء هذين الاعتبارين اكتفينا ببعض البحوث التى تتكامل معاً ، ويسهم كل منها بنصيب فى التعريف بالدكتور نصار وإنجازاته فى مجالى اللغة والأدب ، تأليفاً وتحقيقاً وترجمة ، وهى صورة نرجو أن تكون واضحة المعالم دقيقة الأبعاد . أما البعض الآخر من البحوث ، فقد يتاح له النشر فى أعداد تالية من المجلة ، أو فى مجلات أخرى فى مصر والعالم العربى .

وإذا كان من حق الدكتور نصار علينا أن نتقدم له بخالص التهئة ، فإن من حق الذين كتبوا عنه أن نتقدم إليهم بوافر الشكر وعظيم الامتنان ، ومن حق القارئ أن يعرف أن الملف سيظل مفتوحاً لكل إضافة جادة وجديدة .

بقيت كلمة أخيرة نتوجه بها إلى القراء ، وهى أن المجلة حريصة على تلبية حاجات الباحثين فى التراث العربى ، وأنها تفتح صدرها لأى نقد ، وترحب بأى اقتراح يمكن أن يثرى مادتها ويجعلها تؤدى رسالتها على نحو أفضل .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

رئيس التحرير

بجوت و کراسات

طرق تأريخ النسخ في المخطوطات النشأة والذلة

أ / عصام محمد الشنطي (*)

طالما يُغفل المتخصصون واضعو برامج الدورات التدريبية لفهرسة المخطوطات العربية تدريس هذه المادة ، وكأنهم يقللون من أهمية هذا العنصر من عناصر الفهرسة . وكثيرا ما يحدث حين يُفهرس المتدرب في بلده ، ويتقدم درجات في عمله - أن يصطدم بسنة نسخ مخطوطة بين يديه ، وُضعت في هيئة حساب الجُمْل ، أو بالطريقة العثمانية ، فيحار أمام هذه العويصة . وبهذا يحس أن في تدريبه ثغرة لا يستطيع سدّها ، ونقصا لا يجد له حلا . فإلى هؤلاء الخبراء المتخصصين أقدم هذه الدراسة ، لعلهم يعيرونها اهتماما .

(١)

مدخل :

يُعد تاريخ نسخ المخطوطة من أهم العناصر الأساسية للفهرسة ، في مناهجها المختلفة ، إن لم يكن أهمّها . هذا بطبيعة الحال - بعد عنوان المخطوطة ، واسم مؤلّفها ، اللّذين يُعدّان هويّتها .

وتعلو قيمة النسخة إذا كانت بخط المؤلّف ، لأنها كُتبت في وقت ولادتها وكذلك الحال إذا كانت النسخة يملكها المؤلّف ، وإن لم تكن بخطّه ، لأن تاريخ نسخها يُعدّ أقرب تاريخ لهذه الولادة والتأليف .

يلى ذلك النسخة التي كُتبت في حياة المؤلّف ، خاصة إذا كتبها أحدُ تلاميذه بإملائه ، أو من الذين صحبوه وعاشوه زمنا ، وبهذا تكون النسخة أبعثَ على الثقة بها ، والاطمئنان إلى نصّها .

ويتبع ذلك عموما قديم المخطوطة ، وقربها من وفاة المؤلّف ، فكلما قربت كتابتها من وفاته ، ازدادت قيمة ونفاسة .

وفي العادة يكون موضع تاريخ النسخ من النسخة في آخرها ، بعد تمام مادة المؤلّف ، أو كلامه ، وهو ما يُسمّى بـ «حَرْد المَثْن» . ولفظة حَرْد ، على ما ذكرت بعض المصادر^(١) ،

(*) خبير بمعهد المخطوطات العربية .

(١) المُعَرَّب ، ص ١٦٥ .

نبطية الأصل معربة ، جاءت من : «الْحُرْدِيَّة [وهي] حياصة^(١) الحظيرة التي تُشدُّ على حائط من قَصَب عَرَضًا . تقول حَرْدُناه تَحْرِيدًا» . وكأنَّ حَرْدَ المَتْن بمثابة حزام واقٍ ، جُعِلَ في آخر الأصل ، ليحميه ويُشعر بحدوده ونهايته .

ويقال لحرْد المَتْن بالأجنبية Colophon وهي كلمة لاتينية مأخوذة من اليونانية القديمة ، دخلت اللغات الأوروبية ، وتعنى فى القواميس ما يُكتب فى آخر المخطوطة أو الكتاب ، وله صلة بتاريخ النسخ أو الطبع .

ويَحْدِث أن يجتمع معًا فى آخر النسخة ثلاثة تواريخ ، ينبغى أن نفرِّق بينها ، وألا تختلط على المفهرِّس أو المحقِّق ، فلا يدرى أيُّها تاريخ نسخ النسخة التى بين يديه .

أما التاريخ الأول فهو تاريخ التأليف . وغالب الأحيان يكون هذا من قول المؤلِّف شافعًا إياه حينًا باسم المدينة ، أو المكان الذى أتمَّ فيه كتابه . ويظهر هذا جليًّا حين تكون النسخة بخط المؤلِّف ، فلا يحدث هذا الخلط الذى ننبه إليه . وكثيرًا ما يقترن تاريخ التأليف بعبارة المؤلِّف : وافق تبييضه . . . ، أو فرغت من تسويده . . . أو فرغت من جمعه . . .

ومثال تاريخ التأليف ، أو الشرح ، أن تجد فى آخر انتهاء كلام المؤلِّف ما يلى : «وكان الفراغ من هذا التفسير والشرح اليوم السادس عشر من شهر ربيع الآخر ، سنة اثنتين وستين وأربعمائة» .

والتاريخ الثانى هو تاريخ نسخ النسخة المنقول منها ، ينقله ناسخ النسخة التى بين يديه كما هو ، دون تغيير أو توضيح ، وهذا التاريخ إذا كان متقدمًا يُكسب النسخة الجديدة قيمة عالية ، وإن كان تاريخ نسخ هذه النسخة الجديدة متأخرًا .

أمثل لذلك بنسخة مخطوطة من كتاب «التحفة الشاهية» لقطب الدين محمود ابن مسعود الشيرازى ، المتوفى ٧١٠هـ ، كتبها محمد بن طاهر السَّمَاوى سنة ١٣٢٦هـ . وهى متأخرة كما ترى . ولكنها نُقلت من نسخة كُتبت سنة ٨٣٠هـ من نسخة الأصل . وبهذا ارتفعت قيمة النسخة التى بين أيدينا^(٢) .

(١) حِزَام .

(٢) المخطوطة - مصورة - محفوظة بمعهد المخطوطات العربية ، برقم ٢٧١ فلك ، والأصل محفوظ فى مكتبة آية الله الحكيم العامة فى النجف برقم ٥٤٧ . انظر فهرس المخطوطات المصورة : الفلك ، القسم الثانى ، ص ٦٢ .

نصلُ بعد ذلك إلى التاريخ الأخير الذى يكتبه ناسخ النسخة التى بين يديه . وأحياناً يحدث ألا يكتب الناسخ هذا التاريخ مكتفياً بما نقله من تاريخ نسخ النسخة المنقول منها ، إما سهواً ، أو بقصد التعمويه ، ليمنح نسخته قيمة أعلى . وعلى المفهرس أو المحقق أن يتنبه ، فلا يتوهم أن ذلك التاريخ هو تاريخ نسخ النسخة التى بين يديه .

وسنوالى الحديث ، بعد هذا المدخل ، عن تأريخ النسخ فى المخطوطات ، الذى اتخذ ثلاث صور مختلفة ، نعرضها وفق ظهورها التاريخى .

(٢)

الصورة الأولى :

وصل إلينا أن المؤلفين العرب والشعراء ونسّاخ المخطوطات أرخوا بالعبارة ، أو بالجُملة ، قبل أن يعرفوا الأرقام الهندية ، والأرقام الغبارية أو العربية كما سماها الغربيون . وعُرف هذا التأريخ بالعبارة أو الجُملة بـ «حساب الجُمَل» ، بضم الجيم ، وتشديد الميم مفتوحة ، وزن سُكَّر .

وصيغة «الجُمَل» فى العربية معروفة ، وفى المعاجم : الجُمَل الحبل الغليظ ، أو حبل السفينة . وفى «لسان العرب»^(١) : الجُمَل بتشديد الميم يعنى الحبال المجموعة . وفى قراءة للآية الكريمة : ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجُمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(٢) .

ومن وزن الجُمَل : عَزَل ، ودُمَل ، وقُمَل ، وسُكَّر التى ذكرناها عمّا قليل .

ووردت صيغة الجُمَل مقرونة بالحساب ، فنقول حساب الجُمَل . وعلى الأرجح أن هذه الصيغة جاءت من أَجْمَل الحساب جمع أَعْدَادِهِ وَرَدَّهُ إِلَى الْجُمْلَةِ ، أو جمعَ أَحَادِهِ ثم فصله وبَيَّنَّهُ^(٣) . والصلة بين معنى الجُمَل مقرونة بالحساب ، وأَجْمَل الحساب واضحة . وكذلك الجُمَل بمعنى الحبال المجموعة لها صلة حسيّة به على نحو ما .

وذكر بعضهم أنها يمكن أن تكون بالتخفيف ، أى حساب الجُمَل ، غير أن ابن سيدة قال : «ولست منه على ثقة»^(٤) . وبهذا ظلت صيغة التخفيف ضعيفة ، وغير مستعملة .

(١) مادة : جَمَل .

(٢) سورة الأعراف ٧ : الآية ٤٠ .

(٣) تاج العروس ، مادة : جَمَل .

(٤) نقلا من لسان العرب ، مادة : جَمَل .

وأول من ذكر في المعاجم أن الجمل من الحساب غير عربية ، ابن دُرَيْد ، المتوفى ٣٢١هـ ، في معجمه «الجمهرة» . قال في موضع^(١) : وأما الجُمْل من الحساب فلا أحسبه عربيا صحيحا ، وفي موضع آخر^(٢) قال : والجُمْل من قولهم حساب الجمل وأحسبها داخلة (دخيلة) في العربية .

وأظن أن ابن دُرَيْد لا يقصد أن كلمة الجمل غير عربية ، إنما قصد في الموضعين الجُمْل المقرونة بالحساب ، هي غير العربية .

ونعلم أن العرب في الإسلام لم يرثوا عن أجدادهم أشكالا خاصة للأرقام ، فأخذوا من الأمم في بلاد الشام والعراق أسلوبهم في الحساب ، وهو حساب الجمل . والمعروف أن هذا الحساب عندهم يعتمد في التعداد أبجدية الشريانيين المقتبسة من ترتيب أبجدية الفينيقيين ، كما اقتبسته جميع الأبجديات السامية الأخرى^(٣) .

وكانت حروف الأبجدية الفينيقية تتكون من اثنين وعشرين حرفا ، وهي حروف الكلمات الست الأولى : أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ونلاحظ أنها سميت أبجدية نسبة إلى أول كلمة فيها . وزادوا عليها بقية الحروف العربية الستة الأخرى التي كوّنت كلمتي : ثخذ ، ضظغ ، فأصبحت ثمانية وعشرين حرفا ، مرتبة بالنظام الأبجدي أو أبى جاد ، كما يقال له أحيانا ، وعُرفت آنذاك بالأبجدية العربية . وقد جعلت هذه الحروف في ثمانى كلمات لتساعد على التذكر والحفظ ، دون أن يكون لها بالعربية معنى .

وقد خُصّص في نظام حساب الجُمْل ، لكل حرف من الحروف الأبجدية ، عدد من الواحد إلى الألف^(٤) ، فالحروف التسعة الأولى لأرقام الأحاد من ١ - ٩ ، والحروف التسعة الثانية لأرقام العشرات من ١٠ - ٩٠ ، والحروف التسعة الثالثة لأرقام المئات من ١٠٠ - ٩٠٠ . أما الحرف الأخير ، وهو الغين ، فجعل للرقم ألف .

والجدول التالى يوضح تفصيلا هذه الأعداد المقابلة للحروف ، والتي قام عليها حساب الجُمْل :

(١) ج ١١١ / ٢ - ١ . وانظر المعرّب ص ١٤٨ .

(٢) ج ٣٥٢ / ٣ - ١ .

(٣) المعجم العربى بين الماضى والحاضر ، ص ١٤ .

(٤) الوسيط ، مادة : جَمَل .

أ = ١	ح = ٨	س = ٦٠	ت = ٤٠٠
ب = ٢	ط = ٩	ع = ٧٠	ث = ٥٠٠
ج = ٣	ي = ١٠	ف = ٨٠	خ = ٦٠٠
د = ٤	ك = ٢٠	ص = ٩٠	ذ = ٧٠٠
هـ = ٥	ل = ٣٠	ق = ١٠٠	ض = ٨٠٠
و = ٦	م = ٤٠	ر = ٢٠٠	ظ = ٩٠٠
ز = ٧	ن = ٥٠	ش = ٣٠٠	غ = ١٠٠٠

ومن الأمثلة ما نلقاه عند صلاح الدين الصفدى ، المتوفى ٧٦٤هـ ، من الشعر الذي يستعمل فيه حساب الجُمْل ، حين يصف قلم ممدوح له اسمه بدر الدين نفاع ، وهو :

لصفاتِ بدر الدين فضلٌ شائع تصبوله الأفكارُ والأسماعُ
انظر إلى «القلم» الذى يحوى فقد صحَّ الحسابُ بأنه «نفاعُ»

فالحساب هنا هو حساب الجُمْل فى لفظتى : القلم ، نفاع ، وكلُّ منهما بالقيمة العددية الأبجدية = ٢٠١ .

وقد وقعتُ على مخطوطة كتب الصفدى على غلافها بخطه ما يدل على أنه استعمل حساب الجمل فى تاريخ رغب فى تسجيله ، وهو تاريخ كتابته هذه السطور التالية : «لكاتبه خليل بن أيبك ، وهو بدير كسر ، بلد من أعمال رحبة مالك بن طوق على الفرات تاريخ «ياى» ذى قعدة ستة وثلاثين وسبع مئة ختمها الله بخير . . .» .
وواضح أن قيمة حروف «ياى» بحساب الجُمْل = ٢١^(١) .

ويلفت النظر أن التأريخ فى الشعر بحساب الجُمْل قد نما وترعرع فى المنظومات التعليمية . نجد ابن الجزرى ، المتوفى ٨٣٣هـ ، فى «المقدمة الجزرية فى أحكام التجويد» يقول فى آخرها^(٢) :

أبياتها قاف وزاى فى العدد مَنْ يُحسنُ التجويدَ يظفر بالرُّشدِ

(١) فهرس المخطوطات المصورة ، الأدب ، القسم الرابع ، ص ٧٢ .

(٢) الشكر هنا لتلميذى النابه أحمد عبد الباسط ، الباحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية ، الذى زودنى بعددٍ من النماذج ، أثريتُ البحث بها .

فالقاف والزاي = ١٠٧ أبيات .

وفى موضع آخر فى متن «الدرة المضية بين القراءات الثلاث المتممة للعشرة» قال فى أواخرها :

وتمّ نظام (الدرة) احسب بعدها وعام (أضا حَجَّى) فأحسن تفؤلاً
فالدرة فى حساب الجُمْل ٢٤٠ ، وهى عدّة أبياتها . أما سنة تأليفها فهو أضاً حَجَّى التى
تساوى ٨٢٣ هـ .

ومن المنظومات أيضاً منظومة سليمان بن حسين بن محمد الجمزورى الشافعى
المتوفى ١١٩٨ هـ ، المسماة «تحفة الأطفال والغلمان فى تجويد القرآن» ، جاء فى أواخرها :

أبياته (ندّ بدا) لذى النّهى تاريخها (بُشرى لمن يتقنها)
ندّ بدا = ٦١ ، وهو بعدد أبياتها ، أما تاريخ تأليفها فهو : بُشرى لمن يتقنها ، التى تقابل
١١٨٩ هـ .

وقد انتشر حساب الجُمْل انتشار النار فى الهشيم ، عند الشعراء فى القرن الثالث عشر
الهجرى (التاسع عشر الميلادى) . وجاء هذا الشعر متكلفاً متصنعاً ، تحكمه الأرقام التى
ينبغى أن تساوى فى قيمتها العددية الحادثة التى يؤرخ لها الشاعر .

شاهد ذلك ما قاله الشاعر بطرس كرامة ، الحمصى المولد ، اللبناى الإقامة ، فى مدح
أحد أعيان الشام الذى بنى داراً فى طرابلس ، جاء فى آخره :

وبهـا التاريخُ يتلى أدخلوها بسلام
ومجموع الكلمات التالية لكلمة التاريخ حتى آخر البيت بحساب الجُمْل يبلغ ١٢٣٠ ،
وهو مطابق للتاريخ الهجرى الذى بُنيت فيه الدار^(١) .

ومن أمثلة ما كتبه نُساخ المخطوطات ، يقول أحدهم : فرغتُ من نساختها فى «ذلو»
يقصد سنة ٧٣٦ هـ فى حساب الجُمْل^(٢) .

وناسخ آخر يقول : كتبتها فى «غقنب» يقصد سنة ١١٥٢ هـ فى حساب الجُمْل^(٣) .

(١) جوانب مضية من الشعر العربى ، ص ١٣٢ .

(٢) فهرس المخطوطات المصورة ، الأدب ، الخامس ، ص ٨٧٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

وفى المخطوطة رقم ٦٥ نحو بدار الكتب المصرية ، «شرح الإرشاد الهادى» للتفتازانى (ت ٧٩٣هـ) المسمى بتوضيح الإرشاد لإرشاد العباد ، للشارح محمد أمير خان التبريزى ، جاء فى أواخرها ما نصّه : «لقد تم . . . فى يوم الدال من قبل الهاء ، يوم الطاء والياء ، من شهر الألف والياء ، من سنة الجيم والصاد بعد الغين» . ويقابل هذا كله : الإثنين ١٩ ذى القعدة سنة ١٠٩٣هـ .

ويتضح من هذه الأمثلة جميعاً أن حساب الجُمل ظلّ متداولاً عند المؤلفين والشعراء والنُساخ ، ولم يهجر تماماً ، بالرغم من انتشار الصورة الثانية من التأريخ بالأرقام الهندسية والغبارية (العربية) والتأريخ الهجرى ، الذى يُذكر صراحة .

وانتشر حساب الجُمل أيضاً فى المغرب ، إلا أنهم قد طبقوا هذا الحساب على ترتيب الحروف المغربية التى يختلف بعضها عن الترتيب المشرقى . وظلّ اثنان وعشرون حرفاً فى الجدول الذى أسلفنا بيانه على ما هى ، واختلفوا فى الحروف الستة التالية :

الحرف	عند المشاركة	عند المغاربة
ص	٩٠	٦٠
ض	٨٠٠	٩٠
س	٦٠	٣٠٠
ظ	٩٠٠	٨٠٠
غ	١٠٠٠	٩٠٠
ش	٣٠٠	١٠٠٠

وهناك نوع ثالث غير معروف فى المشرق ، وإنما انتشر عند الأندلسيين والمغاربة ، واشتمل عندهم فى تواريخ بعض المخطوطات وأرقام أوراقها ، ووثائق المحاكم الشرعية ، واصطُلح على تسميته بـ «القلم الفاسى»^(١) . ويبدو أنه هو الذى يسمى فى تونس «رشوم الزّمام» . ولهذا النوع قواعده الحسابية ، وأشكاله من الأحاد إلى المئات فالألوف .

ونكتفى لمعرفة هذا النوع بالمثل التالى :

فى المخطوطة التى اعتمد عليها فؤاد سيد عند تحقيقه كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لأبى داود سليمان بن حسان الأندلسى ، المعروف بابن جُلْجُل ، والذى ألفه سنة

(١) المصادر العربية لتأريخ المغرب ، ٣٥٦/٢ .

٣٧٧هـ ، كان الكتاب المحقق هو الأول ضمن مجموعة خطية كتبها محمد بن الظريف التونسي في شهر ربيع الثاني سنة ١٠٠٣هـ . وهي رموز للأرقام الحسابية المسماة برشوم الزمام ، وتساوى سنة ٩٩٣هـ^(١) . ويُذكر أن هذه المجموعة الخطية كانت في المغرب الأقصى ، وناسخها مغربي من تونس ، كما نوهنا عما قليل .

(٣)

الصورة الثانية :

عَرَفَ العرب بعد حساب الجُمْل الأرقام الهندية التي شاعت في معظم الدول الإسلامية والعربية ، وهي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٠٠٠٣ ، والأرقام الغبارية ، أو العربية كما سماها الأوروبيون ، والتي انتشرت في أقطار المغرب العربي والأندلس والعالم الغربي ، وهي 1 ، 2 ، 3 ... ، فشاع عندهم استعمالها لسهولة كتابتها ، ولنظامها العشري الجديد .

وفي المصادر أن هذه الأرقام بنوعها هندية الأصل ، أخذها العرب وتعلموها وعلموها . وكان أول اتصالهم بهذه الأرقام في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . فالثابت أن هذه الأرقام ، عُرِفَتْ - أول ما عُرِفَتْ - في بغداد في أوائل الدولة العباسية ، في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وبالتحديد سنة ١٥٦هـ (٧٧٣م)^(٢) .

ومنذ ذلك العهد أخذ ناسخ المخطوطة يرصد تاريخ النسخة التي يكتبها باليوم والشهر والسنة ، وأحياناً بالساعة ، واليوم من الأسبوع ، أو بتوقيت صلاة من الصلوات .

وكان الناسخ يؤدي هذا التاريخ بطريقة واضحة وبسيطة ، خالية من ضرورة معرفة القيمة العددية لكل حرف من حروف الأبجدية ، وخالية من كل إلغاز وتعمية ، على نحو ما سنعرف في الصورة الثالثة لأداء تاريخ النسخ في المخطوطات .

وهذه الطريقة السهلة المباشرة - التي لا تحتاج إلى كدّ الذهن ، ولا إلى جهد لمعرفة هذا التاريخ ، أو الكشف عنه - هي الأكثر شيوعاً في المخطوطات ، وهي الصورة التي تعتمد ، كما ذكرنا آنفاً ، على الأرقام الهندية أو الغبارية (العربية) ، والتقويم الهجري المعروف .

(١) طبقات الأطباء والحكماء ، صفحة «مز» من المقدمة .

(٢) الأرقام العربية ورحلة الأرقام عبر التاريخ ، ص ٩١ .

وتزخر المخطوطات بهذا النمط من التأريخ ، كأن يكتب الناسخ : فرغت منها يوم الإثنين رابع شهر جمادى الآخرة ، عام ثمانية وأربعين وسبع مئة من الهجرة النبوية .
أو يقول : فرغت من نسخها مستهل جمادى الأولى سنة . . . ، أو فى العشر الأول من جمادى الآخرة . . . ، أو يوم الأربعاء خامس عشر شهر ذى القعدة . . . بمعرة النعمان : أو أواسط ذى القعدة . . . ، أو فى المدرسة النجمية البادرانية بدمشق ، أو فى العشر الأوسط من ذى القعدة . . . ، أو فى العشر الآخر من رجب . . . ، أو يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان . . . ، أو يوم السبت سلخ^(١) شهر شعبان . . . ، أو صبيحة الخامس والعشرين من شهر المحرم . . . ، أو عشية يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شعبان . . . ، أو ليلة الإثنين السابع من جمادى الثانية . . . ، بالمسجد الأقصى . . . ، أو فى الليلة المُسفرة عن يوم الأربعاء العاشر من شهر المحرم . .

وفى بعض الأحيان يكون الناسخ أكثر دقة ، فحين يذكر تاريخ الفراغ من النسخ ، يذكر تاريخ البدء فيه ، يقول : فرغت منه ليلة الخميس ، وهى ليلة الثامن من شهر رجب سنة . . . ، وكان ابتداء نسخه ظهيرة يوم الأربعاء الخامس من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة .

وغير ذلك من الأمثلة التى لا يختلف كثيرا بعضها عن بعض ، لأن جميعها يظل فى مساحة الصورة الواضحة ، البعيدة عن كل تعقيد أو تركيب .

(٤)

الصورة الثالثة :

هذه صورة أخرى لأداء تاريخ النسخ ، وهى أكثر تعقيدا وتركيبا . وتحتاج إلى إعمال فكر للوصول إليها . وعلى المفهرس والمحقق أن يتدربا عليها ، وأن يفككا هذا التعقيد ، ويكشف هذه التعمية ، بتحليلها إلى عناصرها ، ومعرفة الأرقام المعنية وتاريخ النسخ المقصود .

ذلك أن بعض النساخ أخذوا يؤرخون بعض منسوخاتهم من المخطوطات بالكسور بدلا من التأريخ بالتقويم الهجرى المتداول ، وهو أسلوب تعمية قصد منه شحذ الذهن ، وإذ لم يرض عنه بعض ، وعدّه نوعا من البهلوانية المنافية لأهداف تأريخ كتابة المخطوطات^(٢) .

(١) آخر .

(٢) حلّ تعمية التأريخ بالكسور ، ص ٢١٤ .

ولم تظهر هذه الطريقة إلا في عصور متأخرة ، وعلى وجه الدقة في الربع الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . ويبدو أن أول مَنْ وَضَعَهَا هو العالم التركي ابن كمال باشا ، المتوفى ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) ، وفي رأى أن آخر سبقه في ذلك بيضع سنين^(١) . ومهما يكن الأمر ، فواضح أن نشأة هذه الطريقة هي نشأة تركية عثمانية .

وقد سُميت هذه الطريقة بـ «التأريخ الكنائى» كأن ناسخها يذكر معنى قريباً ، ويقصد المعنى الأبعد ، كما هي الكناية البلاغية . فإذا قال - على سبيل المثال - فرغتُ من نسخها في السَّبع الخامس ، فإنه يذكر ، في المعنى القريب ، الجزء الخامس من شيء قسّمه إلى سبعة أجزاء . أما المعنى البعيد الذي يقصده فهو اليوم الخامس من أيام الأسبوع السَّبعة ، وهو يوم الخميس ، على أنهم كانوا يبدأون بالأحد من أيام الأسبوع^(٢) .

أما الباحثون الغربيون فسمّوها^(٣) Dating by Fractions ، وترجمتها «التأريخ بالكسور . . .» وأظن أن هذه التسمية أقرب للواقع ، وأسهل تعبيراً واستعمالاً .

والأمثلة على هذا اللون من تأريخ النسخ متوافرة في المخطوطات التي كتبت منذ القرن العاشر الهجري ، وكذلك في بعض المصادر والمراجع التي تجدها في ذيل هذا البحث^(٤) ، لذا سأكتفى بثلاثة أمثلة من خلال تجربة حيّة صادفتني^(٥) ، وبالتالي يمكن أن يُقاس عليها .

✱ المثال الأول : يقول الناسخ في آخر نساخته :

فرغتُ منها . . . للشهر العاشر ، من العام الخامس ، للعَشر التاسع ، للمئة الثالثة ، من الألف الثاني ، للهجرة . . .

يقصد : في شهر شوال من عام ١٢٨٥ هـ^(٦)

✱ المثال الثاني : يقول الناسخ :

فرغتُ من نسخها قبيل صلاة العصر ، من يوم الأربعاء ، السابع من الثاني ، من الثاني من الثاني ، من التاسع ، من الثالث ، من الثاني ، من الهجرة النبوية .

(١) نموذج من التأريخ بالكسور في المخطوط العربي ، ص ٣٩٤ .

(٢) لعلهم متأثرون بأوروبا .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩٤ .

(٤) انظر : حلّ تعمية التأريخ بالكسور ، ونموذج من التأريخ بالكسور في المخطوط العربي .

(٥) كُرّاستي ، بخطي ، وانظر فهرس المخطوطات المصوّرة ، الأدب ، القسم السادس ، ص ٢٣ .

(٦) فهرس المخطوطات المصوّرة ، النحو ، القسم الثاني ، ص ٨٥ .

وقبل أن نبدأ فى حل هذا اللغز . ينبغى أن نعلم أن أقصى ما يسجله الناسخ من «خانات» فى هذا النوع من التأريخ ، هى : الساعة ، اليوم ضمن الأسبوع ، اليوم ضمن الشهر . الشهر ، السنة ، القرن من السنين ، والألف سنة .

ونعلم من كلام الناسخ أنه صرّح بالوقت من اليوم ، كما صرّح باليوم من الأسبوع . وألغز فى اليوم ضمن الشهر ، والشهر ، والعقد (العشرات) من السنين ، والقرن (المئات) من السنين ، والألف سنة .

وعليه فإن قوله : السابع من الثانى ، إن السابع للأحاد ، والثانى للعشرات (العشر) = ١٧

من الثانى التالية هي الشهر ، وهو صفر ، بعد الشهر الأول وهو المحرم .

من الثانى الأخرى هي (الأحاد) للسنة = ٢ .

من التاسع هي للعقود (العشرات) = ٨ .

من الثالث هي للقرن (المئات) = ٢ .

من الثانى ، هي للألوف ، كأنه يقول الألف الثانية = ١ .

وعليه فإن سنة النسخ ١٢٨٢ هـ .

وهكذا ننتهى أن تاريخ الفراغ من النسخ = قبيل صلاة العصر ، من يوم الأربعاء ، السابع

عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٢ هـ .

✽ المثال الثالث : يقول الناسخ :

فرغت من نسخها يوم الثلاثاء الخمس الثالث ، من السدس الثانى ، من الربع الأول من الثلث الثالث ، من العشر التاسع ، من العشر الرابع ، من العشر الأول ، من العشر الثانى ، من الهجرة النبوية .

وقبل البدء فى الحل لابد أن نعرف أن الناسخ أخرج من قوله المُلغز هذا اهتمامه بتحديد السّاعة ، أو ذكر صلاة من الصلوات ، كما حدّد اليوم من الأسبوع صراحة بقوله الثلاثاء .

ونعلم أيضاً أن الشهور القمرية ، مرتبة بدءاً من : المحرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الآخر (الثانى) ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة (الثانية) ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة .

وقد بدأ القول : الخُمس الثالث ، من السُدس الثانى ، وهو لليوم ضمن الشهر وأيام الشهر ثلاثون يومًا ، سدسه ٥ أيام ، فالسدس الثانى يقع من اليوم ٦ - ١٠ ، والخُمس الثالث منها ، هو اليوم الثامن .

وتبعه قوله : من الرُّبع الأول ، من الثلث الثالث - وهو للشهر ، وشهور السنة - كما قلنا - ١٢ شهرًا ، والثلث الثالث منها يقع من الشهر ٩ - ١٢ ، والربع الأول منها هو ٩ ، وهو بترتيب الشهور الذى ذكرناه عمّا قليل ، شهر رمضان .

وقوله : من العُشر التاسع ، هذا للسنين ، وبدأ بالآحاد ، فالعُشر التاسع = ٩ .

وقوله : من العُشر الرابع ، وهو للعقود (العشرات) = ٣ .

وقوله : من العُشر الأول ، وهو للمئات = صِفْر ، ولو وضعنا بدل الصِفْر ١ ، لأصبح العدد ١٣٩ ، وهو العُشر الثانى ، لا العُشر الأول كما قال .

وقوله : من العُشر الثانى ، وهو للألوف = ١ .

فعدد السنين ١٠٣٩ هـ .

وبهذا تنتهى إلى أن تأريخ الفراغ من النسخ : يوم الثلاثاء الثامن من شهر رمضان سنة ١٠٣٩ هـ .

ولابأس أن نختم هذه الأمثلة بمثل رابع لعله أكثر بساطة ، وأقل تعقيدًا . يقول الناسخ^(١) :

فى اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى ، الشهر الرابع من شهور السنة السابعة ، من العشر الرابع ، من المئة الثالثة ، من الألف الثانية ، من الهجرة النبوية . يقصد سنة ١٢٣٧ هـ .

(١) انظر المخطوطة بدار الكتب المصرية - ٣٨٣ صرف . وهى «شرح الشافية» لابن الحاجب ، للشارح النظام النيسابورى ، المتوفى بعد ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م .

المصادر والمراجع :

- الأرقام العربية ورحلة الأرقام عبر التاريخ/ سالم محمد الحميدة . بغداد : وزارة الإعلام ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
- أساس البلاغة/ الزمخشري . بيروت : دار صادر ، ١٣٩٩ = ١٩٧٩م .
- تاج العروس من جواهر القاموس/ الزبيدي ، الجزء ٢٨ . الكويت ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م .
- الجمهرة/ ابن دريد . بيروت : دار صادر ، بالأوفست عن طبعة حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٥هـ .
- جوانب مضيئة من الشعر العربى/ محمد عبد الغنى حسن . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢م .
- حلّ تعمية التأريخ بالكسور/ مصطفى موالدى . مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٢/٣٩ (١٤١٦هـ = ١٩٩٦م) ص ٢١٣ - ٢٥٥ .
- طبقات الأطباء والحكماء/ ابن جُلجل . تحقيق فؤاد سيد . القاهرة : المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٥٥م .
- فهرس المخطوطات المصوّرة ، الأدب ، القسم الرابع/ عصام محمد الشنطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٤م .
- فهرس المخطوطات المصوّرة ، الأدب ، القسم الخامس/ عصام محمد الشنطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٥م .
- فهرس المخطوطات المصوّرة ، الأدب ، القسم السادس/ عصام محمد الشنطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٦م .
- فهرس المخطوطات المصوّرة ، النحو ، القسم الثانى/ عصام محمد الشنطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٧م .
- فهرس المخطوطات المصوّرة ، الفلك ، القسم الثانى/ عصام محمد الشنطى . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٩م .

- لسان العرب/ ابن منظور ، الجزء ١٣ ، طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق .
- المصادر العربية لتاريخ المغرب/ محمد المنّوني . الفترة المعاصرة ١٧٩٠ - ١٩٣٠ م ، الجزء الثاني ، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩ م .
- المعجم العربي بين الماضي والحاضر/ عدنان الخطيب . القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٧ م .
- المُعَرَّب/ أبو منصور الجواليقي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر . ط ٢ . القاهرة : مركز تحقيق التراث ونشره ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩ م .
- نموذج من التأريخ بالكسور في المخطوط العربي/ جعفر هادي حسن . مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٣٢ / ٢ . الكويت ، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨ م ، ص ٣٩٣ - ٤٠٢ .
- المعجم الوسيط/ مجمع اللغة العربية ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية . القاهرة ، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢ م .

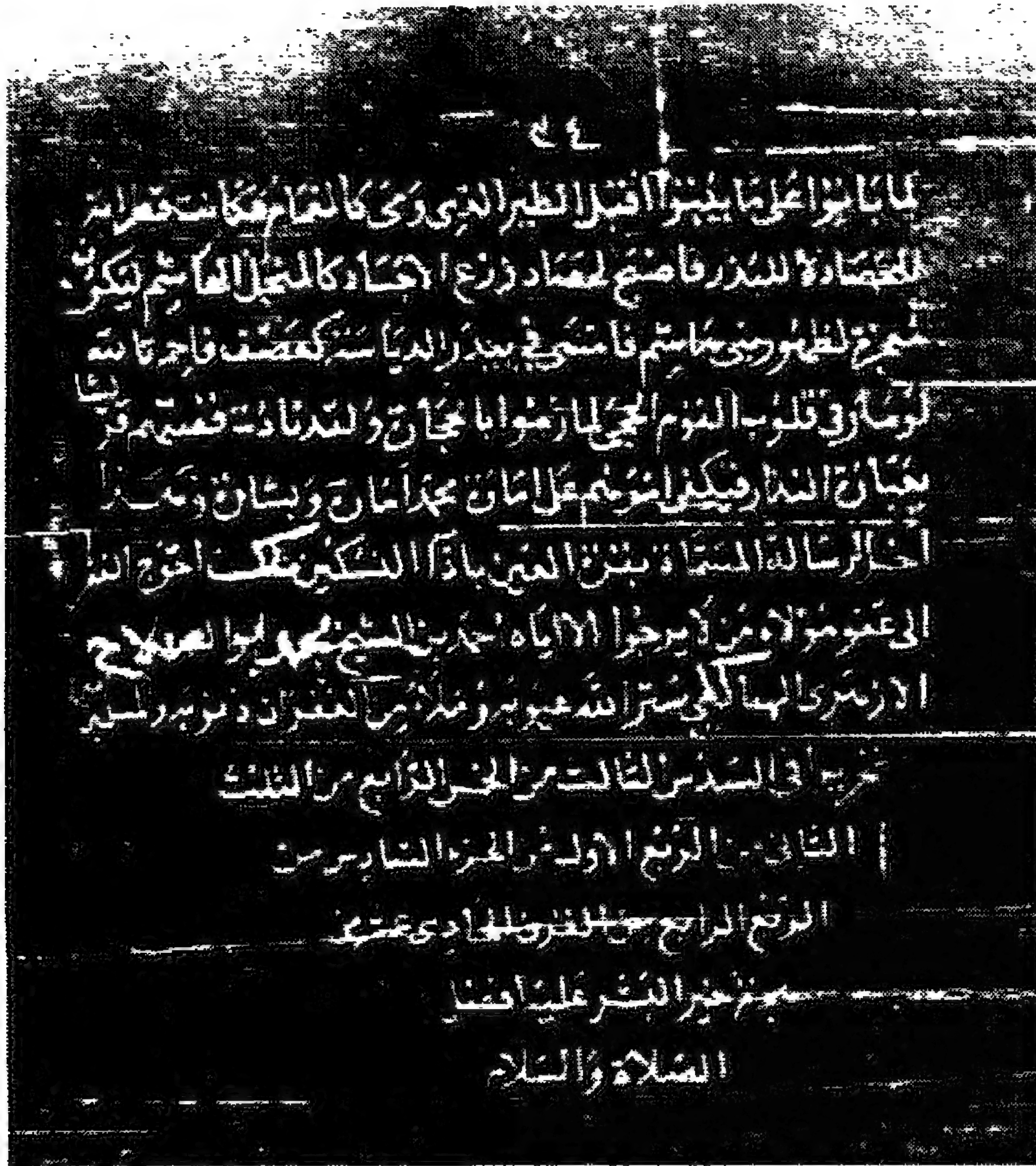
* * *

قصة السبق

قارئنا العزيز ؛ إيماننا منا بضرورة التواصل بين مجلتنا وبينك ، فقد ارتأينا أن نعقد في كل عددٍ من مجلتنا مسابقة فريدة في نوعها ، جديدة في فنها . على أن يظفر الفائز في هذه المسابقة بإصدار قيم من إصدارات مركز تحقيق التراث . فهلا أحرزت قصة السبق!!

والآن هيا بنا إلى المسابقة :

حاول معنا أن تتعرف على تاريخ النسخ لهذا المخطوط ، واكتبه داخل المستطيل أسفل الصفحة ، ثم أرسله إلى عنوان مراسلة المجلة .



الحل هو :

الاسم :

الوظيفة :

العنوان :

الهاتف :

الهوية بين الأصالة والتغريب

أ.د. عفت الشرقاوي*

يدور في حياتنا الثقافية المعاصرة جدل شديد حول مفهوم التغريب . وقد يختلط أحيانا هذا المصطلح لدى المؤيدين والمعارضين على السواء بمفهوم التحديث . وهو جدل قديم تمتد جذوره إلى بدايات القرن التاسع عشر حين تعرضت المنطقة العربية لموجات متتابعة من التغيير ، جاءت في معظمها من الغرب ، تحت تأثير الرغبة الوطنية في تطوير الكفاءة العسكرية في بعض الدول لمواجهة قوى معادية أو لحماية استقلالها القومي .

ويمكن أن نقول إجمالا ، إن استجابة المثقفين العرب لهذا التأثير المتواصل ، الذي ظل يمثل تحديا مستمرا من الغرب ، انقسمت على نزعتين هما : التقليدية والتحديثية . والمقصود بالنزعة التحديثية هنا ؛ ما نجده من موقف إيجابي أمام التجديد والتغيير ، بل أمام مستحدثات الحضارة الغربية عموما . أما التقليدية فإنها تعبر عن موقف سلبي تجاه كل أشكال التجديد . وتعتبر التحديثية المدعاة مرادفة للتغريب المطلق ، الذي يهدد في رأى بعضهم الهوية الخاصة في الصميم ، استجابة لثقافة الغرب الوافدة . فسبب التخلف عندهم هو عدم الالتزام بالتراث ، أو هو ابتعاد الحاضر عنه ، وهو ما يهدد مفهوم الهوية في الصميم .

غير أن دعاة التحديث المسمى في لغة خصومهم بالتغريب ، يرون في هذه التقليدية وقوفاً جامدا سلبيا غير قادر على التفاعل الإيجابي مع العوامل الخارجية . إنه في رأيهم نزعة رجعية في أساسها . وقد يجوز أن نسمى بعض مثقفينا بالمحافظين أصحاب التوجه التاريخي ، الذين يستلهمون نموذجهم الحضاري من تقاليد قديمة تكونت عبر التاريخ . فمواقفهم الفكرية كانت تستلزم دائما عودة إلى الوراء ، في رأى خصومهم من أنصار التحديث . فالماضي وليس الحاضر هو محور العصر الذهبي ، لأنهم يعتقدون أن الماضي يمكن استعادته ، لأن التاريخ يكرر نفسه في رأيهم . ومثل هذا الموقف يعد بين سائر الثقافات العالمية ، موقفا تكاد تنفرد به الثقافة العربية .

ومع ذلك فإن هذه النزعة المحافظة كانت تمثل الاستمرار التاريخي للأمة ، والصلة الباقية مع الماضي ، كما كانت تمثل في رأى كثير من الباحثين نقطة البداية للانبعاث ، والأساس الوحيد لمقاومة التهديد الأوروبي ، فلا توجد أمة دون ثوابت . وفي الوقت نفسه ،

(*) أستاذ بجامعة عين شمس .

ليس هناك مجتمع يضرب حول نفسه أسوار العزلة سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، فى عالم أصبح لا يعترف بثقافة الانكفاء على الذات ، استجابة لنمو الشعور القومى الذى يغرى أحيانا بالدعوة إلى مقولة الاكتفاء الذاتى فى المسألة الثقافية ، وهى دعوة خطيرة .

فى مقابل ذلك يجد الباحث أن أصحاب الاتجاه التحديثى - بوعيههم المتجدد لحركة التاريخ - كانوا يتطلعون إلى المستقبل ، ويرفضون الوضع التقليدى الذى رضى به أصحاب النزعة التقليدية إلى حد كبير ، ويستمدون تصوراتهم الأساسية من الثقافة الغربية ، وليس من تقاليد الماضى . كانت النظرة التحديثية ذات أحلام بعيدة فى التجديد ، لأن أصحابها آمنوا بأن العصر الذهبى إنما يكمن فى المستقبل وليس فى الماضى ، لأن تحقيق الهوية ليس مسألة ساكنة ، وإنما هو حركة غائية فى تطور مستمر .

مصطلح التغريب إذن قريب من مصطلح التحديث ، أو هو مرادف له ، ولكن ما يقصد إليه فى ذلك المؤيدون والمعارضون على التحديد غير واضح تماماً ، وقد يعلو الخلاف والاتهام صراحة أو ضمناً . والتهمة هنا تتجه إلى النقاء الروحى والولاء القومى من جهة ، أو إلى الجمود والتخلف الفكرى من جهة أخرى ، بحسب الموقف الأيديولوجى للمثقف بين هاتين النزعتين .

وهذا الاختلاف الواضح حول المقصود بالتغريب أو التحديث ، كما رأينا ، لا ينتهى إلى توضيح حاسم بسبب غموض المصطلح ، وتطور الواقع التاريخى الذى يفرض نفسه على المجتمعات العربية وغيرها . ولذلك نشأت نزعة إصلاحية ، تعنى بالتحديث الإسلامى ، ذات طابع وسطى ، شأن الحلول التوفيقية فى كل صدام ثقافى . وهذه النزعة تحكمها التقاليد أيضاً ، ولذلك لا يعدها كثير من المؤرخين نزعة انبعاث حقيقى يؤسس للنهضة ، بل هى فى حقيقة الأمر نزعة محافظة متنورة ، متسلحة بإدراك عقلانى لوضعها وحاجاتها ، ولذلك سمحت بالتغيير ضمن حدود معينة ، كما فعلت مدرسة المنار وغيرها من المدارس الإصلاحية فى العصر الحديث . ولكن مثل هذا الاتجاه الإصلاحى الموفق بين الاتجاهين السابقين كان معرضاً أيضاً لنقد مزدوج على الجانبين ، فلا هو أَرْضَى التقليديين ، ولا هو أسعد التحديثيين . وقد أثير حوله ، كما أثير حول التحديثيين ، شبهات تمس الضمير الدينى والهوية القومية والانتماء التاريخى ، نجد الإشارة إليها واضحة فى كثير من المؤلفات .

وأكثر المتحدثين فى الهجوم على التغريب يتفقون على أن التغريب «تيار بعيد المدى ، ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية ، ترمى إلى صبغ حياة الأمم بعامة والمسلمين

بخاصة بالأسلوب الغربى ، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة ، وخصائصهم المتفردة ، وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية»^(١) .

وفى إطار هذا التعريف المفعم بفكرة المؤامرة على العالم الإسلامى ، يعتقد أعداء التغريب أن تحديث الجيوش وتعزيزها بالسلاح والذخيرة كان من قبيل التواطؤ مع النفوذ الاستعمارى إبان عهد النهضة العربية والحاجة إلى الاحتكاك الحضارى بالغرب واستقدام الخبراء الغربيين للتدريس والتخطيط . ودليلهم فى ذلك أن السلطان محمود الثانى قضى على الإنكشارية (الجيش التقليدى للأتراك) سنة ١٨٢٦ ، وأمر باتخاذ الزى الأوروبى (فهم يرون أن مجرد تغيير الزى إلى نمط أوروبى كان ضرباً من التغريب المدبر) .

كذلك هم يدينون ما ذهب إليه السلطان العثمانى عبد المجيد ، لأنه أصدر فى سنة ١٨٣٩ منشوراً يسمح فيه لغير المسلمين بأن يلتحقوا بالخدمة العسكرية . كما يدينون موقف السلطان سليم الثالث فى استقدام المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وإنجلترا لإنشاء المدارس الحديثة . وقريب من هذا فى رأيهم ، ما فعله محمد على والى مصر الذى تولى حكم مصر سنة ١٨٠٥ ، إذ قام ببناء جيش على النظام الأوروبى ، وكان ذلك مدعاة لسلسلة من إجراءات التحديث غير المقبول فى مصر . ومن ذلك أنه عمد إلى ابتعاث الأزهرين من أجل التخصص فى أوروبا . ومثله أحمد باشا باى فى تونس ، الذى سار على نمط محمد على فى ذلك .

وهؤلاء النقاد يعدون من التغريب ما حدث فى إيران حين افتتحت أسرة القاجار التى حكمت إيران كلية للعلوم والفنون سنة ١٨٥٢ على أساس غربى . أما فى لبنان فهم يعدون أن حركة التغريب قد بدأت منذ عام ١٨٦٠ عن طريق الإرساليات .

وفى مصر ، نشأت الرغبة الشديدة عند الخديوى إسماعيل فى أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، وكان له مشروعات ثقافية ذات طابع تغريبى فى هذا الاتجاه ، لا تلقى قبولا لديهم . وهكذا نجد أن هذا التيار المحافظ يعد كل محاولة للاتصال بالحضارة الغربية خطأ مشيناً ، ووقوعاً فى مخطط غربى متآمر على الحضارة الإسلامية ومنجزاتها ، فى أقاليمها السياسية المختلفة .

(١) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ، صدرت عن الندوة العالمية للشباب الإسلامى فى الرياض ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٩ هـ - ١٨٨٩ م ، مادة التغريب ص ١٤٥ .

وفى إطار هذا التأويل المتشائم ، يتم اتهام أعلام كبار لهم دورهم فى الحركة الإصلاحية والنهضة الثقافية للعالم العربى المعاصر . والاتهام بالتغريب هنا يعنى عندهم الانفلات من الانتماء الدينى ، أو التاريخى ، بصور متفاوتة ، كما سبقت الإشارة .

وكان من العجب أن يوضع على رأس هؤلاء الأعلام الموصومين بتهمة التغريب رجل نابه مثل رفاعة الطهطاوى ، الذى ابتعث إلى باريس ، وأقام فيها خمس سنوات (١٨٢٦ - ١٨٣١) فأضيف ذلك إلى أسباب إدانته . وكذلك خير الدين التونسي ، الذى أقام فيها أربع سنوات (١٨٥٢ - ١٨٥٦) فسقط أيضا فى هوة التغريب . وعاد الرجلان كلاهما محملين بأفكار تدعو إلى تنظيم المجتمع على أساس علمانى عقلانى فى رأى هؤلاء النقاد .

ولم يسلم العلماء الذين أسهموا فى ترجمة بعض الكتب عن الفرنسية أو غيرها من مثل هذا الاتهام بالتغريب ، وخصوصا مؤلفات فولتير وروسو ومونتسكيو . فهؤلاء المترجمون ، فى رأى أصحاب الاتجاه المحافظ ، يحاولون نشر الفكر الأوروبى الذى ثار ضد الدين ، والذى ظهر فى القرن الثامن عشر .

ويدخل ضمن قائمة الاتهام بالتغريب ؛ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ - ١٨٧١) ، وابنه إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ - ١٩٠٦) ، وكذلك بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) ، الذى كان أول مسيحي يدعو إلى العروبة والوطنية ، إذ كان شعاره : «حب الوطن من الإيمان» ، وهو شعار معيب فى نظرهم لأن القومية العربية عندهم : «حركة سياسية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل الدين ، وهى صدى للفكر القومى الذى سبق فى أوروبا»^(١) ، وهم لذلك يسعون إلى اقتلاع وهم القومية العربية من الأذهان ، مع أنها تمثل وحدة حضارية وثقافية أعمق من كل تكتل آخر على خريطة العالم . إنها وحدة تسير مع الفكرة الإسلامية فى شتى المجالات ، عقيدة وشريعة وأخلاقا وحضارة^(٢) .

وفى زعم هؤلاء النقاد للمؤثرات الغربية ، أن جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧) كان داعية تغريب ، وهو من هو فى حشد الجهود للثورة على الاستعمار والخلاص من النفوذ الغربى . وكذلك زميله المصلح العظيم محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) الذى كانت مدرسته فى رأيهم - ومنها رشيد رضا - تعتمد على أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل ، بغية

(١) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ١٤٥ .

(٢) عفت الشرقاوى : الفكر الدينى فى مواجهة العصر - بيروت : دار العودة ، ص ٢١٧ .

التقريب بين الإسلام والحضارة الغربية . وهم يأخذون على محمد عبده - مثلاً - أنه دعا إلى إدخال العلوم العصرية إلى الأزهر لتطويره وتحديثه ، فهذا الاتجاه العلمى الجليل من التغريب المعيب فى رأيهم^(١) .

كذلك يدخل فى زمرة هؤلاء المستغربين - عندهم - قاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨) الذى يتهمونه بالدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، والدعوة إلى تمكين المرأة من العمل فى الوظائف والأعمال العامة . ومثله سعد زغلول (١٨٠٧ - ١٩٢٧) فهو من المتغربين أيضاً لأنه دعا إلى إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى بقصد تطوير الفكر الإسلامى من خلال مؤسسة غير أزهريّة ، منافسة للأزهر كما يظنون . وكذلك أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) الذى يتهم فى مؤلفاتهم بأنه نادى : «مصر للمصريين» . ثم طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) الذى يعد فى رأيهم أبرز دعاة التغريب فى العالم الإسلامى ، بكتابه «الشعر الجاهلي» ، و«مستقبل الثقافة فى مصر» .

وكان من الطبيعى إزاء هذه النظرة المتشائمة إلى كل احتكاك ثقافى بالغرب ، أن يحتل مصطفى كمال أتاتورك مكانة خاصة فى اتجاه الهجوم على ثقافة التغريب ، فقد كان أكثر التحديثيين صراحة فى النقل عن الغرب ، فلم يلجأ إلى تأويلات تقليدية تبرر اختياراته الحضارية ، كما فعل كثيرون ، وقد مهد فى رأيهم لتوجه تركيا فى الركب العلمانى الحديث . وفى هذا الاتجاه يعد على عبد الرازق ، بسبب كتابه الذى نشره سنة ١٩٢٥ بعنوان «الإسلام وأصول الحكم» ، ممثلاً مصرياً لاتجاه مشابه للعلمانية الكمالية .

وتمتد الإدانة لتشمل كل من أسهم فى فكرة جديدة ، أو قدم مشروعاً للنهضة ، أو جدد فى مجال ثقافى خلال القرن الماضى . ومن هؤلاء زكى مبارك (١٨٩١ - ١٩٥٢) الذى درس على أيدي المستشرقين وهاجم الغزالي ، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) الذى يعد من أبرز المتغربين ، وكذلك أمين الخولى أستاذ مادة التفسير والبلاغة بالجامعة المصرية ، الذى يعتقد أنه من المروجين لأفكار طه حسين . وغير هؤلاء كثيرون ، يراهم أعداء التواصل مع الحضارة الغربية متآمرين على الإسلام والمسلمين ، يسعون إلى بسط معالم الحضارة الغربية المادية الحديثة على هذه البلاد الإسلامية ، وربطها بالعجلة الغربية ،

(١) انظر : محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر . القاهرة : مكتبة الآداب ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠ . وقارن : محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ ، ص ٤٢٥ .

وهو ما يتم بالتدريج الآن في رأيهم ، مع تفاوت في تأثير حركة التغريب بحسب المواقع المختلفة لهذه البلاد^(١) .

ولقد ظهر أثر هذا التغريب بوضوح ، كما يرونه ، في مصر وبلاد الشام وتركيا وأندونيسيا والمغرب العربي . أما البلاد الإسلامية الأخرى ، فتتدرج فيها درجة هذا التأثير الأقل فالأقل ، بحيث ينتهون إلى القول بأنه لم يخل بلد إسلامي أو شرقي من هذه الحركة المتغربة .

هذا ما تسجله المؤلفات المتعددة التي تعبر عن وجهة النظر المحافظة في هذا الموضوع^(٢) ، التي يعتقد أصحابها أن إنسان العصر الحالي يجد نفسه أمام طوفان من المعلومات المشوشة المتناقضة حول أحزاب وتيارات فكرية وسياسية و فرق وأديان وفلسفات لا يكاد يبصر فيها وجه الحقيقة الموضوعية ، وأن موضوع التغريب من المشكلات الأساسية في ثقافة العصر .

وهكذا فهم موضوع التحديث باعتباره تغريباً للأمة ، وقضاء على هويتها التاريخية . وترتب على ذلك إدانة كاملة لكل تواصل مفيد مع ثقافة الغرب ، مع أن لكل ثقافة قومية أصولاً ثابتة لا تتبدل مع الأيام إلا بالحد الأدنى الذي لا يعوق التقدم ، كما أن لها فروعاً لا تنفك تتغير كلما تغيرت الظروف من حولها . ولكن المهم ، كيف نوفق بين ذلك الفكر الوافد ، وبين ثقافتنا الخاصة بالحوار والتأمل . وكما يقرر الدكتور زكي نجيب محمود ، فإن الأصل في الفكر إذا جرى مجراه الطبيعي المستقيم هو أن يكون حواراً بين «لا» و «نعم» وما يتوسطهما من ظلال وأطياف ، «فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكراً ، ولا القبول المطلق الأعمى يعد فكراً ، ففي الأول عناد الأطفال ، وفي الثاني طاعة العبيد»^(٣) .

إن علاقتنا بالثقافة الغربية يجب أن يسودها مثل هذا الحوار ؛ بمعنى أن نقبل من الآراء المعروضة ما نقبله ، ونرفض ما نرفضه ، وفقاً لما تقتضيه المصلحة . على أن القبول يكون قبولاً لما نظن أنه الصواب ، ويكون الرفض رفضاً لما نظن أنه الخطأ . وهذا «الظن» الذي هو سمة لا مندوحة عنها في فكر البشر ، هو الذي يجعل الصواب المقبول صواباً يحتمل الخطأ ، كما يجعل الخطأ المرفوض خطأً يحتمل الصواب . وهذا يتفق مع موقف أحد علمائنا

(١) الموسوعة الميسرة : في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ١٤٥ .

(٢) انظر : أنور الجندي : شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٨ .

(٣) زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧١ ، ص ٣ .

الكبار الذى كان يقول : «رأينا صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب» . وبمثل هذه النظرة إلى «نعم» و«لا» ، يصبح نسبيا ما حسبناه بادئ الأمر مطلقاً ، ويصبح مبصرا ما كان بادئ الأمر مكفوف البصر ، فى مواقف القابلين والرافضين على السواء^(١) .

وفى تاريخ الحضارة الإسلامية ما يدل على أن العرب فتحوا قلوبهم وعقولهم لكل ما حولهم من الثقافات بمثل هذا الاعتبار الحكيم ، فأخذوا وأعطوا أنفس ما تعزز به الثقافة الإنسانية . كان هذا فور اكتشافهم الأول للثقافة الغربية فى صورتها اليونانية التى كانت سائدة خلال المد الإسلامى فى العصر العباسي^(٢) . ولم يجد العرب حرجا فى الإفادة من كل إنجازات عصرهم . لكن الحالة السياسية المعكوسة فى الاكتشاف الثانى - أى المعاصر - هى التى تميز تمييزا دقيقا بين الاستمدادات الثقافية التى قام بها المسلمون فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وتلك التى قام بها العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر . فالعالم الإسلامى إذ ذاك لم يكن فى موقف دفاعى ، كما يلاحظ بحق بعض المؤرخين ، ولكنه تبنى تلك الإمكانيات لمصلحته هو ، وفعل ذلك فى ريث وأناة . وإذا كان قد وقع تحت تأثير ضغط ، فلم يكن ذلك من الخارج ، ولكن بدافع من مرحلة التطور التى يمر بها . وبالاختصار ، فإن الملابس السياسية التى توجه النقل الثقافى فى عصرنا الحاضر هى التى تجعله صعبا من الوجهتين النفسية والاجتماعية ، ومفككا لموقف الجماعات التى تستقبل هذا النقل دون روية . فالاختيار ، وتحديد الوقت ، والتأثر الإيجابي ، ورد الفعل المعادى ، كل أولئك لم يعد خاضعا لحالة النمو ، ولا للحاجات الذهنية والوجدانية للمستعير ، ولكنه يخضع للطموح الثقافى الذى قد يصل إلى درجة الدعوة إلى التغريب المطلق ، ولسلسلة من الأحوال الاضطرارية التى ليس للمستعير عليها إلا تسلط محدود^(٣) . ومن هنا يرى بعض المؤرخين أن العباسيين كانوا يسيرون فى طريق حمى عصرهم من الأخطار المصاحبة للاستمداد الثقافى فى عصرنا الحاضر الذى يتحكم فيه النزوع نحو الغرب .

فى هذا الإطار الحضارى الجديد ، نشأت صعوبة واجهت أصحاب نزعة التحديث من المثقفين الذين يقفون من المدنية الغربية موقف المعجب المشوق^(٤) . لذلك فإن الظروف

(١) زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى ، ص ٣ .

(٢) انظر : محمد عابد الجابرى : تكوين العقل العربى . ط ٥ . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١ ، ص ٢٢٠ .

(٣) انظر : عفت الشرقاوى : الفكر الدينى ، ص ٨٣ .

(٤) فون جرونباوم : تأثير الأمم الإسلامية بمدينة الغرب ، نظرية الاستمداد الثقافى ، ص ٨٩ ، ضمن أعمال مؤتمر : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، ترجمة : محمد خلف الله أحمد . القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٥٥ .

السياسية الجديدة هي التي تضيف على حوار الثقافات هذا الجدل الخاص فيما يتعلق بالاستمداد الثقافي . فحضارة المسلمين واجهت العصر الحديث ، وقد تخلفت عن الركب ، في مقابل حضارة الغرب النابضة بالحركة والحياة التي يشرق في جنباتها ضياء العلم ، وتدفعها حرارة العمل . ووجد المسلمون أنفسهم وقد أصبحوا في موقع الأدنى والأضعف الذي يرغب الآخرون في السيطرة عليه واستغلال موارده .

وهذه المفارقة بين القوة والضعف كانت تعم أقطار المسلمين جميعا ، فليس هناك قطر واحد لم تصبه نكبة التخلف . وقد عانى العالم الإسلامى كله مرارة هذا اللقاء بين القوى الغاصب المنتصر المؤيد بمستحدثات العلم والتكنولوجيا ، وبين الضعيف المتخلف المقيد بجمود التقليد . ولقد كان من الطبيعي أن يحاول المسلمون تفهم أسرار هذه الحضارة الطارئة ، وينفروا إلى أقطار الغرب ، فيأخذوا عنها تلك الاكتشافات العلمية والمناهج العملية التي تقدمت بفضلها هذه الأمم الغربية^(١) .

وهذا الاجتهاد من جانب العالم الإسلامى الذى حتمته الضرورة الحضارية فى مواجهة العصر ، هو نفسه الذى يسمى عند بعض المحافظين بالتغريب ، كما رأينا فى الأمثلة السابقة ، إذ يرون فيه فقداناً للهوية ، وتأمراً على الثقافة الإسلامية كما ذكرنا . وهذا نفسه هو الذى نتج عنه عند بعض المثقفين شعور متناقض نحو ثقافة الغرب يتراوح بين التقدير العظيم والعداء الشديد . فكيف يمكن أن يجمع المثقف المسلم فى نفسه بين الإعجاب بما وصل إليه الغربيون من تقدم من جهة ، والحقده على هذا المستعمر الغازى من جهة أخرى فى الوقت نفسه ؟ وهذا هو جوهر مشكلة الأصالة والتجديد فى العالم الإسلامى حتى وقتنا الحاضر : الحيرة بين القبول والرفض ، والتردد بين الإعجاب والكراهية . وهذا مأزق نفسى خاص فى صراع الحضارات ، يغلب على ثقافة المسلم المعاصر .

من أجل ذلك صارت مسألة التمدن الإسلامى موضوعاً للتأمل والبحث على النحو الذى رأينا جانباً منه . فقد أثبتت الدعوة إلى الوقوف عند القديم على قدمه ، كما كان هناك من طرف آخر من يدعون إلى البدعة التى لم تسبق . وكان هناك من يجتهدون فى التوسط بين الأمرين ، لأنهم رأوا أن المغالاة فى الجمود قد تتهدد المعرفة ، وأن المغالاة فى التجديد قد تتهدد الإيمان . ومن حسن التوفيق أن الاعتدال الكريم وجد أحيانا سبيله عند عدد كبير

(١) أبو الأعلى المودودى : موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ، ترجمة محمد كاظم سباني . القاهرة : دار الفكر ، ١٩٣٨ ، ص ١٨٢ .

من المثقفين الذين يميلون إلى الإفادة من مستحدثات المدنية الجديدة مع الاحتفاظ بالأصول القديمة . وفى هذا الإطار الاجتهادى يستمر الاستمداد الثقافى من الحضارة الغربية ، بل هو يتم فى أبعد ما يتصوره الإنسان مجالا لهذا الاستمداد .

ولما كانت الخصائص الفردية للثقافة الأجنبية أكثر قبولا من تلك الثقافة فى عمومها ، فقد استطاع المثقف الحديث أن يفيد من مناهج جديدة فى التفكير ، هى التى يظن خصوم التجديد أنها من قبيل التغريب .

ومع ذلك فإن هذه الاستفادة من المناهج الجديدة لم تسمح للثقافة الأجنبية أن تطفى تماما على شخصية المثقف المعاصر فى المجتمع العربى ، بحيث تحطم قيمه التاريخية أو تشكل خطرا على عقيدته الدينية نتيجة التأثير المادى الأجنبى . ولقد ظل سريان العناصر الغربية مقصورا على ما يمكن أن يهاجر من قوم إلى آخرين ، كالفنون الصناعية والتطبيقية . وهذه العناصر لم تطبع العالم الإسلامى بالطابع الغربى الذى يتوهمه خصوم التغريب بالمفهوم الذى قدمناه ، بل هى لم تزد على الارتفاع بمناهج التفكير إلى مستوى عقلى أعلى ، وتنسيق الاقتصاد والفنون الصناعية وتنظيم الدولة . فهى لم تشمل المبادئ الأساسية المتضمنة فى الدين والفلسفة والفن ، لذلك لم يفقد المجتمع الإسلامى نفسه فى المدنية الغربية كما توهم بعض المحافظين ، لأن قبول عنصر من ثقافة أجنبية لم يستلزم أن يجر وراءه سائرها ، بالإضافة إلى أن هذا القبول لم يتم عن طريق النقل المباشر لقيم مرتبطة بتاريخ معين ، أو تجارب قومية خاصة ، بحيث تكون ذات تأثير مدمر فى الثقافة المستقبلية ، كما يتوهم أصحاب النزعة المحافظة .

وبتحقيق هذا الوعى يتم التواصل بين الشرق والغرب ، ولا تستتبع الاستمدادات من الحضارة الكبرى دائما استمدادات إضافية مجددة ، يملئها تقليد المغلوب للغالب ، بحيث تعتبر عامل تفكيك فى المجتمع المستقبل .

وهكذا يمكن أن نقول فى إيجاز ، بعد الذى تقدم : إن مسألة التغريب التى تشغلنا اليوم والتى تعبر عن هذا القلق بين أمجاد الماضى وآمال المستقبل ، يمكن أن يحسمها مراعاة الفرق بين روح الحضارة وأدوات المدنية فى تاريخ التطور البشرى . فمن الممكن أن نقول إننا نحمل هويتنا بالحفاظ على حضارتنا باعتبارها صورة التعبير عن الروح العميقة للمجتمع . فأما مظاهر التقدم الآلى والتكنولوجى ، فإنها تتصل بمعنى المدنية فى إطارها العام . ولا بأس من التغريب الحر فى هذا المجال ، باعتبار أن الحضارة هى : « ما نحن » ، والمدنية هى :

«ما نستعمل». وبعبارة أخرى، فإن حضارتنا تتمثل في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات، بينما يتمثل الجانب المدني منها في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا.

وعلى هذا، فلا مجال لما يسمى بالتغريب فيما يتصل بالقيم العليا للمجتمع المتمثلة في نشاطه الروحي والوجداني، أي في حضارته التي هي جوهر ذاته، بينما يجوز لنا، بل يجب علينا أحيانا أن نلجأ إلى التحديث بمعنى التجديد على الأنماط الغربية الناجحة في كل ما يتصل بغير ذلك من شئون الحياة، أي في مدنيّتنا، لأننا لا نملك حق التغريب فيما يتصل بتراثنا المدخر المتراكم، بينما يحق لنا أن نمارس هذا التحديث في كل ما يتصل بإنشاءاتنا الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، إذا كان ذلك معينا على تحسين نظام الدولة وازدهار العمران، وحماية الوطن، أي مادام هذا الغرب أعلم منا بشئون دنيانا.

أساسيات العلوم الفيزيائية المعاصرة في التراث العربي

دراسة تأصيلية

أ.د. أحمد فؤاد باسما*

مقدمة :

علم الفيزياء ، هو أحد فروع العلوم الطبيعية ، وماهيته تختلف من عصر إلى عصر ، والرجوع إلى المعاجم والقواميس لا يفيد كثيراً في تعريفه . فالفيزيائيون يحاولون فهم القواعد أو القوانين الأساسية التي تحكم سير العالم الطبيعي الذي نعيش فيه ، وفي بعض الأحيان ينسحبون تدريجياً من مجال ما بمجرد معرفة قوانينه الأساسية ، تاركين للآخرين القيام بالمزيد من التطوير والتطبيقات العملية . ولهذا نجد أن بعض الموضوعات التي تدخل الآن في علم الكيمياء أو الجيولوجيا أو الفلك أو الهندسة أو غيرها ، كانت يوماً ما من موضوعات الفيزياء ، كما أن العديد من فروع الفيزياء الموجودة الآن لم تخطر على البال منذ جيل أو جيلين .

كذلك أصبحت الفيزياء قاسماً مشتركاً في الكثير مما ظهر من علوم بينية يتجاذبها تخصص أو أكثر ، مثل الفيزياء الكيميائية ، والفيزياء الأرضية ، والفيزياء الفلكية ، وعلوم الفضاء والعلوم البيئية وغيرها .

وتعريف الفيزياء بأنها العلم الذي يعنى بدراسة القوانين الأساسية التي تحكم سير العالم الواقعي ، هو الذي يوضح اهتمام ذوى التخصصات الأخرى بعلم الفيزياء ، لا بالنسبة للمتخصصين في باقى فروع العلوم الطبيعية فحسب ، ولكن حتى بالنسبة لدراسى اللغة والآثار والتاريخ والفلسفة والاجتماع عندما يتعرضون مثلاً لعلاقة التطور بالنشاطات الإنسانية ، أو لبحث مسيرة التفكير العلمى ومناهجه ، أو لشرح مفاهيم الفراغ والزمن والمادة والطاقة ، أو غير ذلك مما يبرر أهمية الفيزياء بالنسبة لمختلف فروع المعرفة ومعالجتها على أسس علمية .

وهذه الدراسة التأصيلية تستعرض أساسيات بعض العلوم الفيزيائية المعاصرة في التراث العربي ، وتلقى الضوء على الأفكار والآراء والنظريات والقوانين الفيزيائية التي تحتفظ

(*) أستاذ الفيزياء بكلية العلوم - جامعة القاهرة .

بقيمتها المعرفية أو المنهجية حتى اليوم ، والتي أصبحت تشكل الأساس لكثير من المباحث الفيزيائية التي تعامل كعلوم تخصصية مستقلة .

وسوف نعتمد في توثيق هذا العرض على بعض النصوص المحققة المنتقاة من أمهات الكتب التراثية .

١ - الميكانيكا : Mechanics

(أ) الحركة وأنواعها وقوانينها :

حدد ابن سينا في كتابه «الشفاء» عناصر الحركة في : المتحرك (الجسم المتحرك) ، والمحرك (القوة المسببة للحركة) ، وما فيه (موضع الجسم) ، وما منه (مكان بداية الحركة) ، وما إليه (مكان نهاية الحركة) ، والزمان (الفترة الزمنية التي استغرقتها الحركة) .

ونجد تعريف الحركة الطبيعية والحركة القسرية في قول ابن سينا أيضاً : «وكل جسم متحرك فحركته إما من سبب من خارج ، وتسمى حركة قسرية ، وإما من سبب من نفس الجسم ، إذ الجسم لا يتحرك بذاته ، وذلك السبب إذا كان محركاً على جهة واحدة على سبيل التسخير فيسمى طبيعة » .

كما نجد تعريف الحركة الانتقالية والحركة الدورانية في كتاب «المعتبر في الحكمة» لابن ملكا البغدادي ، وقد سماهما «الحركة المكانية» و«الحركة الوضعية» ، حيث يقول : «الحركة المكانية هي التي بها ينتقل المتحرك من مكان إلى آخر ، والحركة الوضعية هي التي تتبدل بها أوضاع الحركة ولا يخرج عن جملة مكانه كالدولاب والرحا » .

وربط ابن المرزبان في كتاب «التحصيل» بين الحركة والزمن ، فقال : «كل سرعة في زمان ، لأن كل سرعة هي في قطع مسافة ، أو ما يجري مجرى المسافة ، وكل ذلك في زمان .. فلو كانت حركة لا نهاية لها في السرعة ، لكان زمان لا نهاية له في القصر ، فكانت الحركة لا في زمان .. » .

وعرف ابن الهيثم مصطلح «كمية التحرك» الذي يشير إلى كمية فيزيائية في المتحرك تتوقف على سرعة حركته وكمية المادة به (أي كتلته) ، وسماه «قوة الحركة» في معرض شرحه لارتداد جسم مصادم لسطح مستو ، حيث يقول : «والمتحرك إذا لقي في حركته مانعاً يمانعه وكانت القوى المحركة له باقية فيه عند لقائه الممانع ، فإنه يرجع من حيث كان في الجهة التي منها تحرك .. وتكون قوة حركته في الرجوع بحسب قوة الحركة التي

كان تحرك بها الأول ، وبحسب قوة الممانعة . . لأن الحركة المكتسبة إنما تكون بحسب مقدار المسافة وبحسب مقدار الثقل . وهنا يكتسب إدراك ابن الهيثم للمعنى الكمي للحركة أهمية خاصة إذا علمنا أن معدل تغير كمية التحرك بالنسبة للزمن هو الأساس الذي قام عليه قانون نيوتن الثاني للحركة كما سنرى بعد قليل .

ويعبر هبة الله بن ملكا البغدادى عن المعنى نفسه ، مقترباً من مصطلح «طاقة الحركة» باستخدام كلمة «ميل» بمعنى «جذب» فيقول : «ويستدل على ذلك بالحجر المرمى من عالٍ من غير أن يكون عايداً عن صعود بحركة قسرية ولا فيه ميل قسري ، فإنك ترى أن مبدأ الغاية كلما كان أبعد كان آخر حركته أسرع وقوة ميله أشد ، وبذلك يشج ويسحق ، ولا يكون ذلك له إذا ألقى عن مسافة أقصر ، بل يُبيّن التفاوت في ذلك مقدار طول المسافة التي يسلكها» .

وهذا أيضاً مثل واضح لحالة السقوط الحر للأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية ، حيث تزيد سرعة الجسم مع المسافة التي يقطعها من نقطة «السقوط» ، وتزيد كمية حركته وبالتالي طاقته تبعاً لذلك ، فيشج ويسحق عند ارتطامه . وفي هذا - مرة ثانية - تعبير كمي عن الحركة بتناسبها مع سرعة الجسم ومع كتلته ، وهو محتوى قانون نيوتن الثاني للحركة .

ويقرب البغدادى أكثر فأكثر من الصياغة الوصفية الدقيقة للقانون الثاني للحركة فيقول : «وكل حركة ففي زمان لا محالة ، فالقوة الأشد تحرك أسرع وفي زمان أقصر . . . فكلما اشتدت القوة ازدادت السرعة فقصر الزمان ، فإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة ، وبذلك تصير الحركة في غير زمان أشد ، لأن سلب الزمان للسرعة نهاية ما للشدة» . ونلاحظ هنا معنى التسارع «العجلة» في عبارة «سلب الزمان في السرعة» ، وهو يقابل في لغة العلم الحديث «معدل تغير السرعة» ، مما يفيد وقوف ابن ملكا البغدادى على معنى تناسب القوة مع تسارع الحركة (أى العجلة) ، ولكنه بطبيعة الحال ، وفي إطار الضوابط الارتقائية للنمو المعرفي لم يتوصل ، ولم يكن مطلوباً منه في حدود معطيات عصره أن يتوصل إلى الصيغة الرياضية التي وضعها إسحق نيوتن بعد ذلك بحوالى ستة قرون ، وهى :

$$\text{القوة} = \text{الكتلة} \times \text{العجلة}$$

أما بالنسبة لقانون الحركة الأول الذي عبر عنه نيوتن بقوله : «كل جسم يظل على حالته من السكون أو الحركة المنتظمة في خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تغير من حالته» ، فإننا نجد أن ابن سينا قد عبر عن مضمونه المتمثل في خاصية «القصور الذاتى»

التي يدافع بها الجسم عن بقاءه في حالته من السكون أو الحركة المنتظمة ، وذلك بقوله في «الإشارات والتنبيهات» : «إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلِّي وطباعه ، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب ، لم يكن له بد من وضع معين ، وشكل معين ، فإذا في طباعه مبدأ استيجاب ذلك» . ثم يضيف قائلاً : «الجسم له في حال تحركه ميل (أى مدافعة) يتحرك به ، ويحس به الممانع ، ولن يتمكن من المنع إلا فيما يضعف ذلك فيه ، وقد يكون من طباعه ، وقد يحدث فيه من تأثير غيره فيبطل المنبعث عن طباعه إلى أن يزول فيعود انبعائه» .

وبالنسبة لقانون الحركة الثالث الذى عبر عنه نيوتن بأن «لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار ومعاكس له فى الاتجاه» ، فإننا نجد معناه فى كتاب «المباحث المشرقية فى الإلهيات والطبيعات» للإمام فخر الدين الرازى حيث يقول : «الحلقة التى يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت فى الوسط ، لا شك أن كل واحد منهما فعل فيها فعلاً معوقاً بفعل الآخر ، ثم لا شك أن الذى فعله كل واحد منهما لو خلى عن المعارض لاقتضى اجتذاب الحلقة إلى جانبه» .

ويوضح هذا النص فكرة اتزان الأجسام تحت تأثير قوتين متساويتين فى المقدار ومتعاكستين فى الاتجاه بتأثير الفعل ورد الفعل . ويؤكد الرازى هذا فى معرض شرحه «لإشارات» ابن سينا قائلاً : «... فالحبل الذى يجذبه جاذبان متساويا القوة إلى جهتين مختلفتين لا يخلو إما أن يقال إنه ما فعل واحد منهما فعلاً ، وهو محال لأن الذى يمنع كل واحد منهما عن فعله هو وجود فعل الآخر» .

(ب) الجاذبية الأرضية وحركة المقذوفات :

لا شك أن الإنسان لاحظ منذ القدم سقوط الأشياء من أعلى إلى أسفل ، وكان أرسطو يعتقد أن سبب سقوط الجسم إلى الأرض يعود إلى «الوحشة الطبيعية» الكامنة فى الجسم نفسه ، تماماً مثلما يميل الطفل إلى حضن أمه باعتبارها المكان الطبيعى لإزالة وحشته ، واتجاه حنينه يدفع به إلى مقاومة حالة الوحشة وطردها . وقد لاحظ كثير من مؤرخى العلم أن أرسطو قد طبق الأحاسيس الإنسانية على ظواهر الطبيعة وسلوك أحيائها ، وأنه قد أمعن فى «أنسنة الطبيعة» عندما رأى أن الجسم المادى الصغير مكانه الطبيعى حين «يسقط» حراً هو حضن أمه : كوكب الأرض .

ويأتى الحسن بن أحمد الهمداني فى القرن الثامن الميلادى بفكرة رائدة فى بنية الثورات العلمية كما طرحها فيلسوف العلم المعاصر «توماس كون» ، ضمنها كتابه القيم

«الجوهرتان العتيقتان» فى سياق حديثه عن الأرض وما يرتبط بها من أركان ومياه وهواء ، فيقول : « . . . فمن كان تحتها (أى تحت الأرض عند نصفها الأسفل) فهو فى الثبات فى قامته كمن فوقها ، ومسقطه وقدمه إلى سطحها الأسفل كمسقطه إلى سطحها الأعلى ، وكثبات قدمه عليها ، فهى بمنزلة حجر المغناطيس الذى تجذب قواه الحديد إلى كل جانب . فأما ما كان فوقه فإن قوته وقوة الأرض تجتمعان على جذبه ، وما دار به فالأرض أغلب عليه بالجذب لأن القهر من هذه الحجارة لا يرفع العلاء ولا سفلة الحداد » .

ويتضح جلياً من هذا النص - ولأول مرة فى تاريخ العلم - أن الهمدانى قد ربط ظاهرة الجاذبية بالأرض التى تجذب الأجسام فى كل جهاتها ، وهذا الجذب إنما هو قوة طبيعية مركزة فى الأرض وتظهر آثارها فى مجال فعال حول الأرض أشبه بذلك المجال الذى يتمتع به «حجر» المغناطيس . ولولا هذه الخاصية لكانت كروية الأرض ودورانها سببين أساسيين فى تطاير كل ما على سطحها . وبهذا المفهوم يكون الهمدانى قد أرسى أول حقيقة جزئية فى فيزياء ظاهرة الجاذبية ، وهى ما يعرف بطاقة الموضع ، أو طاقة الكمون ، الناتجة أصلاً عن ارتفاع الأجسام عن الأرض .

ويزخر التراث العلمى العربى بالكثير من النصوص التى تتضمن مفاهيم أكثر وأوصافاً أشمل لظاهرة الجاذبية ، فيقول البيرونى فى كتابه «القانون المسعودى» : «والناس على الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة ، وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى أسفل» ، ويفطن الإمام الرازى إلى تعميم أكبر لفكرة الجاذبية يشمل جميع الأجسام المادية ، فيتحدث عن «انجذاب الجسم إلى مجاوره الأبعد» . ويصحح علماء المسلمين ذلك الخطأ الجسيم الذى وقع فيه أرسطو عندما قال بسقوط الأجسام الثقيلة أسرع من الأجسام الخفيفة ، فيثبت ابن ملكا البغدادى حقيقة علمية هامة تقضى بأن سرعة الجسم الساقط سقوطاً حراً تحت تأثير الجاذبية الأرضية لا تتوقف إطلاقاً على كتلته ، وذلك عندما تخلو الحركة من أى معوقات خارجية ، ويعبر عن هذه الحقيقة بقوله : « . . . وأيضاً لو تحركت الأجسام فى الخلاء ، لتساوت حركة الثقيل والخفيف والكبير والصغير والمنحروط المتحرك على رأسه الحاد والمنحروط المتحرك على قاعدته الواسعة ، فى السرعة والبطء . لأنها إنما تختلف فى الملاء بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تخرقه من المقاوم المنحروق كالماء والهواء وغيره » .

ويضيف علماء الحضارة الإسلامية حقائق أخرى جزئية على طريق استكمال التصور

الإنسانى لظاهرة الجاذبية من خلال دراستهم لحركة المقذوفات ، من حيث إن حركتها إلى أعلى تعاكس فعل الجاذبية الأرضية ، أو أن القوة القسرية التى قذف بها الجسم إلى أعلى تعمل فى تضاد مع قوة الجاذبية الأرضية ، فيقول العالم الفيلسوف هبة الله البغدادي فى كتابه «المعتبر فى الحكمة» ، على سبيل المثال : « ... فكنلك الحجر المقذوف ، فيه ميل مقاوم للميل القاذف ، إلا أنه مقهور بقوة القاذف ، ولأن القوة القاسرة عرضية فيه فهى تضعف لمقاومة هذه القوة والميل الطبيعى ولمقاومة المنحروق ... فيكون الميل القاسر فى أوله على غاية القهر للميل الطبيعى ، ولا يزال يضعف ويبطئ الحركة ضعفاً بعد ضعف وبطءاً بعد بطء حتى يعجز عن مقاومة الميل الطبيعى ، فيغلب الميل الطبيعى فيحرك إلى جهته » . وهنا يتضح أن البغدادي لا يستخدم مفهوم «الميل» كقوة خفية أو «وحشة طبيعية» فى اتجاه الحنين إلى حضن الأم : كوكب الأرض ، كما قال أرسطو ، ولكنه عنى به القوة المادية التى تتحكم عملياً فى حركة المقذوف صعوداً ضد الجاذبية الأرضية ، وهبوطاً فى اتجاهها .

وهكذا نجد أن علماء الحضارة الإسلامية العرب قد سعوا بمنهجهم العلمى السليم إلى بلورة مفاهيم وصيغ ميكانيكية ساعدت علماء النهضة الأوروبية بعد ذلك على صياغة النظريات والقوانين العلمية لحركة الأجسام على الأرض ، أو حركة الأرض والكواكب والنجوم فى الفضاء الكونى .

٢ - البصريات : OPTICS

(أ) الضوء ونظرية الإبصار :

كانت آراء فلاسفة الإغريق متباينة فى تعريف طبيعة الضوء وتفسير عملية الإبصار ، وهذا بسبب قصور منهج التفكير السائد آنذاك ، القائم على التأمل العقلى الخالص والقياس الصورى البحت . وكان يمكن لهذه الآراء أن تظل سائدة حتى عصرنا هذا لأن القياس الصورى الذى اصطنعوه منهجاً للنظر لا يسمح بتقدم العلم مهما تراكمت المعارف المستنتجة على أساسه .

لكن علماء الحضارة الإسلامية استطاعوا أن يتوصلوا إلى الطريقة التجريبية الاستقرائية التى قفزت بهم إلى مرحلة معرفية أرقى ، وكانت نظرية ابن الهيثم فى الإبصار ثورة علمية بكل المقاييس ، انطلق فيها من مبدأ عام هو القول بوجود العالم الخارجى وجوداً مستقلاً فى ذاته خارج الذهن وخارج النفس ، وأن العقل والحواس من أدوات إدراكه ، ومن ثم عزا

إحساس البصر إلى عامل أو مؤثر خارجي له في ذاته وجود عيني ، وأسماء «الضوء» .

(ب) قوانين انتشار الضوء :

من الموضوعات الهامة التي تطرق إليها ابن الهيثم في كتابه الشهير «المناظر» إثبات خاصية انتشار الضوء في خطوط مستقيمة بتجربة «الغرفة المظلمة» ، أو «الخزانة ذات الثقب» التي تحمل فكرة آلة التصوير الضوئي (الكاميرا) . وعندما تعرض ابن الهيثم لشرح ظواهر انعكاس الضوء وانعطافه وانتشاره لجأ إلى استخدام الخيال العلمي في المماثلة بين الظواهر المختلفة والكشف عن الوحدة التي تربط بين وقائع متناثرة ، وابتكر الكثير من المفاهيم العلمية المطابقة للواقع والخبرة ، وكان التمثيل الذي استخدمه هو النموذج الميكانيكي لحركة كرة صغيرة من الحديد أو الصلب تسقط على سطح مستو أملس فترتد عنه .

وأدخل ابن الهيثم لأول مرة طريقة تحليل «المتجه» Vector إلى قسطين (مركبتين) متعامدين ، وأفاد من رؤيته النقدية في استخدام المنهج الرياضي إلى جانب المنهج التجريبي ، ولهذا يعتبر المؤسس الأول لعلم البصريات الهندسية .

ولم يغفل ابن الهيثم الجانب التقني في بحوثه العلمية ، فقد استخدم الآلات الدقيقة في تجاربه ، ولم يكتف بمجرد وصف كيفية استعمالها ، وإنما أسهب في شرح التفاصيل المتعلقة بصنع الأجزاء المختلفة للجهاز . فيقول مثلاً في استخدام أنواع المرايا : «رأينا أن نشرح ذلك ونوضح ليحيط بعلمه من كانت له رغبة في معرفة الحقائق فبيناه في هذه المقالة ، ولخصنا البرهان على علم حقيقته ، وذكرنا طريقة العمل في اتخاذه وترتيب آله ، وقدمنا الأصول التي يستعملها المهندسون في جميع أنواع المرايا ، ليهتدي إليه من التمسه» .

(ج) مسألة ابن الهيثم :

عرفت هذه المسألة عند الأوربيين باسم «مسألة الهازن» Alhazen problem وهي تنص على أنه : «إذا فرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس ، فكيف تُعَيَّنُ على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها إلى إحدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها إلى الأخرى بمثابة شعاع منعكس» .

وحلول هذه المسألة كثيرة ومتنوعة ، وهي تتراوح بين اليسر والسهولة في الأحوال

العامّة ، وحينما يكون السطح العاكس مستويًا ، وبين الصعوبة والتعقيد إذا كان السطح العاكس كرويًا أو أسطوانيًا أو مخروطيًا . وتتدرج مسألة ابن الهيثم في التعقيد إلى معادلة من الدرجة الرابعة ، وقد حلها ابن الهيثم بواسطة تقاطع دائرة مع قطع زائد . كما أورد حلولاً عامّة لكل نوع من أنواع المرايا .

وقد كتب علماء آخرون في البصريات وتعرضوا لبعض نظرياتها ، مثل الكندي والرازي وابن سينا وكمال الدين الفارسي وغيرهم ، لكن ابن الهيثم يظل له القدر المعلى في هذا المجال الهام من مجالات العلوم الفيزيائية على مر العصور ، بعد أن وضع أصوله السليمة التي أدت إلى الحصول على واحد من أهم الإنجازات العلمية المعاصرة ، وهو «الليزر» .

٣ - الصوتيات : Acoustics

لم يصلنا شيء ذو قيمة علمية عن اهتمام أهل الحضارات القديمة بدراسة ظاهرة الصوت وتطبيقاتها ، اللهم إلا فيما يتعلق ببعض أنواع الغناء والعزف (الموسيقا) . لهذا فإننا نبدأ الحديث عن الصوتيات - أحد المباحث الفيزيائية المهمة - من حيث بدأ علماء الحضارة الإسلامية في تناول ظاهرة الصوت بالدراسة والتحليل على أسس منهجية سليمة . فقد أجمعوا من حيث المبدأ على أن هناك شيئين ضروريين لانبعاث الصوت وانتشاره . أما الشيء الأول فلا بد من وجود جسم يهتز لإحداث موجات الصوت (التضاغطية) على نحو ما نجد في وتر العود أو الأوتار (الأحبال) الصوتية عند الإنسان . وأما الشيء الثاني فلا بد من وجود وسط مادي ، كالهواء أو الماء ، تنقل خلاله هذه الموجات الصوتية إلى أن تصل إلى الأذن ويحدث الإحساس بالسمع . كذلك أجمع علماء المسلمين على تفسير جيد لحدوث الصدى نتيجة انعكاس الموجات الصوتية عندما يعترض مسارها عائق ، فتحدث في ارتدادها رجعا يشبه الصوت الأصلي .

ومن أوضح النصوص التراثية في ذلك ما جاء في كتاب «التحصيل» لبهمنيار ابن المرزبان ، حيث يقول : «الصوت أمر يحدث من تموج الجسم السيل الرطب كالهواء والماء بين جسمين متصاكنين متقاومين . وأما الصدى فإنه يحدث من تموج يوجبه هذا التموج ، فإن هذا التموج إذا قاومه شيء من الأشياء كجبل أو جدار حتى دفعه ، لزم أن ينضغط أيضاً بين هذا التموج المتوجه إلى قرع الحائط أو الجبل وبين ما يقرعه هواء آخر يردّه ويصرفه إلى خلف بانضغاطه ، ويكون شكله الأول وعلى هيئته . . . ويجوز أن يكون لكل صوت صدى ولكن لا يسمع ، كما أن لكل ضوء عكسا . . . والسبب في أن لا يسمع الصدى في

البيوت أن المسافة إذا كانت قريبة من المصدر وعاكس الصوت سُمِعًا معًا في زمان واحد أو قريب من واحد .

وقد فطن إخوان الصفا إلى تأثير الحركة الصوتية في الهواء الذى لشدة لطافته وخفة جوهرة وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها «فإذا صدم جسم جسمًا آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات ، وحدث من حركته شكل كروى واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج (صانع الزجاج) فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل» . ولعل فى هذا القول أيضًا ما يؤكد سبق علماء المسلمين إلى تقرير ما أثبتته العلم التجريبي حديثًا من أن الموجات الصوتية المنتقلة فى الوسط المادى تفقد قدرًا من طاقتها عنه اصطدامها بالأجسام تبعًا لنوعيتها وطبيعتها .

أما الحديث عن سرعة الصوت فى التراث العربى فيكتسب أهمية خاصة داخل الإطار المنهجى لتقييم المعرفة تاريخيًا . ومن يستعرض هذا الموضوع فى مختلف النصوص التراثية سوف يلاحظ أن البحث فى سرعة الصوت يأتى فى أغلب الأحيان مقارنًا بسرعة الضوء . فقد ذكر البيروني ، على سبيل المثال ، أن سرعة النور أعظم كثيرًا من سرعة الصوت ، وتحدث ابن سينا عن تأخر سماع صوت الرعد عن رؤية وميض البرق . واستطاع الحسن ابن الهيثم أن يثبت أن للضوء زمانًا وسرعة معينة ، كما أن للصوت زمانًا وسرعة معينة ، إلا أن زمان حركة الضوء أسرع بحيث لا يحس به أصلاً .

ومما يؤسف له أن أحدًا فى ذلك الوقت لم يفد من هذه الأفكار الهامة فى تقدير سرعة الصوت كمياً ، ونحن لا نرى سببًا لذلك غير عدم توافر أجهزة دقيقة لقياس الزمن بالثوانى أو بأجزاء من الثانية فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخ التقنية عمومًا ، وتطور أجهزة القياس الدقيق على وجه الخصوص . وقد تأخرت هذه الخطوة الهامة والبسيطة إلى القرن السابع عشر الميلادى عندما تمكن «ميرسن» و«جاسندى» Mersenne & Gassendi من إجراء أول تجربة عملية لتعيين سرعة الصوت فى الهواء عن طريق قياس الفترة الزمنية التى تنقضى بين لحظة رؤية النار المنبعثة من فوهة مدفع (أو بندقية) عند إطلاق قذيفة منه على مسافة بعيدة ، وبين لحظة سماع صوت القذيفة . وظلت فكرة الربط بين ضوء وصوت صادريين من مصدر واحد فى نفس اللحظة أساسًا لتجارب عديدة أجريت بعد ذلك إلى أن تمكن «إسكلاجنون» E. Esclagnon خلال الحرب العالمية الأولى من تقدير سرعة الصوت فى الهواء الجاف عند درجة الصفر المئوى بدقة عالية تقترب من القيمة المعروفة

حاليًا (١، ٣٣٠ متر فى الثانية) .

وقد أفاد المسلمون من فهمهم الواعى لأساسيات مبحث «الصوتيات» فى مجالات نظرية وتطبيقية متنوعة ، من بينها تطوير تقنية الهندسة الصوتية ، واستخدامها فيما يعرف الآن باسم «تقنية الصوتيات المعمارية» ، فقد عرفوا أن الصوت ينعكس عن السطوح المقعرة ويتجمع فى بؤرة محددة ، شأنه فى ذلك شأن الضوء الذى ينعكس عن سطح مرآة مقعرة . وقد استخدم التقنيون المسلمون خاصية «تركيز الصوت» فى أغراض البناء والعمارة ، وخاصة فى المساجد الكبيرة لنقل وتقوية صوت الخطيب أو الإمام فى أيام الجمعة والأعياد .

حدث هذا قبل أن يبدأ العالم المعروف «الاس ك . سابين» حوالى عام ١٩٠٠م فى دراسة سوء الصفات الصوتية لقاعة محاضرات فى «جامعة هارفارد» الأمريكية ، وتتبع سلوك الخواص الصوتية للقاعات وغرف الموسيقى .

٤ - فيزياء المواد والتمعدن : Physics of Materials and Metallurgy

اهتم علماء الحضارة الإسلامية بدراسة خواص المادة الصلبة والسائلة والغازية ، وبحثوا فى طرق تعيين هذه الخواص ، ومنها :

(أ) خاصية اللزوجة Viscosity ، وقد أشار إليها عدد من العلماء فى معرض حديثهم عن طرق مقاومة الحركة ، أو عند محاولة تبسيط بعض الظواهر الطبيعية ليسهل فهمها واستيعابها . من ذلك ما قاله ابن سينا عن السقوط الحر للأجسام فى أوساط مادية مختلفة ، حيث أوضح أن مقاومة المنفذ فيه هى المبطل للقوة المحركة . وقال هبة الله البغدادي : «إن الأثف يبطئ حركة الجسم أكثر والأرق أقل» . وإذا كان فى هذا إشارة إلى تأثير لزوجة الوسط على سقوط الجسم خلاله ، كما هو واضح من كلمتى «الأثف» و«الأرق» ، فإن كلمة «المبطل» التى استخدمها ابن سينا تدل على أنه ربما عنى ميل الأجسام الساقطة فى الأوساط اللزجة إلى أن تأخذ سرعة ثابتة بعد فترة معينة ، وهى ما تعرف باسم «السرعة النهائية» التى استخدمها «ستوكس» حديثاً فى استنتاج قانونه المعروف فى اللزوجة .

ومما يدل على أن كلمتى «الأثف» و«الأرق» اللتين استخدمهما البغدادي تعنيان الاختلاف فى درجة لزوجة الوسط ، أن نفس الكلمتين استخدمتا فى أماكن أخرى عند ابن الهيثم للدلالة على الاختلاف فى الكثافة الضوئية للأوساط التى تسبب انكسار الضوء عند انتقاله خلالها .

وهناك من استخدم صراحة مفهوم اللزوجة فى السوائل والغازات ، لا بمعنى أن الوسط يقاوم حركة الجسم فحسب ، ولكن أيضاً بمعنى أن الوسط إما غليظ القوام أو خفيف القوام ، فيقول الإمام الرازى : «إن الجسم إذا تحرك فى مسافة ، فكلما كان الجسم الذى فى المسافة أرق كانت الحركة فيه أسرع ، وكلما كان أغلظ (أى فى القوام) كانت الحركة فيه أبطأ» . ويقول ابن الهيثم : «... كما أن الحجر إذا تحرك فى الهواء كانت حركته أسرع وأسهل من حركته إذا تحرك فى الماء لأن الماء يدافعه مدافعة أكثر من مدافعة الهواء» .

(ب) الوزن النوعى Specific gravity ، وقد عرف العلماء العرب هذه الخاصية للمواد الصلبة والسائلة وعينوها لبعض المواد بدقة تطابق تقديرات علماء العصر الحاضر . بالرغم من اختلاف المستوى العلمى والتقنى للآلات والأجهزة التى استعملت فى هذين العصرين . وكان من أوائل الذين أجروا تجارب لحساب الوزن النوعى للمواد المختلفة أبو الريحان البيرونى الذى استخدم جهازه المخروطى . كما استخدم الخازنى مقياساً خاصاً لتعيين الوزن النوعى لبعض الوسائل .

أما فيما يتعلق بفيزياء المواد والتمعدن فقد تفوق عدد من العلماء فى دراسة الفلزات واستخلاصها من خاماتها ، أو سبكها مع غيرها . فالبيرونى - على سبيل المثال - تحدث عن تعدين الذهب وتصفيته بالنار ، إما بالإذابة وحدها أو بالتشوية ، كما وصف عملية تنقية الذهب عندما يكون ممزوجاً مع الأتربة أو الأحجار الكريمة ، وتحدث عن اختلاط الفضة بالذهب وتكوين السبائك بالمزج (الاتحاد) بين العناصر ، فهو يقول : «ومزاج الصفر مزاج حقيقى ، لأنهما بعد الاتحاد لا يتميزان بحيلة يعودان بها إلى الانفراد ، وإنما يبقيان ما بقيا ، ويفسدان معاً» .

وتحدث البيرونى أيضاً عن الشَّبه بقوله : «الشَّبه نحاص صُفْر بإطعام التوتيا (الخارصين) المدبر بالحلاوات وغيرها حتى أشبه بالذهب وسمى شَبْهاً ، ولما كانت الصفرة فيه عارضة أخذت الناس بقسطها منه عند كل ذوب ؛ ولذلك يُرَقَّد بإطعام جديد من ذلك التوتيا ، وإلا بلغ به التنقيص إلى الحال الأولى النحاسية المحضة .. وكما أن الصفرة عرض عارض فيه ، كذلك ما اختلط فيه من التوتيا زائد فيه غير متَّحد به ولا مستحيل إليه ، فالنار فى كل إذابة تنقصه عنه وتنقصه عن جرمه ووزنه حتى تذهب به كله» .

وتحدث كثيرون عن التمعدن والفلزات ، من بينهم يظهر صاحب «كتاب الجوهريتين» الحسن بن أحمد الهمداني الذى قدم شرحاً تفصيلياً لعملية تمعدن الذهب والفضة ، ابتداء

من الحصول على الخام من منجمه ، وانتهاء بصبّ قوالب الذهب أو الفضة الخالصتين ، وإيضاح استخدامهما فى صناعة الحلى وترصيع التيجان وتزيين صفحات القرآن الكريم وغيرها . كذلك شرح صناعة السبائك ومعالجة الحديد الخام والحصول على الفولاذ اللازم لصناعة السيوف وبعض أنواع الأسلحة . واهتم أثناء ذلك بوصف عمليات الطبخ والتلغم والاتحاد الكيميائى لفصل الشوائب ، وزود كتابه برسوم توضيحية لأشكال الأجهزة والأدوات والقدور والأفران المستخدمة .

٥ - الفيزياء الذرية : Atomic Physics

نشأت فكرة «الذرة» فى تفكير الإنسان لأول مرة عندما واجهته أول مشكلة فلسفية تتعلق بالتساؤل عن مبدأ الكون أو المادة الأولى التى نشأ منها ، وعن مدى إمكانية تقسيم المادة وصولاً إلى الجزء الأصغر منها غير القابل للانقسام ، أو « الأتوم » Atom كما أطلق عليها فلاسفة الإغريق . وتنسب النظرية الذرية عادة فى نشأتها إلى «لوقيبوس» الملطى وتلميذه «ديمقريطس» فى القرن الخامس للميلاد ، وإن كان المؤرخ والجغرافى اليونانى القديم «سترابو» Strabo قد عزا نشأتها إلى «موشوس» Mochos الفينيقى الذى سبق «لوقيبوس» ببضعة قرون .

وقد عرف العرب «الذرة» و«المذهب الذرى» الذى وضعه فلاسفة الإغريق ، ولكنهم استخدموا لذلك مصطلح «الجزء الذى لا يتجزأ» أو «الجوهر الفرد» ، ودخل المصطلح فى اللغة العربية حديثاً باسم «الذرة» ، وهى ترجمة غير دقيقة لكلمة Atom ، وتناولوا القضية من جانبيها الفلسفى والعلمى .

ويكفى أن نشير إلى الجانب العلمى من النظرية الذرية فى التراث العربى بإحدى التجارب العلمية التى أجراها جابر بن حيان (ت ٨١٥م) لتحضير «الزنجفر» (كبريتوز الزئبق) ، حيث يقول : «لتحويل الزئبق إلى مادة صلبة حمراء ، خذ قارورة مستديرة وصب فيها مقداراً ملائماً من الزئبق ، واستحضر أنية من الفخار بها كمية من الكبريت حتى يصل إلى حافة القارورة ، ثم أدخل الأنية فى فرن واتركها فيه ليلة بعد أن تحكم سدّها ، فإذا ما فحصتها بعد ذلك ، وجدت الزئبق قد تحول إلى حجر أحمر ، وهو ما يسميه العلماء بالزنجفر ، وهى ليست مادة جديدة فى كليتها . والحقيقة أن هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتهما ، وكل ما حدث أنهما تحولتا إلى دقائق صغيرة امتزجت ببعضها ، فأصبحت العين المجردة عاجزة عن التمييز بينهما ، وظهرت المادة الناتجة من الاتحاد متجانسة التركيب ،

ولو كان فى قدرتنا وسيلة تفرق بين دقائق النوعين لأدركنا أن كلا منهما محتفظ بهيئته الطبيعية الدائمة» .

ومن وجهة النظر العلمية المعاصرة يعتبر هذا الوصف تصويراً عجيباً للاتحاد الكيميائي ، لعل فيه شبهاً من تصوير «دالتون» Dalton (ت ١٨٤٤م) الذى جاء بعد جابر بألف عام ، وقال بأن الاتحاد الكيميائي يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض .

وإذا عقدنا مقارنة سريعة بين الطريقة التى عولج بها مفهوم الذرة على النحو الذى أوضحنا ، وبين الطريقة التى اتبعها علماء الغرب إبان عصر النهضة الأوروبية الحديثة ، نجد أن المذهب الذرى الإغريقى القديم قد عاد إلى الظهور على يد جاسندى Gassendi (ت ١٦٥٥م) ، وعلى أيدي علماء الكيمياء فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، فى صورة ضروب من الحدس الهندسى نستطيع اليوم أن ندرك مبلغ سذاجتها . والواقع أن المفكرين فى ذلك الحين لم يترددوا فى أن ينسبوا إلى الذرة كل المدركات الحسية المباشرة ، بحيث إن الصورة الخاصة لذرات المادة تفسر إحساسات الذوق والرائحة واللون . وهكذا قيل إن ذرة البرد مدبة لأن البرد قارس ، وإن تأثير الأحماض فى الأجسام القاعدية أشبه باختراق الطرف المدبب فى الأحماض لمسام القلويات . ولا شك أن مثل هذه التشبيهات ليس لها قيمة علمية ، بل إنها لا تصور لنا الظواهر تصويراً جيداً .

لكن الذرة الكيميائية كما تصورها «جابر» و«دالتون» فى عمليات الاتحاد الكيميائي بين العناصر لم تعد مع حلول القرن العشرين ذلك الجزء الذى لا يتجزأ . فقد أدى تطور النظرية الذرية ، أو الفيزياء الذرية ، إلى قيام علم الفيزياء النووية بدراسة التغيرات التى تتعرض لها نواة الذرة ، ودراسة الإشعاع الذرى الطبيعى بدراسة التفاعلات النووية . بل إن ظهور عالم الجسيمات الأولية وفيزياء الطاقات العالية قد أدى بنا الآن إلى الدخول فى مجال العلم الذى مازال يتكون ، والبحث فى أعماق « الذرة » - مرة أخرى - عن جزء جديد منها لا يقبل التجزئة . لقد اقترب الإنسان كثيراً من الرؤية المباشرة للذرة المفردة والإمساك بها لاستخدامها فى إجراء تجارب علمية لم تخطر يوماً على بال بشر !!

٦ - الفيزياء الفلكية : Astrophysics

يختص هذا المبحث الهام بتطبيق قوانين الفيزياء على مشكلات علم الفلك ، ومنها حركات الكواكب وأقمارها ، والقوى التى تربط بين أجزاء المنظومات السماوية المختلفة

لتحتفظ بالشكل الذى يميزها ، وتركيب وديناميكا المجرات ، وتندرج هذه الموضوعات تحت علوم فرعية من قبيل : « الميكانيكا السماوية » Celestial mechanics والقياسات الفلكية Astrometry ، وفيزياء المجموعة الشمسية Solar system physics ، وغيرها .

وكانت النظرية السائدة قديماً عن حركة الكواكب (بما فى ذلك حركة الشمس والقمر) تقضى بأن الأرض تقع فى مركز الكون ، وأن الحركة الكوكبية دائرية منتظمة . واقترح فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد نموذجان لتفسير الحركة الكوكبية : أحدهما نموذج حركة فلك التدوير Epicyclic motion والآخر نموذج حركة الفلك الخارج المركز Eccentric motion.

وفى القرن الثانى للميلاد أدخل بطليموس عدة تعديلات مهمة لتفسير الحركات الظاهرة للقمر وللکواكب المتحيرة ، ولكنه لجأ مضطراً إلى أنواع من الحركة المناقضة لمبدأي الانتظام والدائرية ، وشيّد نظامه الكوكبي على تخيل الكوكب متحركاً على فلك حامل (ناقل) Deferant مركزه خارج عن مركز العالم (الأرض) ، تم تصوّر فلكاً معدّلاً للمسير Equant ، لا ينطبق مركزه على مركز العالم (الأرض) ولا على مركز الفلك الخارج ، وقال إن الكوكب الدائر فى فلك تدويره تكون حركته منتظمة أو معتدلة بالقياس إلى هذا الفلك المتخيل الجديد ، لا بالقياس إلى مركز العالم ولا إلى مركز الفلك الخارج ، رغم أن الكوكب لا يتحرك هو نفسه ، ولا يتحرك مركز فلك تدويره على هذا الفلك المعدّل .

وجاء الحسن بن الهيثم (ت ١٠٤٠م) برؤيته النقدية ، فاستدرك على بطليموس فى مؤلفه المعروف «الشكوك على بطليموس» محدداً ١٦ اعتراضاً على النظرية البطلمية ، هى حالات عدم الانتظام فى الحركة الكوكبية . ولعل أهم شك على «المجسطي» لابن الهيثم ، من الناحية التاريخية ، هو اعتراضه الموجه إلى استخدام بطليموس لما يسميه «الفلك المعدل للمسير» . والمهم ، من الناحية التاريخية أيضاً ، أن عدم رضا كوبرنيكوس عن حيلة الفلك المعدل للمسير كان أحد الأسباب التى أدت به (كما قال هو نفسه) إلى قلب نظام بطليموس رأساً على عقب ، ووضع الشمس ، بدلاً من الأرض ، فى وسط العالم .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى قدم نصير الدين الطوسى (ت ١٢٧٤م) إصلاحاً أشمل ، منطلقاً على الأرجح من تحليلاته العلمية لشكوك ابن الهيثم المتعلقة بالحركات غير المنتظمة للأفلاك الحاملة للقمر والكواكب ، فاقترح آلية تعرف باسم «مزدوجة الطوسى» Al-Tusi's couple لتفسير التناقضات الواضحة بين تراكيب بطليموس النظرية

وبين نتائج الأرصاد العملية . وبالإضافة إلى الطوسي ، اقترح فلكيون آخرون من مدرسة مراغة نظرية تسمح بتحويل النماذج الخارجة المركز إلى نماذج تدويرية ، وكان الأبرز من بين هؤلاء «مؤيد الدين العرّضى الدمشقي» (ت ١٢٦٦م) و«ابن الشاطر» (ت ١٣٧٥م) . وتعزى الأهمية البالغة لهذه النتائج إلى علاقتها بنظرية كوبرنيكوس الخاصة بمركزية الشمس . تلك النظرية التى عكست المتجه Vector الذى يصل الشمس بالأرض ، مع إبقاء النماذج الرياضية مصنونة على حالها دون أن تمسها .

إن تشابه الروايات المتواترة عن نماذج كوبرنيكوس ونماذج فلكيى مراغة هو الذى أثار الاهتمام ، وأصبح من المتفق عليه فى الأعمال الحديثة التى تناولت علم الفلك عند كوبرنيكوس - وخاصة الأعمال التى قام بها كل من نوجبور Neugebauer وسورد لو Swerdlow أن التصور الفلكي الجديد لكوبرنيكوس عن نظام العالم لم يقم على ملاحظات جديدة مفاجئة ، ولا على نماذج رياضية لم يتوصل إليها العرب ، وإنما كان الأمر نقلة جذرية خالصة فكرياً ، ونوعاً من التحول العقلي أحال المجموعة القديمة من المقدمات إلى مجموعة جديدة من العلاقات . فضلاً عن ذلك ، فإنه لا فرق بين مركزية الشمس للعالم أو مركزية الأرض من الناحية الرياضية البحتة التى كان يعمل عليها الفلكيون العرب ، فلقد كانوا يعرفون تمام المعرفة أن الظواهر الفلكية التى نراها من الأرض ، يمكن أن تفسر على أن الأرض ثابتة والشمس متحركة ، أو العكس بالعكس .

ومن ناحية أخرى ، فإن من يرجع إلى أعمال كوبرنيكوس يراه يُعمل هيئة أفلاك الكواكب جميعها على افتراض أن الأرض ثابتة ، ثم ينقل هيئة تلك الأفلاك النهائية إلى افتراض أن الشمس ثابتة والأرض متحركة . والحقيقة العلمية التى نعرفها اليوم تقول إنه لا الأرض ثابتة ولا الشمس ثابتة فى هذا الكون الذى يعج فيه كل شيء بالحركة ولا يعرف السكون . ولذلك يمكن المقابلة بين هيئة الأفلاك التى كان يعمل عليها كوبرنيكوس ، والهيئة التى كان يعمل عليها الفلكيون العرب من أمثال الطوسى والعرّضى وابن الشاطر ، بعد أن حفزتهم شكوك ابن الهيثم إلى إعلان الثورة على النظام البطلمي والبحث عن نظام كوكبي جديد ، ونجحوا فى وضع نماذج يمكن ترجمتها إلى صيغة فيزيائية لا تجب المبادئ الفلكية المعروفة ، أى نماذج تعبّر عن الحركة الظاهرية لكوكب ما باعتبارها محصلة لمجموعة حركات ، كل منها حركة منتظمة بالنسبة لمركزها الخاص بها . وكان هذا هو ذروة ما أنجزته بحوث العرب فى النظرية الفيزيائية لحركة الكواكب .

وأسفرت مقارنات الباحثين بين النصوص والرسوم الواردة في مؤلفات كل من كوبرنيكوس وفلكي مرصد مراغة ، عن أن الشبه بلغ (باستثناء مركزية الشمس عند كوبرنيكوس) حدًا دعا البعض إلى القول - دون تجاوز الحقيقة - بأن كوبرنيكوس هو أشهر أتباع مدرسة مراغة ، إن لم يكن آخرهم ، ودعاهم أيضًا إلى التساؤل ، لا عمّا إذا كان كوبرنيكوس قد تعلم نظرية مراغة ، بل متى تعلمها وكيف ؟

والإجابة على التساؤل المطروح تتضح من دراسة انتقال بعض المؤلفات العربية إلى الغرب اللاتيني ، فقد تسنّى هذا الانتقال بواسطة مصادر بيزنطية وصلت إلى إيطاليا في القرن الخامس عشر الميلادي . وظهر في البندقية عام ١٥٣٦م كتاب للمؤلف جيوفاني باتيستا أميكو Giovanni Battista Amico بعنوان :

"De motibus Corporum Coelestium iuxta Principia peripatetica sine excentricis st epicyclis"

وفيه يبذل المؤلف جهده من أجل إعادة الحياة إلى علم الفلك متحد المركز بمساعدة نماذج مبنية كلها على استخدام نظرية الطوسي ومزدوجته الموجودة في كتابه «التذكرة» .

وهناك دليل آخر على الانتقال المباشر موجود في مخطوط بيزنطي إغريقي ، لترجمة يونانية وضعها - حوالى عام ١٣٠٠م - « شيونياس » Chioniadēs عن أصل عربي وجد طريقه إلى «الفاتيكان» بُعيد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م يوجد على إحدى صفحاته عرض واضح لمزدوجة الطوسي مع نموذج قمرى لابن الشاطر ، ويوجد على صفحة أخرى عرض نموذج قمرى للطوسي مع رسم تخطيطى يوضح تعديل مزدوجة الطوسي لهيئة الأجسام الصلبة .

وإذا علمنا أن كوبرنيكوس قد أقام في إيطاليا لسنوات قليلة ، وانتقل إلى روما في ربيع عام ١٥٠٠م ، وبقي فيها حوالى سنة وقام بإلقاء محاضرات في الرياضيات الفلكية ، فإن ما لدينا من ظن يتحول إلى اعتقاد بأن كوبرنيكوس قد اطلع بالفعل على نظريات العرب الفلكية وأفاد منها في صياغة نظريته عن مركزية الشمس وهيئة المجموعة الشمسية .

٧ - فيزياء الأرض : Geophysics

(أ) علم شكل الأرض : Geomorphology

يهتم هذا العلم في صورته المعاصرة بدراسة التضاريس الأرضية المختلفة فوق سطح اليابسة والمغمورة تحت الماء ، ويعنى بتتبع أطوارها المتعددة ، وتفهم الأسباب والعوامل

المؤثرة في تكوينها ، وذلك في ضوء ما يسمى «بالنظرية الجيومورفولوجية» الحديثة التي تقضى بأن تطور أشكال سطح الأرض يعتمد على عوامل التعرية والإرساب والحركات الأرضية ، وهى عوامل ناتجة عن تأثير قوى البناء والهدم .

وقد استطاع أبوبكر الكرجى فى القرن الحادى عشر الميلادى أن يطور فكرة الدورة التضاريسية التى تقول بتطور معالم سطح الأرض بحيث كلما أثرت قوى الرفع البانية على منطقة ما ورفعتها فوق مستوى سطح البحر ، فإنها تكتسب طاقة كامنة بفارق الارتفاع عما حولها ، مما يسهل لقوة الجاذبية الأرضية أن تنقلها شيئاً فشيئاً الى مواقع أقل ارتفاعاً منها ، مثل قيعان المحيطات ، فى محاولة لكى يتساوى بُعد قممها عن مركز الأرض ، وينتج عن ذلك تطور فى تضاريس الأرض ينتهى معه السطح النهائى بالتعرية إلى سطح منخفض ومستو هو «السهب» (أى الفلاة) . وقد نسبت هذه الفكرة إلى «ديفيز» فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكننا نجد ما يصحح هذا الإسناد الخاطيء عندما نقرأ للكرجى قبل ذلك بثمانية قرون ، فى كتابه «إنباط المياه الخفية» ، ما نصه :

«إن فى الأرض حركات دائمة ، منها طلب الأبنية للوقوع والانهدام ، والميل على سمت الاستقامة ، وكذلك الجبال والتلاع تنهار قليلاً قليلاً ، وتفتت طلباً للمركز ، والأرض الرخوة فى تربتها حركة دائمة ، وهى طلب أجزائها الصلابة باعتماد بعضها على بعض . وأعظم هذه الحركات المذكورة انتقال المياه العظيمة ، وجريان الأودية القوية من أرض الى أرض فى الأزمنة الطويلة ، فإذا اجتمعت موادها فى ناحية من نواحيها ، وارتفعت حتى بُعد سطحها من المركز ، وساوى ذلك بُعد الموضع المحاذى له الذى يقابله ، ثم بعد المساواة زاد عليه ، تحركت الأرض طلباً للمعادلة المذكورة ، فتتغير لذلك عروض البلاد ومطالعها وأنصاف نهارها ، ويصير ذلك سبب انتقال البحار ، وظهور عيون وغيض عيون ، ولا يكون ذلك دفعة واحدة ، بل يكون على التدرج كانتقال العمارات من أرض إلى أرض» .

والمتأمل فى هذا النص للكرجى يلاحظ تحليله الفيزيائى لبيان أنواع الحركات الأرضية الدائمة وأثر الجاذبية الأرضية عليها .

(ب) علم المعادن والتعدين : Mining and Mineralogy

يزخر التراث العربى بالكثير من المؤلفات التى تناولت دراسة العديد من المعادن وتعدينها والتنقيب عنها . وقد اعتمد علماء الحضارة الإسلامية على الملاحظة والتجربة فى كثير من دراساتهم للمعادن والجواهر والأحجار الكريمة ، وفى تمييز دخیلها من أصیلها

بحسب لونها وشفافيتها وبريقها وصلابتها وحكاكتها (مخدشها) وتشعيرها (أو تشققها) ، وغير ذلك من الخواص الفيزيائية التي تميز بها المعادن اليوم . وقد حاولوا قياس بعض هذه الخواص وتقديرها كمياً ، مثل خاصية الوزن النوعي التي عينوها لمواد كثيرة بدقة تطابق التقديرات المعروفة حالياً ، ومثل خاصية الصلابة Hardness التي تحدد درجة تماسك المعدن وقدرته على خدش معدن آخر ، فقد ذكر التيفاشي من خواص «الألماس» Diamond أنه يقطع كل حجر يمر عليه ، وهو نفسه عسر الانكسار ، وذكر أن الياقوت يقطع الحجارة شبيهاً بالماس ، وليس يقطعه شيء غير الماس .

وذكر البيروني في كتاب «الجواهر في معرفة الجواهر» أن الماس أصلب الجواهر ويليه الياقوت ثم أشباه الياقوت ، وقال : «إنما قدمت ذكر الماس على ما ذكر مما بقى من مثمينة الجواهر التي لها الرياسة ، أعني اللؤلؤ والزمرد ، لأنه فاعل في الياقوت الفاعل فيما دونه ، وغير منفعل بشيء فوقه ، ولا متأثر مما دونه . . والمناسبة بينه وبين الياقوت أقرب المناسبات بالرزانة والصلابة » . وبهذا يكون البيروني والتيفاشي قد وضعوا اللبنة الأولى في فكرة بناء «مقياس موهز» Mohs scale للصلابة ذي الدرجات العشر ، ويشغل الألماس والياقوت الدرجتين العاشرة والتاسعة فيه على الترتيب ، بينما يحتل « التلك » ، وهو أقلها صلابة ، الرقم واحد .

(ج) علم الزلازل : Seismology

حاول الإنسان منذ القدم أن يتعرف على أسباب حدوث الزلازل ، وكانت أفكاره عنها في بادئ الأمر قائمة على الأساطير والخرافات . وكانت تفسيرات علماء الإغريق مجرد آراء فلسفية وتخيلات بعيدة عن الواقع ، يمثلها رأى أرسطو الذي يقضى بأن الأرض جافة بطبيعتها ، ولكن المطر يملؤها بالرطوبة ، وتقوم الشمس ونارها بتسخينها وتتسبب في الرياح . والزلازل هي ريح وعواصف مكتومة في كهف كبير بجوف الأرض ، أو هي نتيجة ضرورية لذلك .

وجاءت بدايات التفسير العلمي على أيدي علماء الحضارة الإسلامية ، فيتحدث الهمداني في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عن الطاقة الزلزالية «في باطن الأرض ، ولكنه يسميها «الرياح المحتقنة» ، ويصف ما ينتج عنها من هزات متفاوتة الشدة يصحبها أحياناً حدوث خسف على نطاق واسع . والخسف الذي ذكره الهمداني في كتابه «الجوهرتين» هو المقابل للمصطلح الأجنبي الحديث Taphrogenesis ، ويعني الحركات

التي تحدث رأسيا إلى أسفل على نطاق واسع ويصاحبها تصدع كبير الزاوية .

ويقدم ابن سينا وصفا تفصيليا لبعض أنواع الزلازل ، فيقول : «منها ما يكون على الاستقامة إلى فوق ، ومنها ما يكون مع ميل إلى جهة ، ولم تكن جهات الزلزلة متفقة ، بل كان من الزلازل رجفية ، ما يتخيل معها أن الأرض تقذف إلى فوق (أى زلازل رأسية) ، ومنها ما تكون اختلاجية عرضية رعشية (وهى ما ينتج عنها الطيات الملتوية) ، ومنها ما تكون مائلة إلى القطرين ويسمى القطقط (وهى ما تحرك الأرض فى اتجاهين وينتج عنها ما يعرف بالطيات المضطجعة) ، وما كان منه مع ذهابه فى العرض يذهب فى الارتفاع أيضا ، ويسمى «سلميا» (أى ما يحرك الأرض حركة رأسية وأفقية معاً ويسبب ما يعرف بالانكسارات السلمية) » .

ومثل هذه المحاولات التي تعاملت مع الظاهرة بأسلوب علمي ، بالإضافة إلى ما دونه المسلمون من سجلات زلزالية موثقة على أساس من الملاحظة والتجريب ، هو الذى ساعد على زيادة معرفتنا نسبيا بطبيعة مثل هذه الظاهرة الكونية التي تتطلب إلماما دقيقا بوقائع تاريخها الطويل . والاسترشاد بهذا التاريخ يعتبر ضرورة منهجية ومعرفية لأى دراسات معاصرة أو مستقبلية تتعلق بخرائط التوزيع الزلزالي ، فظاهرة الزلزال تعتبر أقل الظواهر الكونية من حيث فهمنا لها ، لأن مصادرها فى باطن الأرض لا تزال بعيدة عن ملاحظتنا المباشرة ، ولا نستطيع إلا الاستدلال على ما يحدث فى الباطن من خلال القليل الذى نشاهده على السطح .

أهم المصادر والمراجع :

- ١- أحمد فؤاد باشا : الاتجاه العلمى عند الهمداني ، مجلة المسلم المعاصر ٥٨ ، ١٩٩٠ م .
- ٢- أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى الإسلامى شيء من الماضى أم زاد للآتى . القاهرة : دار الفكر العربى ، ٢٠٠٢ م .
- ٣- أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣ م .
- ٤- أحمد فؤاد باشا : دراسات إسلامية فى الفكر العلمى . القاهرة ، ١٩٩٠ م .
- ٥- أحمد فؤاد باشا : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية . القاهرة ، ١٩٨٤ م .

- ٦ - توبى ، أ : فجر العلم الحديث ، الإسلام - الصين - الغرب . الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ٢٠٠٠ م .
- ٧ - جولد شتاين ، توماس : المقدمات التاريخية للعلم الحديث . الكويت : عالم المعرفة ، ٢٠٠٣ م .
- ٨ - الخازنى ، عبد الرحمن : ميزان الحكمة . حيدر آباد الدكن : دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٩ هـ .
- ٩ - ابن سينا : كتاب الشفاء - الطبيعيات ، تحقيق محمود قاسم ، مراجعة وتقديم إبراهيم مذكور . القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩ م .
- ١٠ - شاخ و بوزرت : تراث الإسلام . الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٨٨ م .
- ١١ - عبد الله الدفاع و جلال شوقي : أعلام الفيزياء فى الإسلام . ط ٢ . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥ م .
- ١٢ - الكرجى ، أبو بكر محمد بن الحسن : كتاب إنباط المياه الخفية ، تحقيق ودراسة : بغداد عبد المنعم . القاهرة : معهد المخطوطات العربية ، ١٩٩٧ م .
- ١٣ - مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية . القاهرة ، ١٩٤٢ م .
- ١٤ - ابن ملكا البغدادى : أبو البركات هبة الله : «المعتبر فى الحكمة ، مخطوط مكتبة أحمد الثالث باستنبول ، رقم ٣٢٢٢ ، ٢٢٥ ورقة .
- ١٥ - الهمدانى ، الحسن بن أحمد : كتاب الجوهريتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) ، دراسة وتحقيق : أحمد فؤاد باشا . القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٤ م .

قراءة معاصرة في السيرة والمنهج

العلم للشيخ الرئيس

أ. ط. رفعت حسن هلال *

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) المعروف في الغرب باسم Avicenna وهو عبقرى ، نادراً ما تجود الأيام بمثله ، فقد عرف كطبيب لا يبارى . ويشهد كتابه «القانون» بعلم ومعرفة بفنون مهنة الطب وأصولها ، وقد ألف كتباً في الدين والمنطق والفلسفة والفيزياء والرياضيات والفلك . وعبقريته تظهر أكثر ما تظهر في كتابه «الشفاء» الذى يتصدى فى بعض أجزائه لعلوم ما وراء الطبيعة . فمن هو هذا العبقرى الذى ظلت كتبه فى الطب تدرس فى الجامعات الغربية حتى القرن الثامن عشر .

حياته :

إن حياته موثقة بطريقة قلما تيسرت لأحد من علماء عصره ، فقد كتب هو بنفسه سيرته الذاتية التى تغطى الثلاثين عاماً الأولى من حياته ، أما بقية حياته فقد وثقها تلميذه وصديقه الجوزانى .

ولد ابن سينا فى عام ٣٧٠هـ / ٩٧٣م فى قرية تسمى أفشنة بجوار بخارى ، وحظى بتعليم جيد فى مراحل عمره الأولى . وأتم حفظ القرآن كله وهو ابن عشر سنين ، وأتى على كثير من فنون الأدب . وكان أبوه وأخوه ممن اعتنقوا مذهب الإسماعيلية ، وحاولوا أن يضموه إلى فكرهم ، ولكنه لم يقتنع بما ذهبوا إليه - رغم طفولته - فقال عن نفسه «وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى» . وبدأت مرحلة جديدة بتلمذه على يد أبى عبد الله الناتلى . وسرعان ما تفوق على أستاذه فقال «وكان أي مسألة قالها ، تصورتها خيراً منه» . وأخذ يقرأ الكتب بشغف وفهم تعجب منهما أستاذه ، وتولى بنفسه حل أشكال كتاب أوقليدس ، ثم انتقل إلى المجسطى فتولى قراءة الأشكال الهندسية وحلها بنفسه ، وأبدع فى ذلك حلولا لم يكن يعرفها أستاذه فقال «فكم من شكل ما عرفه إلا حين عرضته عليه وفهمته إياه» .

ولقد رغب ابن سينا فى تعلم الطب ، فقرأ ما وقعت عليه يده من كتبه ونبغ فيه ، حتى بدأ الأطباء يقرءون عليه علم الطب وتعهد المرضى «فانفتح على من أبواب المعالجات المصنفة من التجربة ما لا يوصف» وكان يومئذ ابن ستة عشر عاماً .

(*) رئيس قطاع المراكز العلمية بدار الكتب ، ومدير مركز التراث العلمى بجامعة القاهرة .

ثم توفر على قراءة المنطق والفلسفة لمدة عام ونصف «لم أنم فى هذه المدة ليلة واحدة بطولها». وانظر إلى هذا العالم الجليل الذى عرف أن الله يفتح أبواب علمه على من يريد ، وآمن إيماناً مطلقاً بأنه سبحانه وتعالى الملهم . أقول انظر إليه إذا استعصت عليه مسألة يقول : «أتردد بسبب ذلك إلى الجامع ، أصلى وأبتهل إلى مبدع الكل ، حتى يتضح لى المنغلق منه ويسهل المتعسر» . وكان لا ينام حتى يحل المسألة ، وإذا غفل يظل عقله يعمل حتى يصل إلى حل لها «واتضح لى كثير من المسائل فى النوم» .

ثم انتقل بعد ذلك لدراسة كتاب أرسطو فى علوم ما وراء الطبيعة «الميتافيزيقا» وقرأه أكثر من أربعين مرة ، محاولاً فهم مغزاه والاقتناع بما فيه ، ولكنه لم يستطع . وانظر إلى أمانته العلمية حيث يقرر أن كتاب الفارابى فى شرح علوم ما بعد الطبيعة هو الذى يسر له فهم كتاب أرسطو . وعندما قام بعلاج أمير بخارى - فى ذلك الوقت - نوح بن منصور ، سمح له بدخول مكتبة بخارى العظيمة ، حيث قرأ ما تحويه من أمهات الكتب ، ونهل من علم من سبقه من العلماء ، وفرغ منها جميعاً ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

وببلوغ ابن سينا سن الواحدة والعشرين ، كان قد فرغ من أول كتاب له فى الفلسفة سماه «المجموع» ، وكان كتاباً جامعاً فى العلم أتى فيه على سائر العلوم سوى العلم الرياضى . ثم صنف كتاب «الحاصل والمحصل» فى حوالى عشرين مجلداً ، فى علوم الفقه والتفسير والزهد ، وكتاباً فى الأخلاق اسماه «البر والإثم» وبدأ عطاء العبقري .. واندفع قلمه ليكتب ويصنف ويشرح فنون العلوم كلها .

ويشهد العام ٣٩١هـ / ٩٩٥م نقطة تحول جذرى فى حياة ابن سينا ، فقد مات أبوه العائل له والسند ، فاضطر إلى الخروج إلى معترك الحياة ليعمل فى إدارة سلطان البلاد . ولحكيمته وبعد نظره قربته السلطان كوزير للبلاد . وكان لهذا الحب أعداء حاولوا النيل من مكانة ابن سينا لدى الحاكم ، وتآمروا عليه فحوكم وسجن ، وهرب وتخفى . وعاش الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى أصفهان ، يتكسب عيشه من علاج المرضى . ومات عام ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م . فى همدان ودفن فيها . ولا يسعنى أن أصف إحساسه بضيق الأرض عليه بما رحبت ، وهوانه على الناس ، أكثر من وصفه لنفسه فى بيت من قصيدة له ، قال فيها :

لما عظمتُ فليس مصرُّ واسعى

لما غلا ثمنى عدمت المشتري

ولم يكن ابن سينا فيلسوفا عادياً عاش في كتبه ، ولكنه كان يصارع الحياة نهائياً ، ويسهر طوال الليل يكتب ويدرس ويحل المعضلات العلمية . كان يكتب في أى مكان ، ولو على صهوة حصان ، أو فى السجن ، ومرجعه الوحيد هو ذاكرته الفولاذية .

وقد كان يؤمن بالمنهج التجريبي فى العلم . وليس صحيحاً أن أعماله لم تكن إلا تطبيقاً لنظريات من سبقه من علماء اليونان ، فالمنهج مختلف ، بل إن ابن سينا فى كثير من المواضع ينقض ويستهجى النظريات اليونانية ، وهو ينظر مثلاً إلى منطق أرسطو على أنه غير كاف ولا يتصل بالواقع .

أعماله :

إن أعمال الشيخ الرئيس التى وصلت إلينا أعمال ضخمة ، ولكنها غير كاملة ؛ لأنه كان يجيب على ما يوجه إليه من مسائل ، ولا يهتم بتدوين هذه الإجابات فى أحيان كثيرة .

وبعض ما كتبه ابن سينا فقد فى حياته مثل كتاب «الإصناف» ، وقد أحصى العلماء له ٢٤١ كتاباً ، منها ١٣١ تأكدت نسبتها إليه ، أما بقية الكتب ففيها شك . ويرجع هذا الشك أول ما يرجع إلى التنوع الكبير فى مجالات العلم التى كتب فيها الشيخ الرئيس . فقد عرف كفيلسوف وطبيب ، ولكن كتاباته فى التاريخ الطبيعى والفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات وحتى الموسيقى ، جعلت الباحث يلهث لتحرى الدقة فى نسبة الكتب إليه .

والمتفحص لمنهج ابن سينا يلاحظ أنه فرق بين العلوم التطبيقية التى أفرد لها الكتب الخاصة مثل كتابه الشهير «القانون فى الطب» ، وبين العلوم النظرية والبحثية مثل الرياضيات والفيزياء ، التى اعتبرها جزءاً من الفلسفة ، واشتمل عليها كتابه المعروف فى الفلسفة والميتافيزيقا (الشفاء) .

وكتاب «القانون» يمثل وحدة علمية متكاملة ومنظمة ، فى أبواب تغطى جميع المعارف الطبية فى زمنه ، معززة بشرح العالم العبقرى ، مما جعل الكتاب مرجعاً رئيساً فى الجامعات للتدريس وممارسة الطب لمدة تزيد على سبعة قرون متتالية . وحتى فى وقتنا الحاضر ، فإن علماء الكيمياء الصيدلانية يجدون فيه من وصف الأدوية المفردة والمركبة والنباتات الطبية ما لا يجدونه فى غيره من المراجع . ويقرر الدكتور عبد الله أحمددين - أحد الأطباء المعالجين بطهران (إيران) - أنه درس الممارسات الطبية لابن سينا وطبقها على مرضاه ، وحقق نتائج باهرة ، وخاصة فى علاج الروماتيزم .

ويقع كتاب «القانون» في خمسة مجلدات . يقدم المجلد الأول عموميات الطب ، فيُعرف بالجسم البشري ، وأعضائه وأجهزته ، والأمراض والممارسات العلاجية المختلفة بصفة عامة (وقد أطلق على هذا المجلد في ترجمته الفرنسية اسم «التشريح» ب. د. كونج ١٩٠٥-١٩٣٠) ، واحتوى المجلد الثاني على العقاقير ، وصيدلانية النباتات والأعشاب الطبية . أما المجلد الثالث فيقدم دراسات في علم الأنسجة pathology مقسمة إلى دراسة الأعضاء ، أو الأنظمة في الجسم البشري . وأما المجلد الرابع فيبدأ برسالة في الحمى ، يليها رسالة عن العلامات والأعراض والتشخيص للأمراض ، مع تقديم شرح واف للعمليات الجراحية الثانوية ، والأورام والجروح والكسور والسموم . ويقدم المجلد الخامس موسوعة الصيدلة pharmacopoeia في أبهى وأكمل صورة .

ولم يكتف ابن سينا بهذا الكتاب الجامع ، ولكنه ألف العديد من كتب الطب الصغيرة التي تغطي موضوعات بعينها ، حتى يضمن أوسع انتشار لها وأكبر فائدة منها . ومن أشهر هذه الكتب ، كتابه في النبض PULSE والموسوعة الصيدلانية pharmacopoeia ، و«النصيحة في حفظ الصحة» ، وهو من أوائل الكتب في تاريخ الطب التي تتعرض لمجال الطب الوقائي .

ومن أطف ما كتب ابن سينا قصائد شعرية ، لتقديم الأساسيات والمعارف الطبية الرئيسة ، وكان لهذه القصائد بالغ الأثر في تعليم الأطباء وتدريبهم ، وقد أطلق على إحداها «الأرجوزة في الطب» وترجمت إلى اللاتينية عدة مرات بين القرنين ١٣ و ١٧ الميلاديين تحت اسم «Cantica Avicenne» ثم ترجمت إلى اللغات الأوروبية مثل الفرنسية ^(١) .

ولعل من المناسب هنا ، أن نعرض لمنهج ابن سينا في الطب ، حيث قدم هذا العالم الفيلسوف منهجاً للباحثين في مجال الطب يعكس فيه فهمه العميق ونظريته الواسعة للمرض والصحة . وقد لخص منهجه الطبى في عبارة واحدة تقول : «إن لكل شىء سببا ؛ فلا بد من فهم أسباب المرض وأسباب الصحة» ، وهذه الأسباب من الممكن أن تكون ظاهرة ، وفي أغلب الأحوال تكون خفية ، ولذا فإن من الواجب دراسة الأعراض . والأسباب على العموم أربعة أنواع هي : أسباب مادية ، وأسباب متعلقة بالكفاءة ، وأسباب شخصية ، وأسباب عامة .

(١) Pome de la medecine, H.Jahier and A.Noweddine, Paris, 1956.

والأسباب المادية : هي المرتبطة بالعضو المصاب نفسه ، أما الأسباب المرتبطة بالكفاءة فهي ما يتعلق بالبيئة المحيطة بالإنسان من هواء وماء وخلافه . وانظر أخي القارئ إلى تنبه هذا العالم العظيم لأهمية التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان العامة ، فهذا الوعي البيئي لم يحظ باهتمام الإنسان المعاصر إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين . ويلخص ابن سينا في كلمات بليغة تأثير البيئة على الصحة العامة ، فيقول : « كلما زاد ما يعلق بها (يقصد البيئة ، من هواء وماء وتربة) ظهرت وتسارعت أعراض المرض » .

ولم يكتف ابن سينا بالمنظور البيئي للمرض ، ولكنه خرج منه إلى المنظور الشخصي hygiene من عادات نوم ، وعادات أكل ، وطريقة عمل ومشى ، وكل ما يتعلق بالحياة الخاصة للإنسان . وخلص إلى أنه لابد من اتباع إرشادات صحية في الأكل والشرب ولا بد من القيام بالتمارين الرياضية حتى تحفظ الصحة . وهكذا قدم الشيخ الرئيس المفتاح للصحة العامة وأهم قواعد الطب الوقائي .

ولم يكن هذا العالم الدقيق في تحليله والنافذ إلى جوهر المشكلة يشتت جهده في الفروع ، وكان دائماً يحدد هدفه النهائي قبل بداية البحث ، ثم يتجه إلى هذا الهدف دون أن يضع جهده في المشاكل الفرعية . فعندما بدأ علاج تسوس الأسنان حدد الهدف حين قال : « الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تأكل ، وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه ، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك » .

أما كتب ابن سينا في مجال الفلسفة فكثير منها وصل إلينا غير كامل ، وبعضها فقد تماماً . والفلسفة عند ابن سينا تعنى : المنطق ، والعلوم الفلسفية البحتة التي تبحث في الكون ، وما وراء الطبيعة . وتعنى أيضاً العلوم الطبيعية ، مثل الفيزياء ، والفلك ، والرياضيات .

لقد كان ابن سينا يبحث في الأصل والجوهر ، وكان يؤمن كما تؤمن نحن الآن أن لكل علم فلسفة ، وأن الله سبحانه خلق العلم وخلق منهجه ، وعليك أيها الباحث أن تفهم منطق المنهج العلمي وتفلسفه . ومن أهم وأعظم كتب ابن سينا في هذا المجال كتاب « الشفاء » الذي قدم فيه نقضاً ودراسة وتحليلاً لتطبيقات ما وراء الطبيعة metaphysics ، بالإضافة إلى رسائل غاية في الأهمية في : الحركة ، والسكون ، والنسبية ، والفعل ورد الفعل . وهذه الأعمال يجب أن يتصدى لتحقيقها من منظور معاصر علماء في مجالات الفيزياء والرياضيات ، رغم أن هذا الكتاب قد تم نشره محققاً على يد الدكتور محمود قاسم ، وقدم له الأستاذ الجليل الدكتور إبراهيم مذكور .

وقد قام ابن سينا بنفسه باختصار أجزاء من كتاب «الشفاء» ؛ لتقديم أهم الأفكار فى كتاب مختصر بعنوان «كتاب النجاة» . كما وصل إلينا أيضا فى صورة كاملة كتاب «الإشارات والتنبيهات» . وكذلك كتاب «دانش نامه علائى»^(١) ، وهو كتاب كتبه بطلب من الأمير علاء الدولة . أما كتاب «الإنصاف» فلم تصلنا إلا أجزاء منه . وكذلك كتاب «منطق المشرقيين» . وقد زخرت المكتبة العربية بالعديد من الكتيبات التى ألفها ابن سينا لتوضيح وجهة نظره فى قضية ما ، أو لتوضيح بعض النقاط أو التفاصيل الهامة .

والقراءة المتأنية للسيرة الذاتية والعلمية للشيخ الرئيس توضح مدى عمق تفكير هذا الرجل الذى يحدد هدفه ويركز عليه ، ولا يشغل نفسه أو يشتت ذهنه بالدخول فى التفاصيل وإنما «يغوص إلى عمق المشكلة» .

تأثير ابن سينا فى الغرب :

إن انتقال علوم الإغريق إلى العربية فى حركة الترجمة الكبرى ، وترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية كانت اللبنة الأولى والأساس للنهضة العلمية المعاصرة . وقد بدأت حركة الترجمة من العربية فى القرن العاشر الميلادى فى صقلية ، ثم توسعت وأخذت شكلاً مؤسسياً فى توليدو بأسبانيا خلال القرن الحادى عشر ، ثم انطلقت شرارتها إلى أجزاء أخرى من أوروبا كفرنسا وإيطاليا . وكان الكتابان الرئيسان لابن سينا : «القانون» و«الشفاء» من الأعمال الأولى التى ترجمت ، وجعلته شخصية مشهورة ومحترمة فى الغرب كعالم وفيلسوف .

ومن بداية القرن الثانى عشر وحتى القرن السادس عشر ، كان تدريس الطب وممارسته فى أوروبا يعتمد بصفة أساسية على كتاب «القانون» . ورغم أن أعمال أبى بكر محمد ابن زكريا الرازى كانت معروفة ، ولها تقدير عظيم من الناحية الإكلينيكية ، إلا أن «القانون» ظل الدستور الرئيس للأطباء . وقد ترجم لأول مرة فى الفترة من ١١٥٠ إلى ١١٨٧ م ، على يد جيرارد سيرمونا . وتلا ذلك العديد من الترجمات التى بلغ عددها ٧٨ ترجمة ، أغلبها إلى اللاتينية ، وبعضها إلى العبرية . ويجب أن نلاحظ هنا أن ترجمة المصطلحات الطبية لم تكن على مستوى علمى دقيق ، وبعض المصطلحات العربية أخذت كما هى دون ترجمة ، وربما لم يكن معناها الحقيقى والمغزى الذى ترمى إليه واضحاً تماماً فى أذهان المترجمين . وذلك يعكس الفارق فى مستوى علم الطب الأكاديمي بين الشرق العربى والغرب الذى كان

(١) كلمة فارسية تعنى رسالة فى المعرفة ، وعلائى إضافة إلى الأمير علاء الدولة الذى ألقت الرسالة بناء على طلبه .

يحاول أن ينفذ عنه ظلام العصور الوسطى . وكانت الصورة أكثر إشراقاً في ترجمات «الشفاء» التي تميزت بدقة عالية وفهم للمصطلحات .

وقد اعتمد العلماء في تدريس الطب على كتاب «القانون» في أغلب الجامعات الأوروبية . وظهر هذا الكتاب كمرجع أساس لدراسة الطب في أقدم برنامج دراسي معروف في أوروبا في كلية الطب في فرنسا عام ١٣٠٩ م ، وفي جميع برامج تدريس الطب اللاحقة حتى عام ١٥٥٧م الذي ظهر فيه كتاب «الطب» تأليف : جالين . ومع هذا فقد ظل كتاب «القانون» يدرس حتى القرن السابع عشر . يؤكد ذلك التحقيق الذي نشر في روما عام ١٥٩٣ لكتاب «القانون» . والأدب الأوروبي - كما تمثله قصص كنتر باري - يحكى لنا أنه لا يوجد طبيب لم يدرس كتاب «القانون» . ولقد كان من الشائع أن يتخصص الطبيب في أحد فروع الطب كما قسمها ابن سينا . مثلاً : في تخصص الحمى ، أو أمراض العيون ، أو أمراض القلب ، وهكذا . وعلى الجانب الآخر ، اعتمد جميع العلماء العرب كتب ابن سينا كمرجع أساس لهم ، رغم أن بعضهم شكك في صحة بعض أفكاره ، مثل ابن زهر ، أو حتى أثبت خطأها وقدم التصحيح لها ، مثل : ابن النفيس عندما سجل اكتشافه للدورة الدموية . كما كتب ملخصاً لكتاب «القانون» يسمح لأي طبيب بفهمه واستيعابه بسهولة ويسر .

أهم ما كتب الشيخ الرئيس :

١- كتاب النجاة (تحقيق د . ماجد فخري) (ودون تحقيق من موقع الوراق (W) (وب) .

٢ - كتاب الشفاء :

٢ . ١ . جزء : الإلهيات (محقق دار الكتب والوثائق المصرية) (ودون تحقيق من موقع الوراق (W) (وب)

٢ . ٢ . جزء الطبيعيات (محقق دار الكتب والوثائق المصرية) (علم النفس تحقيق

يان باكوس)

- ٣- كتاب الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسي (تحقيق د. سليمان دنيا)
 ٣. ١. الجزء الأول : المنطق (دون تحقيق من موقع الوراق (W) ترجمة شمس عناتي
 ٣. ٢. الجزء الثاني : الطبيعيات (دون تحقيق من موقع الوراق (W)
 ٣. ٣. الجزء الثالث : الإلهيات (دون تحقيق من موقع الوراق (W)
 ٣. ٤. الجزء الرابع : التصوف (دون تحقيق من موقع الوراق (W) ترجمة شمس

عناتي

- ٤- كتاب القانون في الطب
 ٥- كتاب المبدأ والمعاد ترجمة ودراسة د. يحيى مشعوط (فرنسية)
 ٦- كتاب الحدود (تحقيق وترجمة فرنسية ، أن ماري غشيون)
 ٧- عيون الحكمة (دون تحقيق من موقع الوراق (W)
 ٨- المباحثات (تحقيق عبد الرحمن بدوي في كتابه أرسطو عند العرب)

الكتب والرسائل التي ليست مؤكدة النسبة إليه :

- ١- ١- رسالة في الحزن من مخطوطة مدرسة المراغة .
 ٢- ٢- دانش نامه علائي : ترجمة فرنسية .

قائمة مؤلفاته وكتبه وما كُتب عنه :

● مؤلفات ابن سينا ، لجورج قنواطي .

- AN ANNOTATED BIBLIOGRAPHY ON IBN SINA (1970-1989) INCLUDING AR-
 ABIC AND PERSIAN PUBLICATIONS,
 AND TURKISH AND RUSSIAN REFERENCES by Jules L. JANSSENS
 Leuven University Press

مواقع عن ابن سينا على الشبكة :

- بحث خلال (موقع جوجل) Avicenna - Ibn Sina (ج)
 ● بحث خلال (موقع التافزتا) Avicenna - Ibn Sina (ج)
 ● بحث خلال (موقع هيابيس) (موقع نويس) (ج)
 ● قائمة المكتبة الوطنية الكندية (ج)
 ● موقع المكتبة الوطنية الأمريكية للطب . فهرست خاص للمخطوطات الإسلامية في
 الطب .

● يقدم موقع مكتبة الكونجرس الأمريكي دراسة ببليوجرافية عن أهم الدراسات والكتب عن ابن سينا . باللغات العربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية ، والذي يعطى بالإضافة إلى كتاب يولز يانسن صورة متكاملة عن الموقف الحالي من الدراسات والتحقيقات لأعماله .

إلهام النبوة

(٢)

أ. عبد المتعال سالم عاشور(*)

انتهى بنا الحديث فى العدد السابق عند الحافظ أبى الإسعاد عبد الحى الكتانى والملايسات التى أحاطت بتأليف كتابه «الترايب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية» .

واليوم نستكمل الحديث عن الكتاب ، ونحاول أن نتلمس أوجه الشبه والخلاف بينه وبين كتاب الخزاعى «تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية» ، وأن نعرض للمعالم الأساسية للدولة النبوية عند الشيخين .

أثار فى الشيخ الكتانى شجونه وأساه وحرك مواجهه ما رآه عند بعض الباحثين من إهمال لعصر النبوة ، ممن يخطفون الخطفة من العلم نتفا ومن وصفهم الخزاعى بقوله : «رأيت كثيرا ممن لم ترسخ فى المعارف قدمه وليس له من أدوات الطالب إلا مداده وقلمه»^(١) . ومنذ السطور الأولى فى سفر «الترايب» يسجل الشيخ هذا الإهمال وسببه : «فإن الذين اعتنوا بتدوين المدنية العربية لخلفاء المملكة الإسلامية ، أهملوا ما كان من ذلك على عهد رسول الله ﷺ» . وما ذاك إلا لأن الذين يتعاطون السير شاب تناولهم قصور مخل وقراءات قاصرة وأهواء مضلة فلم يحيطوا علما بما كتبوا وغاب عنهم ما بلغته المدنية النبوية ، وندت عن أبصارهم هذه الوظائف والإدارات والعمالات .

لقد سن ﷺ من القوانين والنظم ما يأمّن معه كل ذى حق على حقه ويدفع التعدى من الأشرار وذوى الأطماع على أحد من الأمة أو أهل الذمة ، ومن أحكام الزوجية ، ومن أحكام المعاملات ، وسن العقوبات ، واهتم بالتعليم ، واستصلاح الأراضى ، وبناء المساجد ، ونظم الجيوش ، وقرر أصول الحقوق الدولية والمعاهدات والجوار وشئون القضاء ،

(*) من رجال التعليم .

(١) مقدمة الترايب ، ص ٤٢ نقلا عن الخزاعى .

ثم أسند هذه العمالات والوظائف إلى الأكفاء من الصحابة حتى قال البعض : «لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته»^(١).

شيء آخر أثقل صدره بالهموم ، وهو هذا النكران والجحود الذي تعرض له شيخه الخزاعي ، وخلق أكثر الدواوين من التعريف به ، وجهل جملة أهل العصر به ، فيقول : «ولولا تفكرى في أمر أبى الحسن الخزاعي وأن ما أحياء من مآثر السلف وإن قضى عليه الزمن الأخير بالنكران لكنت قد أضربت عن هذا العمل ونبذته . ولكن «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين»^(٢).

لكن عزيمة الشيخ وإخلاصه ، وإحاطته بعظمة الحضارة في عصر النبوة ، ثم حاجة هذه الحضارة إلى من يجلو عظمتها اقتناء للأجر الجميل واجتناء للشكر الجزيل جعله يتصدى لهذه المهمة .

وهو في تأسيسه بالشيخ الخزاعي ونسجه على منواله يبادر بالقول : «ولم أقلد أبا الحسن في عزوه» .

وتدعيمًا لابتكاراته وإضافاته واستدراكاته ، وحفظًا لجهده واجه قولاً رائجاً في علاقة اللاحق بالسابق في مسيرة العلوم والفنون والآداب : «ما ترك الأول للآخر شيئاً» أو ما قاله الشاعر الجاهلي :

ما أَرانا نقول إلا مُعَاداً أو مُعَاراً من قولنا مكروراً

قاعدة ظالمة تصادر وتثبط العزائم ، وتدعو إلى الجمود والتوقف . ولذلك فقد وقف عندها الشيخ الكتاني طويلاً مناقشاً ، ومستأنساً بقول الجاحظ : «ما على الناس شيء أضمر من قولهم : ما ترك الأول للآخر شيئاً» . والأوقع من هذه الكلمة قول الإمام على كرم الله وجهه : «قيمة كل امرئ ما يحسن» وما قاله أبو الحسن المسعودي^(٣) : «قد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر ، وربما كان الأخير أحسن تأليفاً وأمتن تصنيفاً» .

ومن هنا كانت العلوم نامية غير متناهية ، لكن الناس درجت على إطراء المتقدمين ، ومدح الماضين ، وتعظيم السالفين ، حتى ولو كان في كتب المحدثين ما هو أعظم فائدة .

(١) مقلعة التراتيب ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٣) المسعودي ، أبو الحسن على بن الحسين البغدادي . المؤرخ (٣٤٥هـ) صاحب «مروج الذهب» . كان معتزلياً .

وهذا الجاحظ على جلاله قدره يحكى عن نفسه فيقول : « كنت أولف الكتاب الكثير المعانى الحسن النظم وأنسبه إلى نفسى فلا أرى الأسماع تصغى إليه ولا الإرادات تبتسم نحوه ، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله ابن المقفع^(١) أو سهل بن هارون^(٢) أو غيرهما من المتقدمين فيقبلون على كتبهم ويسارعون إلى نسخها^(٣) » .

وكأن الشيخ يتنبأ بالتجاهل والإغضاء الذى أصابه فيشارك مع ابن حزم^(٤) فى أساءه وهو يردد : « أزهد الناس فى العالم أهله فلا كرامة لنبي فى وطنه وكيف لقي رسول الله ﷺ ما لقي من قومه وعشيرته .

وإذا كان هذا فى زمن رواج العلوم ورقيا ورجحان أهلها « فكيف بزماننا هذا زمن التأخر والانحطاط وغلبة الأغراض السافلة والتشبث بأذيال الناقصين والتقليد الأعمى لكل مستهجن؟ »^(٥) .

أراد الشيخ الكتانى أن يستدرك التقصير المشمول بفقر المصادر وفطير القراءات والغفلة عما ازدان به عصر النبوة تألقا وأريجا مع ما يحيط بدولته من شمال وشرق حيث دولة الروم ودولة الفرس وما بينهما من حروب ومؤامرات ودسائس وفتن وإغراق فى الملذات والترف .

دع عنك العرب وما كانوا عليه من هوان .
وسط هذا الظلام الدامس أضاءت شمس النبوة المحمدية وما هى إلا مدة يسيرة حتى عمت أرجاء الأرض .

ثم إحساس الشيخ بمسئوليته أمام الآتين بعد فهو يقول لهم :

« إليكم معشر الآتين أسوق هذه المجموعة النفيسة التى هى كمرأة مكبرة تتجلى لكم منها الحالة الاجتماعية والسياسية والحربية والعلمية الأخلاقية والعائلية التى كان فى عصر النبوة^(٦) » .

(١) عبد الله بن المقفع (-١٤٣هـ) إمام طبقة الكتاب فى العصر العباسى كان مجوسيا ثم أسلم . اختص بالمنصور أبى جعفر فكتب له حتى قتل وهو فى مقتبل العمر ، من أشهر أعماله : الأدب الصغير ، كلیلة ودمنة .

(٢) سهل بن هارون (-٢١٥هـ) كاتب بليغ من واضعى القصص ، اتصل بخدمة هارون الرشيد وولده المأمون وكان شعوبيا متعصبا للعجم ، له كتاب على نسق كلیلة ودمنة . الأعلام ٢١٠/٣ .

(٣) مقدمة التراتيب .

(٤) ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد ، أبو محمد (-٤٥٦هـ) عالم الأندلس فى عصره وأحد الأئمة الكبار ، كان من صدور الباحثين ، وكان شديد النقد للفقهاء والعلماء مما كان سببا فى إجماعهم على بغضه فطارده وحذروا منه ، وهو إمام المذهب الظاهرى ومن كتبه المحلى ، الفصل ، الإحكام . الأعلام ٥٩/٥ .

(٥) مقدمة التراتيب ٧٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

وقد تجرد الشيخ لهذه المهمة وفاءً لحق هذا العصر . وغنى بتراجم الوظائف والدواوين والنظم وعدّ هذا الهدف من الواجبات حتى تكون هذه الفترة النبوية منوالاً تنسج عليه الأمة ، وحافزاً يبعث فيها أسباب النهوض لاسترجاع ما فات ، وصوناً لاستقلالها ، ولتعلموا شرف الرسالة المحمدية .

هذا عن بواعث التأليف فماذا عن المصادر؟

يعجب المرء لهذا الفيض الموسوعي للمصادر والمراجع التي استقى الشيخ منها مادة كتابه والتي تغطي جميع فروع المعرفة : لغوية وأدبية ، وفقهية ، وتاريخية ، وعلم الحديث . وطبقات الرجال والأنساب وأخبار الدول . وكتب التفسير ، والأصول ، والتصوف ، وكتب السياسة والرحلات وأسامى الفنون ، والمعاجم والمسانيد وتاريخ المدن وكتب الأحكام ، والشروح والذيل والاستدراكات . قراءة واعية ناقدة ينسب كل قول لقائله وكل شاهد لمصدره بين التقريظ والتفنيد . يبدأ حديثه عن المصادر فيقول : «ولما كان لكل شيء مادة . فمادة كتابنا هذا من الوجهة الحديثية : الكتب الستة التي هي معصم الإسلام وساعده . وشروحها . . . إلخ»^(١) . حيث تتجاوز الكتب في هذا الفن فقط ثمانين مؤلفاً وعلى هذا النسق أخذ في سرد بقية العلوم : سيرة وتراجم وأنسابا . . . إلخ . ولقد احتلت أسماء الكتب من المقدمة اثنتي عشرة صفحة بالبنت الصغير ، غير ما جاء في ثانيا الكتاب بعد ذلك .

قصة كتاب الخزاعي معه . وكيف ترسم خطاه؟ وأين عثر عليه؟

يقول الشيخ عبد الحى الكتانى :

«ومن أعظم ما اعتمدته وسأيرته كتاب التخريج وإن كنت لم أقف عليه كاملاً . فإني على ترتيب ما وقفت عليه منه اعتمدت ، وعليه أضعاف فصوله وأصوله ونقله زدت واستدركت ، كما فعل ابن حجر^(٢) في «الإصابة» فيما زاده على الذين دونوا قبله . . أو كما وقع لابن الطلاع الأندلسي^(٣) مع ابن أبي شيبه^(٤) . وقد كنت شديد التطلب لهذا

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٢١ .

(٢) ابن حجر . الإمام الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ) نشأ يتيم الأبوين . حاز من العلوم واجتمع له من شيوخ العصر ما لم يجتمع لغيره . وتفرد في علم الحديث وقصر نفسه عليه وزادت تصانيفه فيه على مائة وخمسين مصنفًا . من أهم مؤلفاته : فتح الباري ، الإصابة . لسان الميزان .

(٣) ابن الطلاع : محمد بن الفرّج القرطبي المالكي ، أبو عبد الله بن الطلاع : مفتي الأندلس ومحدثها في عصره (٤٩٧هـ) . له مصنف بعنوان ، أقضية رسول الله ﷺ ، وسبب تأليفه ، هو أنه عثر على كتاب صغير لابن أبي شيبه بهذا العنوان فرأى أن ينسج على منواله تبركا ومحبة ، ولذلك يشير الكتانى إلى أن صنيعه مع الخزاعي كصنيع ابن الطلاع مع ابن أبي شيبه .

(٤) ابن أبي شيبه : عبد الله بن محمد (٢٣٥هـ) صاحب المسند والمصنف . راجع الأعلام ٤١٩/٧ ، ٢٦٠/٤ .

الكتاب والبحث عنه من أقصى وادى نون إلى بلاد الغريش حتى ظفرت به فى مكتبة تونس الزاهرة فى رحلتى إليها سنة ١٣٣٩هـ فأخرجته بقصد الاستنساخ ولكن لم أجد اسم المؤلف على ظهر هذه النسخة^(١). وهى النسخة التى ظفر بها بمكتبة جامع الزيتونة ومنها استخرج النسخة التى بين يديه . وهى ناقصة القسم العاشر . على أنه أشار إلى نسخ أخرى سمع بها ولم يرها : واحدة بمكناسة وأخرى بفاس وثالثة بباريس . كما أشار إلى تلخيص الشيخ رفاعه الطهطاوى لكتاب التخريجات ، وذلك فى مؤلفه المسمى : «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز»^(٢) .

ولما ظفر بمنيته بالعثور على هذا الكتاب الفريد فى بابہ صحبه لىالى وأياماً «يميز أبوابه ويشير على رءوس الكلام وأصوله ، ويصحح أخطاء ناسخه الذى وجدہ لم يعتبره ولا عرف له قيمة ، ولا فهم أنه عند عشاق الآثار الإسلامية من أكبر الكتب»^(٣) .

ثم بدا له أن ينسج على منواله فأنشأ سفره ذاك المسمى بالتراتيبي الإدارية ، وانقطع له أربعة أشهر أو تزيد ، وأضاف إليه الممتع والنافع بعد أن قرأ العديد من المراجع والمصادر مما أشرنا إليه ، ثم صاغ ذلك كما يقول : «على أنى قد عملت على الكتابة فى هذا الموضوع بلسان يناسب العصر ، وقلم يرمى إلى إيثار الاختصار الواضح ، والاقتصار على الأفيد والأرجح من غير إخلال أو خروج على الموضوع»^(٤) .

والنسخة التى بين يديّ من كتاب «التراتيبي الإدارية» هى من نشر دار الكتاب العربى ببيروت بدون تاريخ . وتتكون من مجلدين :

المجلد الأول يحتوى على :

١ - مقدمة شارحة مستفيضة ذكر خلالها البواعث والأهداف والمصادر ، والتقاء بكتاب الخزاعى والتعريف به ، وعرض لبرنامج الكتابين : كتاب الخزاعى وكتابه . وتحتل هذه المقدمة ثمانين صفحة .

٢ - الجزء الأول من الكتاب ويضم ، الأقسام الثمانية الأولى ، وينتهى بهذا التنويه : «تم الجزء الأول من كتاب التراتيب الإدارية» .

(١) مقدمة التراتيب ، ص ٣٣ .

(٢) السابق ، ص ٤٢ .

(٣) السابق ، ص ٣٣ .

(٤) السابق .

ويستغرق هذا الجزء ٤٨٠ صفحة .

المجلد الثانى :

١ - بدأه باستدراكات ومقدمات لم يعرض لها الخزاعى استغرقت أربعاً وعشرين صفحة .

٢ - القسم التاسع عند الخزاعى مع الاستدراكات والإضافات ويشغل ١٤٤ صفحة .

٣ - القسم العاشر وبه موضوعات جديدة لا علاقة لها بالقسم العاشر عند الخزاعى ، ويبلغ حوالى ثلاثمائة صفحة .

٤ - تقرّظ وتنويه نشرته إحدى الجرائد .

٥ - فهرسة الكتاب .

وعدد صفحات هذا المجلد ٥٠٠ صفحة . وإذن فصفحات الكتاب تجاوزت الألف بستين صفحة ، وبلغت أبوابه ستة وأربعين وأربعمائة .

وتتمثل المعالم البارزة فى بناء الحكومة النبوية عند الشيخين فى الآتى :

أولاً : وحدة الأمة وتماسكها ووضع النظم والقوانين اللازمة لذلك ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن البيعة والمعاهدة .

ثانياً : الوظائف والعمالات والدواوين اللازمة لهذا البناء المعمارى :

١ - ما يلزم صاحب السلطة من الحجابة والحراسة والحاشية والوزارة ، وقد أشار إلى ذلك الشيخ الكتانى فى مقدمة كتابه حيث قال :

«بحيث يجد المتتبع أن وظائف حاشية الملك الخاصة بشخصه - أى شخص رسول الله ﷺ - من صاحب الوضوء والفراش والحارس والحاجب كانت موجودة عند النبى ﷺ . ولعلّ عن ذلك العهد أخذها ملوك الإسلام»^(١) .

٢ - الجهاز المالى وما يستتبعه من نشاط اقتصادى من زراعة وتجارة وصناعة وبقية الحرف . وموارد الدولة من زكاة وخراج وغنائم وجزية ، ثم النفقات وتعيين المصدقين أو العاملين على جمع الزكاة ، مع ملاحظة أن الزكاة تغطى كل صنوف الأموال من زراعة وتجارة ونقد وماشية وركاز ، وأن تنظيم الأسواق وتطهيرها من الغش والغبن والتطفيف والربا

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٩ .

جزء من عمل المحتسب ، وأن ما يرد من أموال ينفق على أهل القرية أو القبيلة نفسها من الفقراء .

٣ - الجهاز القضائي : وما يستتبعه من ديوان المظالم ، وتعيين الشهود ، وشروط القاضي ، وأدب القضاء وإصدار الأحكام ونفقات القضاء .

٤ - الجهاز الأمني : اتخاذ الحرس ، ومراقبة الأسواق ، ومنع المحرمات ، وتنفيذ الأحكام من عقوبات وحدود وقصاص وسجن .

٥ - ديوان الرسائل والمعاهدات والترجمة وعقود الصلح .

٦ - تعيين الولاة على الإمارات والنواحي .

٧ - التعليم .

٨ - الأوقاف في شئون المساجد والمواريث وأمراء الحج .

٩ - الدفاع أو الجهاد وتعيين القادة (أمراء الجيش) ومن يستخلف رئيس الدولة ، وتقسيم الجيش إلى أخماس ، والأسلحة ، وتدريب الجنود على الفروسية والرمي وصناعة الأسلحة وحفر الخنادق ، ورعاية أسر الجنود .

١٠ - الطب وأنواع الأدوية والحجّر ، ومسئولية الطبيب الجنائية إذا أخطأ ، وتعيين الممرضات . وهناك إلى جانب ذلك الرعاية الاجتماعية واستقبال الوفود والاهتمام بالتدريبات الرياضية كالسباق والسباحة والمبارزة والرمي .

وكل ما سبق كان موجوداً في العهد النبوي وإن اختلفت الأسماء أو جاء بصورة مبسطة . فإذا قلنا مثلاً : القضاء ، فليس معنى ذلك أن هناك درجات للتقاضى من ابتداء إلى استئناف إلى نقض ... إلخ . . أو أن هناك أنواعاً للمحاكم من مدنية إلى تجارية إلى عسكرية ، لكن أصول التقاضى في إقامة الدعوى متحققة عدالة وشهوداً وبيئة ... إلخ .

المقارنة بين الشيخين والعملين :

أولاً : أبو الحسن الخزاعي وكتابه التخریجات :

١ - من علماء القرن الثامن .

٢ - فاسي الموطن تلمساني المولد .

٣ - ذو ثقافة واسعة وقراءة مديدة بين الفقه والحديث والأدب واللغة ... إلخ .

٤ - من أسرة علمية نابهة .

٥ - شغل منصب القضاء وكان من كتاب ملوك بني مرين .

٦ - كتابه «التخریجات» : مجلد واحد تبلغ صفحاته ٨٨٠ صفحة .

وليس للخزاعي فيما نعلم غير هذا المؤلف ، وقد أهدى مؤلفه كما أشرنا من قبل إلى أحد ملوك بني مرين . وقد عرضنا له فيما سبق .

وقد تعرض للنكران وإهمال الحديث عنه . وإن كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣م) قد عرض له فى السيرة النبوية التى سماها : «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» .

أقام الخزاعي كتابه على أقسام عشرة . وقد عرضنا له بالتفصيل فى الجزء الأول من هذه الدراسة

ثانيا : الشيخ أبو الإسعاد عبد الحى الكتانى .

١ - من علماء القرن الرابع عشر الهجرى .

٢ - من حيث الثقافة : أضاف إلى القراءة الرحلات العلمية وزيارة المكتبات ومشاهدة العلماء مع تفوق فى المصادر التى قرأها . وقد هيا له التأخر الزمنى ووفرة المكتبات أن يقرأ ما لم يقرأه الخزاعي .

ومن حيث التأليف :

أ - الخزاعي لم نسمع أن له مؤلفاً آخر غير «التخريج» بينما ترك الكتانى مؤلفات أخرى أشرنا إليها .

ب - مصنف الكتانى أكبر حجماً وأغزر مادة وأكثر استقصاء . ويكفى أن نقارن بين مقدمة الخزاعي وهى لا تتجاوز ثلاث عشرة صفحة ومقدمة الكتانى وقد اقتربت من الثمانين صفحة تكفى وحدها كتاباً مستقلاً .

ج - الخزاعي جعل إهداء كتابه إلى أحد ملوك بني مرين . بينما أهدى الكتانى مؤلفه إلى (روح شيخنا الأستاذ الوالد رحمه الله تعالى) .

د - بنى الخزاعي كتابه على أقسام عشرة وتحتها أبواب أشرنا إلى عددها . وكذلك فعل الكتانى إلا أن الجزء العاشر عند الخزاعي لم يكن موجوداً فى النسخة التى كانت عند الكتانى فاستبدل بهذا الجزء قسماً عاشراً زاد به على ما عند الخزاعي . وسنشير إليه فيما بعد . ولذلك جاء برنامج الكتابين واحداً . وبعد كل باب يقول الكتانى باعتباره مستدركاً على الخزاعي بعد أن يذكر أبواب سلفه : « فذكرت هذه الأبواب مهذبة مختصرة عزوا وسياقا ، واستدركت خلال تراجمه » . ولنختار أقل البرامج مثلاً وهو القسم الأول .

يقول الشيخ الكتانى فى طُلعة الأقسام :

القسم الأول فى الخلافة والوزارة وما يضاف إلى ذلك من الخدمات النبوية الشخصية وهى عند الخزاعى سبعة أبواب :

١ - فى ذكر خليفة رسول الله .

٢ - باب فى الوزير

٣ - فى صاحب السر

٤ - باب فى الأذن وهو الحاجب والبواب

٥ - باب فى الخادم

٦ - باب فى صاحب الوساد

٧ - باب فى صاحب النعلين

ثم يقول الكتانى : ذكرت هذه الأبواب مهذبة محررة عزوا وسياقاً واختصاراً ، ومما زدت عليه فى هذا القسم خلال أبوابه :

١ - باب فى ذكر الفرق بين الخليفة والسلطان والملك من حيث الشرع والاصطلاح .

٢ - باب فى ذكر حبس بعض الوافدين عن الإذن .

٣ - باب فى ذكر من خدم المصطفى من الأحرار .

٤ - باب فى ذكر من كان يخدمه عليه السلام من الموالى ذكوراً وإناثاً .

٥ - باب فى ذكر من كان يوقظه عليه السلام إذا نام ويستتره إذا اغتسل .

٦ - باب فى ذكر من كان يبيت على باب رسول الله ﷺ من الرجال^(١) .

ولو أننا قارنا بين الشيخين فى أول باب وهو ذكر خليفة رسول الله ﷺ لوجدنا الشيخ أبا الحسن الخزاعى قد شغل بشخصية أبى بكر رضي الله عنه : اسمه ولقبه وكنيته ومبايعته مبايعة عامة وخاصة ، والحجج التى قامت عليها خلافته ، ونبذة من أخباره ومناقبه ، ثم وفاته ومدة خلافته . تتخلل الأبواب شروح وفوائد لغوية ، ثم يختم بحديثه عن معنى الخلافة وأول خليفة ومعنى أمير وأول أمير . . . إلخ .

أما أبو الإسعاد الكتانى فقد بدأ من حيث انتهى سلفه فلم يعرض لشيء من هذا وإنما دخل فى معنى الخلافة والإمارة بتوسع وإضفاء سياسى على المنصب مما لم ينتبه له

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٥٠ .

الشيخ الخزاعي . ثم أضاف تفصيلاً ممتعاً عن الفروق بين الخليفة والملك والسلطان مما لم يذكره الخزاعي ، إذن فالكثاني لم ينقل كل ما قاله الخزاعي وإنما اختار جانباً عميقاً ثم أضاف إليه واستدعى الكثير من الأعلام ومقالاتهم للاستشهاد ، ولم يشغل نفسه بالوقوف عند اللغويات كما فعل الخزاعي .

ويمكن تطبيق ذلك على بقية الأقسام .

وهاك عرضاً لموضوعات التراتيب باعتباره الأوقع والأدلّ والأجلى على عنوان كتابه وهو «الحكومة النبوية» :

القسم الأول : أشرنا إليه وهو يتعلق بالخلافة والوزراء .

القسم الثاني : في العمليات الفقهية وأعمال العبادات من عمالات المسجد وإمارة الحج ومعلم القرآن والفقه ، وكذا المبعوثون إلى الآفاق والجهات لهذا الغرض ، والمعلمون من الرجال والمعلمات من النساء ، ودار القراء (المدارس) ، ومن تصدر للفتوى ، والإمام في الصلاة ، والإمام في رمضان ، وأول أمير للحج ، واتخاذ المنبر ، والمؤذنون ، وإضاءة المساجد وتنظيفها وتجميلها ومنع التشويش بها ، والحزم في استدعاء المصلين إلى المساجد وعمارات البيت الحرام وسداته .

القسم الثالث : العمليات الكتابية : وفيه : كتاب الوحي ، كتاب السر ، كتاب الرسائل والإقطاع ، الكتابة للبوادي ، العهود والصلح ، كتاب في الأمور الخاصة برسول الله ﷺ ، أدوات الكتابة ترتيب الكتاب من افتتاحية وموضوع وخاتمة وكيفية مخاطبته ﷺ للملوك وكيف كان ﷺ يفتح كتبه ، ونصوص محفوظة من كتبه ﷺ ، وآخر كتاب له ، ﷺ وأطول كتاب محفوظ لرسول الله ﷺ ، وهل كتب ﷺ بيده الشريفة شيئاً؟ ، خاتمه الشريف ونقشه ومن أي مادة ، واستخدامه ومن كان يحمل الخاتم ، وضع التاريخ وتصحيح أن أول من أرخ رسول الله ﷺ وليس عمر . باب في السفير (الرسول) وحسن اختياره ﷺ لسفرائه ، ووصيته لهم اتخاذ البريد وأصل الكلمة وكيف أنها اسم للمسافة بين محطتين ثم أطلقت على حامل البريد ، سفراؤه ﷺ للصلح وللدعوة إلى الإسلام وبالأمان ، وللملوك في أمور أخرى . الرسول ﷺ يبعث سفيره بهديه . وجائزته لسفير غيره ، زيد بن ثابت المترجم لرسول الله ﷺ ، كتب اليهود ، شعراء رسول الله ﷺ واستماعه للشعر وتكرمه ﷺ لسبى سبى له بسبب أبيات من الشعر ، ومن كان خطيب رسول الله ﷺ ، فصل في كتاب الجيش ، في البيعة ومعناها المعاهدة والمعاقدة ، فصل في ثبوت العطاء في عهد رسول الله

ﷺ ، فصل فى الديوان ومعناه وأول من دون الدواوين ، وما يدل على أن التدوين وقع أيام الرسول ﷺ قبل عمر ، والسن التى يجاز عندها التسجيل فى ديوان الجيش ، وكيف رد الرسول ﷺ من لم يستأذن أبويه ، تعيين القادة ورؤساء الجيش والنقباء والمحاسب ، الوصاية .

القسم الرابع : فيما يتعلق بالعمليات الأحكامية : ومنها :

الإمارة على النواحي ، والولاية الذين ولاهم رسول الله ﷺ على البلاد ، والقضاء والحج والصدقات ووصاياه ﷺ لعماله . قضاء رسول الله ﷺ وكيف أن له حكم الباطن والظاهر وجمع له بين الشريعة والحقيقة والأقضية التى قضى فيها ﷺ^(١) ، وشروط القاضى ، ومن كان يقضى أيام رسول الله ﷺ وهل كان للقضاة والولاية رواتب ، والنظر فى المظالم من أيام النبوة^(٢) ، وأين كان يجلس القاضى للفصل والحكم ، ومن أول من اتخذ داراً للقضاء . باب فى الشهادة وكتابة الشروط وشهادة الصبيان (وصورة عقد من عقود ذلك العصر الطاهر)^(٣) ، ومن كان يكتب العقود والمعاملات ومن كان يكتب بين الناس فى قبائلهم زمن النبوة ، ومن كان فارض الموارث والوكيل فى غير الأمور المالية ، إرسال الخبير فى حرفة ما ليحكم بين المتنازعين^(٤) ، معرفته ﷺ بأمور الهندسة والبناء وإصلاح الطرق . باب فى المحتسب والقسام وفيمن ولاه رسول الله ﷺ أمر السوق . فصل فى إرسال رسول الله ﷺ من ينادى فى الناس : من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له . فصل فى صاحب العسس ومن ولى ذلك أيام الرسول ﷺ . السجن أيام الرسول ﷺ للرجال والنساء . إطعام المساكين وكسوتهم^(٥) ، وسائل التأديب بالضرب أو بالنفى أو بالهجران أو بالتعبيس منه ﷺ لأصحابه ، هل قتل ﷺ أحداً بيده متى أمر بالتحريق للبناء وهدمه ، تنفيذ حد الحراقة ومن كان يقيم الحدود ومن كان يُجعل على الأسرى .

القسم الخامس : العمليات الحربية وما يتصل بها :

الإمارة على الجهاد وكم غزوة غزاها ﷺ . وما هى أشرف الغزوات عند الله وعند رسوله ﷺ ؟ . عدد بعوثة وسراياه ومن عينهم من أمراء الجند ومن كان يستخلف ، وصاحب

(١) التراتيب : ٢٥٠/١ .

(٢) السابق : ٢٦٦/١ .

(٣) السابق : ٢٧٤/١ .

(٤) السابق : ٢٨٠/١ .

(٥) السابق : ٣٠٠٠/١ .

اللواء ، وأول لواء رفع بين يديه ﷺ ، عقد الألوية لأمرء البعوث وانفراد كل قبيلة برايتها ، وأصل رسم الهلال وألوان راياته ﷺ واسم رايته ومم كانت تتخذ الرايات؟ وتقسيم الجيش إلى خمسة ، ومن أمير الرماة ، واتخاذ الشعار فى الحرب ، وتنظيمه ﷺ للجيش واتخاذ الخيل والمسابقة عليها . فصل فى خيله وإبله وبغلته ، ومن كان حرسه بالمدينة وحراس عسكره والمتجسس ، واتخاذ العين للتعرف لا للتجسس ، استخدام المخذل فى الحرب والنام ، استعمال السفن الحربية وصانع المنجنيق والدبابات والخنديق ، والمغانم ، والتهنئة بالنصر ، وماذا يقول ﷺ إذا رجع من سفره؟ .

كيف كان حال كفار جزيرة العرب معه ﷺ ^(١) ومعاملته معهم .

القسم السادس : العمليات الجبائية :

فُتح على رسول الله ﷺ فى حياته بلادُ الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق . وجبى إليه من أخماسها وجزيتها ما لا يُجبى للملوك إلا بعضه . وهادنه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه ولا مسك منه درهماً ، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين ^(٢) . ومن أبواب هذا القسم : الجزية - الأعشار - الخراج - الزكاة - من يكتب الصدقات . الخارص - الوقف المستوفى - زكاة رمضان .

القسم السابع : فى العمليات الاختزانية :

خازن الطعام . الكيال . الدرهم واستعماله ، وهل كان موجوداً أيام النبوة؟ أسماء الأكيال التى كانت مستعمله فى عهده ﷺ . باب فى اتخاذ الإبل والغنم ووسم الحيوان والحمى بحميه الإمام .

القسم الثامن : فى سائر العمالات ومنها :

المشرف على نفقات رسول الله ﷺ ، الوكيل فى الأمور المالية ، إنزال الوفد فى دار الضيفان ، نزول وفد ثقيف فى قبة ضربت لهم بالمسجد ، ومن كان يلى أمر الوفود فى زمنه ﷺ ، جوائزه للوفود ، تجمله ﷺ للوفود ، الفنادق لنزول المسافرين ، دار المرضى وقيام الصحابييات بخدمة المرضى . الطبيب وجواز الاستعانة بأهل الذمة على خلاف فى ذلك ، والتطبيب بالكى وقطع العروق وأن من لا يعرف الطب لا يباح له أن يعالج الناس . باب فى

(١) التراتيب : ٣٨٤/١ .

(٢) السابق : ٣٩١/١ .

الحجر الصحي ، النسوة الممرضات ، الحكيم المنجم القافى ، الصُّفَّةُ وأنها أصل لاتخاذ الزوايا للفقراء والمنقطعين . وآخر الجزء الأول : كان النبی ﷺ يسمر مع أبى بكر فى الأمر من أمور المسلمين .

القسم التاسع فى ذكر حرف وصناعات كانت فى عهد رسول الله ﷺ وذكر من عملها من الصحابة رضوان الله عليهم زيادة على ما تقدم . وقد قدّم لهذا القسم بمقدمات تسع ذكر فيها مشروعية التصرفات المالية والكسبية قدوةً برسول الله ﷺ ، فقد باع ﷺ واشترى ، وأجر واستأجر ، ووكل وتوكل ، وأهدى وأُهدى إليه ، ووهب واستوهب ، واستدان واستعار ، وضمن وشفع ووقف ، وحلف واستحلف ، وكفّر يمينا وأمضى أخرى ، ومازح وورّى ولم يقل إلا حقاً فكان ﷺ القدوة والأسوة . فالكسب والضرب فى الأرض والمشى فى الأسواق والزراعة والتجارة والاحتراف مشروع ومطلوب . وإذا كان المشرع قد ذم الزراعة فى حديث يشير إلى أن الذل فى أذنان البقر^(١) فذلك إذا شغلت عن الغزو فأطمعت العدو على الهجوم ، فأما إذا جُمع إلى الزراعة الاستعداد والقوة فتلك هى السُّنة . وينبغى ألا تشغل الكاسب عن حق من حقوق الله ، وأن يتحرى الكاسب مواطن الحرام والشبهات كالربا والكهانة والسحت ومهور البغايا والرشوة والزمر والطبل فيتجنبها ، وألا تشغل عن الصلاة فى أول وقتها . وأما ما يتعلل به بعض الجهال من ترك التكسب بغلبة الحرام فليعلموا أن هذا الزمان قلٌّ أن يوجد فيه الحلال صافياً ، فليكتسب السالك ما يحفظ به حياته متحرراً للحلال حتى لا يموت جوعاً . قال بعض الظرفاء :

يقول لى الجهول بغير علم دع المال الحرام وكن قنوعاً
فلما لم أجد مالا حلالاً ولم أكل حراماً متّ جوعاً

فعليه أن يراعى درجات الحرام والشبهة .

ثم استعرض الشيخ الكتانى الحرف والصناعات التى كانت موجودة فى عصر النبوة سواء أكانت صناعات حربية أو مدنية وسواء أكانت للرجال أو للنساء . وسواء أكانت مباحة أو مختلفاً عليها .

وأول حرفة تكلم عنها وعن الصحابة الذين تعاطوها : حرفة التجارة باعتبارها أكثر الحرف سيرورة ، وساق خلال حديثه الكثير من الطرف والعظات والنوادر .

(١) عن ابن عمر قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذنان البقر ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد . سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم . أبو داود ٧١٠/٣ كتاب البيوع .

وقد أريت أنواع الحرف والصناعات التي ذكرها على الخمسين إذا أدخلنا أنواع التجار أعداداً: العطار . البزاز . بائع الرماح . بائع الطعام ، فهؤلاء وأمثالهم مندرجون تحت «التجار» . ومن طرائفه ذكر أصل تسمية البيع والشراء : تجارة .

ومن الحرف التي ذكرها : الوزان ، الصرّاف ، الحطاب . الدلال (السمسار) ، الدباغ ، النساج ، النجار ، الخياط ، الصوّاغ ، النقاش ، المصور ، الحدّاد ، البّناء . الصّبّاغ ، العوام ، الصياد ، الجزار ، الحلاق ، السقاء ، الطباخ . . . إلخ .

ومن حرف النساء : الماشطة ، والتي تحرش بين النساء ، والتي تذهب لجس نبض الرجل هل له بزواج فلانة؟ ، والممرضات والتاجرات ، والقبالة ، والخافضة (الخاتنة) والمرضعة ، والغازلة ، والمرأة تمثل النساء في المجلس النبوي ، والمغنى والمغنية في المدينة في العهد النبوي (وقد فصلّ هنا وصفاً وتنوعاً وفقهاً تفصيلاً مستقصياً) ، واتخاذ التماثيل للبنات الصغار ، ورقص الحبشة في المسجد النبوي ، والمصارعة وحرف أخرى .

ويلاحظ أن للشيخ متابعات فقهية كلما اقتضى الأمر كما حدث عند ذكره الغناء والمغنين ، أو اللهو واللعب المأذون فيه ، أو جواز التعامل مع غير المسلمين عند ذكره لحرفة الصاغة . كما أنه كان يستقصى الموضوع كما فعل عند حرفة البناء فقد استطرده في حديثه فذكر بناء المسجد النبوي والمساكن النبوية وهدم مسجد الضرار .

القسم العاشر : انفرد الشيخ الكتاني عن سلفه بهذا الباب وسبب ذلك أن النسخة التي وقعت في يده سقط منها هذا القسم . ولكي يتساوى في عدد الأقسام مع الشيخ الخزاعي أنشأ هذا القسم . ولذلك فهو يقول في مقدمته : «قد عوضنا هذا القسم من كلام الخزاعي لخلوه من الفائدة بقسم آخر استدركناه عليه ، وهو من الأهمية بمكان وربما يضارع جل أجزاء المؤلف»^(١) .

وموضوع هذا القسم : الحالة العلمية على عهده ﷺ . وقد أقامه على مقصدين . المقصد الأول : تشخيص الحالة العلمية على عهده عليه السلام تعلمًا وتعليمًا وكتابة وأدواتها ونحو ذلك .

المقصد الثاني : تشخيص الحالة الاجتماعية من حيث ما حازه أصحاب النبي ﷺ من السبق في أنواع النبوغ وسعة المدارك . .

(١) التراتيب : ١٦٨/٢ .

أبواب المقصد الأول ستة أبواب بعد المائة .

وأبواب المقصد الثانى واحد وسبعون باباً .

وهذا القسم يصلح وحده كتاباً مستقلاً . . . يأتى فى مفتحه الحديث عن القرآن الكريم على أنه أوسع دائرة للمعارف تناولها البشر . ثم يردفه ببيان عن السُّنة المطهرة لارتباطهما معاً فيستغرق الحديث عنهما حوالى خمسين صفحة (١٦٨ - ٢١٧) يتجلى لنا فيها علم الشيخ وتبحره ورحلاته بين فنون الثقافة المختلفة . ومن الإجحاف تلخيص حديثه هذا ، فالهدف هو الإغراء والترغيب فى طلب هذا الكنز والانتفاع بفوائده .

ثم يوالى حديثه فى تشخيص الحالة العلمية على العهد النبوى فيتحدث عن تعليم النساء وحق الأبناء على الآباء فى التعليم . . . والتدوين والترجمة . . . وأول من تكلم فى التصوف والفتوى ، والسن الذى يبدأ فيه التعليم ، وعلم الأنساب ، وعلم الفرائض ، وعلم النجوم ، وعلم الحساب ، والرحلة فى طلب العلم ، وآداب طالب العلم . . . إلخ .

وفى المقصد الثانى نجد الشيخ يذكر من الصحابة مَنْ لحقت بهم صفات معينة كالعلم والعدل والهيبة والأمانة والسبق والحلم ، ومن كانت تستحى منهم الملائكة ، ومن كان أحفظهم ، ومن الذى انتهى إليه الجود ، ومن أفرضهم ، ومن كان يقرأ الكتب القديمة ، ومن كان يجيد لغات متعددة . . . إلخ . يقول الشيخ الكنانى : «وهذا يعرفك أن المدينة المنورة كانت فى الزمن الأول مأهولة بصنوف الأعمال واختلاف الأفكار والصفات والأشغال الحياتية التى لا بد منها فى كل مصر اتخذ عاصمة لمدينة عظمى سادت على العالم فى أقرب وقت ، وما وصل إليه ذلك العصر الزاهر من الاختلاف فى الأحوال والاتفاق فى الآمال»^(١) .

بعض آرائه الفقهية :

ولأن الشيخ أبا الإسعاد الكتانى مالكى المذهب شأن أبناء المغرب والأندلس ، فقد أشار إلى سبب انتشار المذهب هناك . فقد تمت البيعة للنفس الزكية (٩٢ - ١٤٥هـ) لما وهنت الدولة الأموية . ويقال إن السفّاح والمنصور كانا ممن بايعاه ، فلما قامت الدولة العباسية ، وطارد العباسيون الشيعة وسُجن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) حتى مات بالسجن ، فرَّ أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى وأقام دولة الأدارسة هناك . فى

(١) التراتيب ، المقدمة ، ص ٧٥ .

هذا الصراع السياسى كان الإمام مالك يرى أن الأسبقية فى البيعة إنما كانت للنفس الزكية وأن بنى العباس اغتصبوها فحفظها له إدريس هذا ، وأوصى باتباع مذهبه وقراءة «الموطأ»^(١) .

وهذه بعض آرائه الفقهية :

أولاً - فى الطب :

(١) كان ﷺ يديم التطب (العلاج) فى حال صحته ومرضه . أما فى حال صحته فباستعمال التدبير الحافظ لها ، من الرياضة وقلة الأكل ، وأكله الرطب بالقش ، وإكحال عينيه بالإثمد ، والإبراد بالصلاة فى الحر . وأما تداويه فى مرضه فكانت تقدم عليه وفود العرب وفيهم الأطباء [فيصفون له فنعالجه كما تقول السيدة عائشة] وأمر بالتداوى^(٢) . «ولما مرض سعد بن أبى وقاص قال له ﷺ : أيت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطب» . وكان الحارث طبيب العرب . وكان كافراً .

وهنا اختلف الفقهاء . قال ابن عبد البر «جائز أن يُشاور أهل الكفر فى الطب إذا كانوا من أهله» . وقال آخرون : لا يجوز التطب بأهل الذمة . وانتصر الشيخ للرأى الأول وساق الأدلة على الاطمئنان للخبر الأمين فى الطب والأدوية والمحاسبة . يقول ابن تيمية : «إذا كان اليهودى أو النصرانى خبيراً بالطب ثقة عدلاً جاز كما يجوز أن تودعه المال»^(٣) .

(٢) عن النساء الممرضات والطبيبات :

ذكر من الصحابييات الربيع بنت معوذ ورفيدة الأسلمية وليلى الغفارية وغيرهن ، فكنَّ يخرجن فى الغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم يسقين الجرحى ويداوينهم . وبناءً على ذلك يجوز معالجة الأجنبية للرجل للضرورة ، بل ذكر أن ابن الزبير لما مرض بمكة استأجر عجزاً لتمرضه فكانت تغمر رجله وتغلى رأسه^(٤) .

(٣) الحجر الصحى : ذكر فيه قول رسول الله ﷺ : «إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها وإذا سمعتم به فى أرض فلا تقدموا عليها» . وأن عمر رضي الله عنه طبق الحديث حين وقع الطاعون بالشام سنة ١٨هـ تقريباً^(٥) .

(١) التراتيب : ٩/١ .

(٢) السابق : ٤٥٥/١ .

(٣) السابق : ٤٦٠/١ .

(٤) السابق : ١١٥/١ .

(٥) السابق : ٤٦٦/١ .

(٤) من لا يعرف الطب لا يحل أن يعالج الناس : وذكر فيه الحديث الشريف «من تطيب ولم يُعلم منه الطبُّ فهو ضامن»^(١) .

وبعدُ : فهذا غيض من فيض كما يقولون ، ينبئك عن هذا العصر الزاهر بنور الحضارة والذي ظلمه الجهال : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾^(٢) وما نقلته عن الشيخ قطرة من بحر ، لا تغنى عن البحر نفسه فجزاه الله خيرا .

ثانيا : فى الغناء

(١) الحديث^(٣) الشريف فى الصحيحين حين دخل أبو بكر رضي الله عنه على السيدة عائشة وعندها جاريتان فى أيام منى يغنيان ويضربان الدف ، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله ﷺ رأسه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد . وفى بعض الطرق ، قال الصديق : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ؟

تأمل فقه العلماء وتأويلهم لحكمة الصديق : رأى رضي الله عنه أن هذا الغناء من جمل المباح . لكن منصب النبوة وتعظيم حضرته ﷺ وشدة الاحتشام منه حمله على التنويه ، فزجر عن ذلك احتراماً لا تحريماً . وكان فى رد رسول الله ﷺ أمران :

أ : ألا يُعتَقَدَ تحريمُ ما أبيع فى شرعه توسعة لأمته ورفقاً بها وتفسحاً فى بعض الأوقات .

ب : إظهار الشارع مكارم الأخلاق ، وسعة الصدر لأهله وأمته فتستريح قلوبهم ببعض المباح فيكون أنشط لهم فى العون إلى وظائف العبادة^(٤) .

(٢) ومما جاء فى الصحيح : «ونكح بعضُ الأنصار بعضَ أهل عائشة . فقال لها رسول الله ﷺ : أهديت عروسك؟ قالت : نعم . قال ﷺ : فأرسلت معها بغناء؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»^(٥) .

(١) التراتيب : ٤٦٦/١ .

(٢) سورة يونس : ٣٩ .

(٣) فتح البارى ، كتاب العيدين ، باب الحراب والدرق يوم العيد ج ٢ ص ٣٦٦ ، صحيح مسلم ، كتاب العيدين ، باب الرخصة فى اللعب .. ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٤) التراتيب : ١٢٦/٢ .

(٥) راجع صحيح البخارى ج ٩ ص ١٩٥ كتاب النكاح .

(٣) روى النسائي عن السائب بن يزيد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال : «يا عائشة تعرفين هذه ؟ قالت : لا يا نبي الله . قال : هذه قينة بنى فلان . تحبين أن تغنيك؟ فغنتها»^(١) .

هذه بعض الأحاديث الشريفة من عشرات الآثار والأخبار وأسماء المصنفات التي ذكرها الشيخ في هذا الباب . ويعجبنا هذا الملمح التربوي الذي التفت إليه . يقول الشيخ الكتاني : وفي هذا إشارة إلى أصل عظيم من أصول التمدن وهو أن تجعل الأمة الألعاب مشحونة بتربيات تمكن القلوب من حب الدين والوطن وترتوي بمكارم الأخلاق . وذلك تعليقا على رأى بعض المشايخ : «وهو أن اللهو الذي يرتكب لإظهار المسرة العيدية ينبغي ألا يكون خالياً عن نحو مصلحة شرعية حتى يخرج ذلك اللعب عن دائرة اللهو الباطل»^(٢) .

ثالثا : من أحكام الحج :

هل يجوز الحج من مال الدولة (مال الله) زكاة وغيرها؟

قال مالك : بلغني أن عمر بن الخطاب اتخذ إبلاً من مال الله يعطيها الناس يحجون عليها فإذا رجعوا ردها إليه . قال ابن رشد : هذا من النظر الصحيح في مال الله ، لأن أولى ما صرف فيه مال الله ما يستعان به على أداء فرائض الله . فينبغي للأئمة أن يتأسوا به في ذلك»^(٣) .

مأخذ الشيخ الكتاني على سلفه الخزاعي وغيره :-

كانت موسوعة «التراتب» معرضاً فسيحاً للنقد والاعتراض على الخزاعي وغيره . وهذه لفقات منها تكشف عن وعي الإمام أبي الإسعاد وغيرته أحيانا وعتابه من لم ير رأيه :-

١ - انتقد ابن خلدون حيث يقول :

أ - « وقد وقعت لبعض الأعلام فلتات إن لم نقل : سقطات وهفوات ، حتى إن الولي ابن خلدون قال في مقدمة «العبر» في مواضع : إن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة ، وإنما هي أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال يتناقلونها في صدورهم . . . والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم

(١) طلبته عند النسائي فلم أجده وإنما الذي خرج أحمد في مسنده رقم ١٥٦٦٠ من مسند السائب وفيه : تحبين أن تغنيك؟ قالت : نعم . قال : فأعطاها طبقاً فغنتها . فقال النبي ﷺ : قد نفخ الشيطان في منخريها .

(٢) التراتيب : ١٢٥/٢ .

(٣) السابق : ٥٣٩/١ .

والتأليف والتدوين»^(١). فرد الشيخ الكتانى قائلاً: «ولكن من واصل ليله بنهاره واطلع وطلع بالدقة وحسن الروية يجد أن المدنية وأسباب الرقى الحقيقي التى وصل إليها العصر النبوى الإسلامى فى عشر سنوات من حيث العلم والكتابة والتربية وقوة الجامعة وعظيم الاتحاد وتنشئة الناشئة، وما قدر عليه رجال ذلك العهد وما أتوه من الأعمال وما استولوا عليه من الممالك وما بثوا من حسن الدعوة وبليغ الموعظة، لم تبلغها أمة من الأمم ولا دولة من الدول فى مئات السنين» ثم قارن الكتانى بين الدولة الإسلامية الناشئة وبين دولتى الروم والفرس «اللتين سقطتا فى بؤر الفساد والتحلل والفتن»^(٢).

ب - وفى لفظة علمية صحح لابن خلدون ما ذكره من أن يوسف بن تاشفين (٤١٠ - ٥٠٠هـ) سلطان المغرب الأقصى وصاحب الانتصارات على الفرنجة فى الأندلس أوفد على المستظهر العباسى أبى العباس أحمد بن عبد الله (٤٧٠ - ٥١٢هـ) الخليفة العباسى، أوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربى وولده القاضى أبا بكر محمد بن عبد الله العربى (٤٦٨ - ٥٤٣هـ) فقال الشيخ الكتانى:

هذا الكلام «منقوض لأن ابن العربى ووالده ذهبا للمشرق فراراً من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد (٤٣١ - ٤٨٨هـ) بدليل أن عبد الله بقى بالمشرق متجولاً إلى أن مات هناك إجماعاً. وولده أبو بكر بقى بعده ورجع لبلده (أشبيلية) لا إلى مراکش. واعتقلت أحوالهما إلى أن رجع أبو بكر فتشفع فيه الحافظ أبو على الصدفى»^(٣).

٢ - وانتقد ابن إياس محمد بن أحمد أبا البركات (٨٥٢ - ٩٣٠هـ) حين قال فى تاريخه: إن الخليفة المتوكل على الله (عبد العزيز بن يعقوب بن خلفاء الدولة العباسية بمصر ٨١٩ - ٩٠٣هـ) عهد للشيخ جلال الدين السيوطى (٨٤٦ - ٩١١هـ) بوظيفة لم يسمع بها قط، فقد جعله على القضاة قاضياً كبيراً يولى من يشاء ويعزل من يشاء... إلخ.

فذكره بأن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم أشهر تلامذة أبى حنيفة ١١٣ - ١٨٢هـ) ولى القضاء لثلاثة خلفاء من بنى العباس: المهدي والهادي والرشيدي، وكان إليه تولية القضاء بالمشرق والمغرب، وأنه أول من خطب بقاضى القضاة. وكذلك قيل لابن أبى دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ) قاضى القضاة أيام المعتصم^(٤).

(١) مقدمة الترايب، ص ١١.

(٢) السابق، ص ١١.

(٣) الترايب: ١٣/١.

(٤) السابق ٢٦٢/١.

٣ - ونقده لشهاب الدين المرجاني (١٢٣٣ - ١٣٠٦) المؤرخ حين ذكر في كتابه «وفية الأسلاف وتحية الأَخلاف» أن ديوان المظالم كان يباشر المظالم فيها الخلفاء بأنفسهم إلى أيام المهتدى بالله ، وربما سلموها إلى قضاتهم . فرد عليه الشيخ قائلاً :

هذه الوظيفة كان يليها المصطفى ﷺ بنفسه لأنه كان ينتقد أحكام قضاته وعماله ويناقشهم . ولما تكلم النويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ - ٧٣٣هـ) صاحب «نهاية الأرب» على ولاية المظالم قال : نظر رسول الله ﷺ في المظالم في السَّرب الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار في شراج (جمع شَرَج بالفتح وهو مسيل الماء من الحرَّة إلى السهل) . (وقد أشار القرطبي إلى هذه القصة عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(١) فحضره رسول الله ﷺ ^(٢) .

٤ - وفي نقده للقسطلاني أحمد بن محمد (٥٨١ - ٩٢٣) أثناء حديث الكتاني عن مصادره في مقدمة «التراتيب» قال : والمواهب اللدنية للشهاب القسطلاني وهو كتاب جامع مسبوك تداولته الأيدي وخدمه الناس . ومن الغريب أننا نجد نصفه مأخوذاً من «فتح الباري» بعزو وغيره كما نبه على ذلك شارحه الزرقاني ، كما قال قبل ذلك : «إن المصنف اقتبس من الشفا (للقاضي عياض) في غالب التقاسيم والأبواب حتى إنه اقتفى أثره في صدر الخطبة ^(٣) .

٥ - ومن نقده لسلفه أبي الحسن الخزاعي نكتفى أيضاً بهذه النماذج :

(أ) «وقد زُيِّن له رحمه الله التوسع في المواد اللغوية . وتعتمد كثيراً من الاستطرادات والمتشابهات ، ومهما وقع له ذكر صحابي إلا وبسط ترجمته ونسبه مقلداً صاحب «الاستيعاب» ، مستوعباً ما عنده في ذلك الصحابي» ^(٤) .

(ب) ومع أن موضوع كتابه العمالات والصناعات التي وجدت في زمانه ﷺ إلا أنه يأتي بذكر ما حدث بعده على عهد الخلفاء الراشدين . أقول : وقد أشرت إلى ذلك عند الخزاعي فيما سبق ، وقد حدث نفس الشيء مع الكتاني مع أنه نقد الخزاعي في ذلك . ويمكن الرجوع إلى المظالم والمغنيين وغيرها عند الكتاني لنجد أنه استطرد أيضاً في هذا .

(١) سورة النساء : ٦٥ .

(٢) التراتيب : ٢٦٦/١ ، وراجع كذلك نيل الأوطار للشوكاني ٢٧٢/٨ كتاب الأقضية والأحكام .

(٣) مقدمة التراتيب ، ص ٢٣ .

(٤) السابق ، ص ٤٥ .

(ج) كثير من التخاريج التي ذكرها إما تستند إلى ضعيف الأخبار أو متكلف الاستنتاج ويظهر أن الشيخ الخزاعي لم يكن عظيم المزاولة للصناعة الحديثية ، فلذلك تراه يُصدّر الأحاديث غالباً بلفظ «روى» وقد يستعمله حتى في أحاديث الصحيحين مع أن «روى» إنما تستعمل في الأحاديث الضعيفة كما ذكر أئمة التخريج^(١) .

(د) «لاحظت عليه أنه يعزو الحديث لمسلم وهو في البخاري . والقاعدة عندهم أنه لا يقدم أحد على البخاري»^(٢) .

وعاب عليه جداً أنه حين ذكر حديث «تهادوا تحابوا» في المقدمة وقف بتخريجه عند محمد بن سلامة القضاعي (-٤٥٤هـ) في كتابه «الشهاب» فقال : «وهذا عجيبٌ صدوره من مالكي مُحدّث . فأما مالكي فلأن الحديث في الموطأ لإمامه مالك بن أنس : باب ما جاء في المهاجرة . الخ . وأما مُحدّث : فلأن البخاري خرّجه في الأدب المفرد . وأبا يعلى والنسائي في الكنى . وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن . . . وحديث مخرج في كثير من السنن والمعاجم كيف يعزوه للقضاعي في الشهاب»^(٣) .

(هـ) وفي مجال المآخذ الحديثية قال الشيخ الكتاني في ٤٢/١ :

ذكر الخزاعي حديث معاوية : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» مقتصراً عزوه لمسلم مع أنه في البخاري . وهذا معيب منه رحمه الله لما تقرر أن الحديث إذا كان في البخاري لا يعزى لغيره . وهناك انتقادات أخرى في هذا الفن نكتفي فيها بما دوناه .

(و) أخذ عليه أيضاً أنه أهمل ترجمه «مارية» خادمة رسول الله ﷺ ، مع أن الاستيعاب ترجم لها فقال : وكانت تكنى أم الرباب . حديثها عند أهل البصرة «أنها تطأطأت للنبي ﷺ حتى صعد حائطاً ليلة فرّ من المشركين . وترجمها أيضاً في «الإصابة» . والعجب من الخزاعي كيف أهمل هذه الترجمة مع أن «الاستيعاب» كان بيده وهو معظم مادته . والكمال لله»^(٤) .

(١) مقدمة التراتيب : ٤٥ .

(٢) السابق ٤٦ .

(٣) السابق .

(٤) التراتيب : ٣٥٠/١ .

(ز) عند حديث الشيخ الكتاني عن الزراعة والغرس قال :

«لَمْ أَغفل هذه الترجمة الخزاعيُّ مع أهمية الزراعة في نظر الإسلام وكثرة اعتناء الصحابة بها ، وفيض الآيات القرآنية حول الزرع والنبات والغرس تذكرة بنعم الله سبحانه ، وقد أكثر سبحانه في كثير من الآيات التذكير بما أنعم به من إخراج الزرع والنبات ... إلخ»^(١) . ونكتفي أيضا بهذا القدر في نقد الخزاعي .

لكنَّ الشيخ الكتانيُّ وهو يتحدث عن المُدَّ والصاع وغيرهما من أسماء المكايل أيام رسول الله ﷺ قال كلمة إنصاف في حق أبي الحسن الخزاعي :

«كما أن كلمة الإنصاف أن مباحث المكايل والأوزان والدرهم والدينار من كتاب الخزاعي هنا لم أر أوعب منها ولا أجمع فيما رأيت ممن كتب في المسألة من أهل الشرق والغرب بحيث لو لم يشتمل كتابه إلا عليها لكان جديراً بالاعتبار»^(٢) .

والآن

(١) مع العاصمة الإسلامية الأولى وهي تتكون في شهورها الأولى .

(٢) ثم ملاحظات عابرة حول مصنف الشيخ الكتاني وبه يُختتم البحث .

أولا : وصف المدينة قبل الهجرة .

(أ) من حيث الموقع والمساحة : تشغل المدينة مساحة واسعة تمتد من جبل أحد شمالا إلى جبل عير جنوباً ، ويبلغ طولها اثني عشر ميلا في عشرة أميال ويخترقها من الشمال الغربي إلى الجنوبي الشرقي وادي بطحان ثم يجتمع في وادي العقيق^(٣) . وهي واحات متفرقة في سهل فسيح يطلق عليه سهل المدينة . وكلمة «المدينة» معربة عن السريانية أي مساحة واسعة يسكنها قوم تجمعهم ظروف ومصالح مشتركة . في هذا السهل الذي يقوم على جانبيه مرتفعان من البازلت الأسود يسميان الحرتين أو اللابتين تتناثر واحات أو قرى صغيرة - منها قباء والسنح وراتج .

(ب) ومن حيث السكان : كانت قبائل الأوس والخزرج والمجموعات اليهودية الكبيرة تسكن واحات خاصة بها^(٤) ، وكان بالمدينة عند الهجرة ثمان وسبعون حصنا (أطام)

(١) التراتيب : ٤٠/٢ .

(٢) السابق : ٢٣٨/١ .

(٣) صالح أحمد العلي : الدولة في عصر الرسول ﷺ المجلد الأول تكوين الدولة وتنظيمها . بغداد : المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٨ ، ص ٢١ .

(٤) حسين مؤنس : دراسات في السيرة ، ص ٤٩ .

تستعمل للمراقبة والحماية^(١) وهناك المزارع والمراعى حيث منازل القبيلة أو حماها فقد كانت المزارع منتشرة تروى بالمياه التى تجرى فى الوديان أو من الآبار . فالنشاط الرئيسى هو الزراعة أو بعض الصناعات البيتية كالغزل والنسيج فى البيوت ، وماتخصص فيه اليهود من صناعة الذهب وتجارته وبعض الصناعات الأخرى . . ولم يكن التماسك العشائرى قويا . . وللمرأة مكانة مستقلة ، ولعل فى كلمة سيدنا عمر ما يوضح هذا : «كنا معشر قريش نغلب النساء . فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار»^(٢) . وكان هناك بعض الشخصيات من ذوى المكانة والنفوذ ومنهم النقباء الاثنا عشر . ولا تشير الأخبار إلى مؤسسات سياسية كدار الندوة فى مكة أو نواد . نظراً لسعة رقعة المدينة ، ثم اشتغالهم بالزراعة . مع كثرة المصادمات والمشاحنات مما أفقدهم الأمن أو مركزية السلطة ، وكذلك اصطدام المصالح وكان لليهود دور كبير فى إشعال هذه الفتن والحروب .

(جـ) ومن الناحية الثقافية : لم تكن القراءة والكتابة منتشرة فى المدينة باستثناء أفراد مثل أبيّ بن كعب ، وعبد الله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، ممن كان يُطلق عليهم «الكلمة» وهم الذين يحسنون الكتابة والرمى والعموم . وكان أهل المدينة شأن غيرهم عبدة أصنام وكانوا يحجون إلى مكة بشعائر خاصة . . وتشير المصادر إلى أن أبا الهيثم وصرمة بن أبي أنس وأسعد بن زرارة كانوا يكرهون الأصنام ومنهم من ترهب ولبس المسوح . ثم هناك إلى جانب هؤلاء وأولئك جالية اليهود ، ولاشك أنه كان لهم أثر متناثر من عقيدتهم^(٣) .

ويشير ياقوت فى «معجم البلدان» إلى أمر لم أقرأه عند غيره . يقول : وكان على المدينة وتهامة فى الجاهلية عامل من قبل مرزبان الزاره (قرية بالبحرين) يجبى خراجها^(٤) .

ولابد من الإشارة إلى ما يحيط بالمدينة من قبائل الأعراب ، وكان أهل المدينة يشترون منهم بعض المنسوجات والسلع كالصوف واللبن المجفف ويبيعونهم التمور والشعير .

هذا باختصار حال المدينة سكناً وأمناً وثقافة واقتصاداً واعتقاداً قبل هجرة الرسول ﷺ ، وإن كان محمد عمارة قد ذهب فى حديثه عن سيطرة اليهود إلى أبعد من ذلك

(١) الدولة فى عصر الرسول ﷺ ، ص ٢٢ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٤٥/٩ كتاب النكاح .

(٣) الدولة فى عصر الرسول ﷺ ، ص ٣٠ . ويذكر الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : «أن الأوس والخزرج لما نزلوا المدينة وجدوا اليهود مستوطنين بها فحالفوهم . وكانوا تحت قهرهم . ثم غلبوا على اليهود . . فتح البارى ٣٦٧/٢ .

(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٨٢/٦ دار بيروت للطباعة .

حيث قال : «أما يثرب وواحاتها الزراعية فإنها كانت قد خضعت لما يشبه السيطرة العبرانية منذ أن زحفت إليها هجرات اليهود فى القرن الأول بعد الميلاد عقب تدمير دولتهم على يد الرومان فاستعمروا تيماء وخيبر ويثرب وفدك ، واجتذبوا أجزاء من قبائل يثرب إلى ديارهم وتكلموا العربية ولكنهم ظلوا بمعزل . . . واستمرت لهم سيطرة السادة على العرب الذين كانوا موالى لهم » ثم أشار إلى لقاء الرهط الخزرجى برسول الله ﷺ عند العقبة . وسألهم ﷺ «أمن موالى يهود؟ قالوا : نعم»^(١) ويقول ياقوت فى إشارة سريعة : « وكانت قريظة والنضير اليهود ملوكا حتى أخرجهم منها الأوس والخزرج . وكانت الأنصار قبل تؤدى خراجاً إلى اليهود»^(٢) .

ثانيا : المدينة دار الهجرة وعاصمة الإسلام

١ - بيعة العقبة :

أول لقاء بين رسول الله ﷺ وأهل المدينة بمكة كان عندما قدم مكة نفر للحج^(٣) فاتصل الرسول بستة منهم ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا . وكان هؤلاء الستة من ذوى المكانة فى قومهم ومن عدة عشائر . وحين قدم هؤلاء إلى المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم الإسلام .

وفى السنة التالية قدم مكة اثنا عشر فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء «ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان ولا نعصى فى معروف» . هذه البيعة وما سبقها إنما هى على التوحيد وبعض الأحكام الخلقية . . .

وطلب المبايعون أن يرسل معهم الرسول ﷺ رجلاً يفقههم فى الدين ، فأرسل ﷺ مصعب بن عمير (يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين) .

ثم كانت البيعة التالية حين قدم من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان^(٤) . وهذه البيعة هى أول مظهر سياسى فى الإسلام وأول أساس لشرعية الحاكم . وإن كانت شرعية الرسول ﷺ مستمدة من الله سبحانه .

(١) محمد عمارة : الخلافة ، ص ٥٤ ، كتاب الهلال .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٨٣/٥ .

(٣) وإن كان ابن حجر قد ذكر أن هذا نفر قدم مكة ليحالفوا قريشاً . . الفتح ٣٦٧/٢ .

(٤) «المرأتان هما : أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم أسماء بنت عمرو» . سيرة ابن هشام ، المجلد الأول ، ص ٣٠٢ .

تمر كلمة «البيعة» فلا يلتفت إليها أحد من علماء السياسة والحكم إلا إذا كانت عند السقيفة أو ما تلاهما ، ولا يقفون عند مبايعة الرسول ﷺ لهؤلاء القوم . وقد تكررت البيعة ولكنها تطورت .

والبيعة كما نعلم : عقد يمنح السلطة أو التفويض في أمر عام أو خاص . وبيعة العقبة الثانية لا ترجع أهميتها إلى تثبيت الإسلام وتوسيعه ونشره في المدينة ، فهذا الأمر قد استقر قبلها إنما ترجع أهميتها إلى الآتى :

١ - تنظيم علاقة الرسول بمسلمى المدينة على أسس قانونية واضحة .

٢ - أنها تعبير عن العزم الذى أبداه أهل المدينة على حماية مسلمى مكة .

٣ - أنها تجاوزت الجوانب الأخلاقية فى البيعة الأولى حيث جاء فى الثانية هذه قوله ﷺ : «تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر» «وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم» وفى رواية أخرى : «أن تنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم» . ولما سئل جابر بن عبد الله : كيف بايعتم رسول الله ﷺ ؟ قال : بايعناه على ألا نفر . هذه مبايعة تؤكد على الجانب السياسى والحربى معاً . فأما الجانب الحربى فهو ما جاء فيها من الحديث عن المنع والنصر وعدم الفرار . وأما الجانب السياسى فقد اهتموا بتأمين مصالحهم ، فقد قال أبو الهيثم بن التيهان يارسول الله ﷺ إن بيننا وبين الرجال - اليهود - حبلاً وأنا قاطعوها فهل عسيّت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . فابتسم رسول الله ﷺ وقال^(١) : «بل الدم الدم والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»^(٢) وهى معاهدة قد تجرهم إلى حرب الأسود والأبيض وبذلك ضمنت بيعة العقبة قاعدة جديدة فى مجتمع يفتقد السلطة المركزية والتنظيم السياسى والمسئول الذى يجمع شملها وينظم أمورها .^(٣)

(١) سيرة ابن هشام ، ص ٣٠٣ .

(٢) بل الدم الدم يعنى : إنكم تطلبون بدمى وأطلب بدمكم ، دمي ودمكم شيء واحد . والهدم الهدم : إن كانت بفتح الدال فهو القبر أى أقبر حيث تقبرون وقيل : «الهدم هو المنزل أى : منزلى منزلكم» كقوله ﷺ فى حديثه الآخر : المحيا محياكم والممات مماتكم ، أى لا أفارقكم . وإن كانت بسكون الدال وبالفتح أيضاً فمعناه : إهدار دم القتيلى ، ومعناه : إن أهدر دمكم فقد أهدر دمي لاستحكام الألفة بيننا . وهو قول معروف للعرب يقولون : دمي دمك وهدمي هدمك وذلك عند المعاهدة والمناصرة . راجع «النهاية فى غريب الحديث والأثر» لابن الأثير ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، دار إحياء الكتب العربية .

(٣) الدولة فى عهد الرسول ، ٧٢/١ .

ثم كان تعيين النقباء الإثنى عشر : ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج أول إشارة إلى التنظيم بعد أن طلب الرسول ﷺ أن يختاروا من يشاءون . «وأراد رسول الله ﷺ بذلك أن تكون إلى جانبه هيئة مختارة من شيوخ المدينة تشاركه في كل ما يستجد .»^(١)

أين الشيخان الكتاني والخزاعي في أمر البيعة وتعيين النقباء وهما متضامنان معاً؟ أشارا عَرَضاً إلى بيعة العقبة الأولى في سياق الحديث عمن بعثه رسول الله ﷺ إلى الجهات يعلم الناس القرآن الخ . . فقد جاء عند الخزاعي «ومنها - أي المعلمون أو القراء - مصعب ابن عمير عند انصراف النبي ﷺ من القوم الذين بايعوه في العقبة الأولى وهم اثنا عشر . . . إلخ .» . وعند الكتاني : بعثه رسول الله ﷺ مع الاثنى عشر أهل العقبة الثانية^(٢) . ونلاحظ أن الخزاعي جعلها الأولى وجعلها الكتاني الثانية .

وأما النقباء فلم يأت لهم ذكر عند الخزاعي وجاء عند الكتاني بعنوان : باب في النقباء ثم قال : لما مات أسعد بن زرارة جاء بنو النجار إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ، مات نقيبنا فنقّب علينا قال : أنا نقيبكم . لكنها في ذكر العرفاء ربما جاء توضيح ما ذكره عن العرفاء شيئاً عن دور النقباء حيث جاء فيه : العريف : القيم بأمور القبيلة والجماعة من الناس يلي أمورهم ويعرف الأمير أحوالهم منه . وهذا التعريف يوضحه الموقف التالي : حين جاء وفد هوازن مسلمين يسألون رسول الله ﷺ أن يرد إليهم أموالهم وسببهم ، فأحب رسول الله ﷺ أن يرد إليه السبى دون المال فخطب في الناس لأجل ذلك ، فقال الناس : قد رضينا ذلك فقال لهم رسول الله ﷺ : إنا لاندري من أذن لكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلّمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه برضاهم . فأصل نصبهم هو أن المصلحة تقتضي ذلك لما يحتاج إليه الأمير من المعاونة على ما يتعاطاه بنفسه وتحمل الكبار بالصغار والرؤساء بالمرءوسين في الحروب والضمانات وسائر المعاملات»^(٣) .

٢ - الرسول ﷺ في المدينة

فإذا ما وصلنا إلى المدينة المنورة نجد أنه ﷺ اهتم بتنظيم الزراعة بها وتعبيد الطرق وغرس الأشجار وإقطاع الأرض لاستصلاحها وإقرار الأعراب حولها مما أشرنا إليه في بداية

(١) حسين مؤنس : دراسات في السيرة، ص ٦٦ .

(٢) التراتيب ٤٢/٢ .

(٣) السابق ٢٣٦/١ .

هذا البحث . وكان علاجه للمجتمع شاملاً في جانبه الاقتصادي أو جانبه الإداري . ولم تكن المهمة سهلة إذا تذكرنا الروح القبلية والاعتداد بالفردية التي تأبى الخضوع لأي سلطة لكن خلقه الكريم ﷺ في التسامح والإيثار والحب وقوة شخصيته عزز مكانته وثبت سلطانه على القلوب .

وحيث نتكلم عن الإدارة لايعنى ذلك أجهزة ومؤسسات ومجالس استشارية ، إنما نعنى إدارته ﷺ لدولاب العمل والأخذ بمبدأ الشورى وتعيين الولاة وأمراء الجند والاهتمام بالتعليم والصحة . ولعل من بواكير هذا التنظيم الإداري والسياسي معاً ما جاء في الصحيفة التي أصدرها ﷺ في السنة الثانية للهجرة^(١) . ونشير إلى خطوطها العريضة التي تؤكد النبوة والسلطة معاً في شخصية ﷺ وكيف أنه أصبح سيد المدينة ، تصدر القرارات باسمه ، وتجب طاعة الجميع له ، بعد أن نتحدث عن الهجرة في جانبها السياسي .

كان الهدف من بيعة العقبة إيجاد قاعدة آمنة توفر للمسلمين حرية العقيدة وتوفير الجماعة الآمنة لمن يلجأ إليها . وكان من شروط البيعة لمن يسلم هو أن يهاجر إلى المدينة . يتضح ذلك من حث القرآن الكريم على الهجرة وخاصة آخر الأنفال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾^(٢) .

وهذا الشرط كان ضرورياً وذا أهمية كبيرة في حياة الدولة المسلمة عندما كان عدد المسلمين قليلاً وكانوا مهددين بالأخطار . فكان لابد من استدعاء كل من أسلم لتوطين المدينة وليكونوا أقرب إلى الرسول ﷺ ويستطيعوا الاستجابة السريعة لما تقتضيه الظروف . كما أن السكن في المدينة مع الرسول ﷺ ومع المسلمين يعين على تفهيم المسلمين الجدد مبادئ الإسلام ومتطلباته وقد ظل هذا الشرط موجوداً إلى أن فتحت مكة^(٣) .

ترتب على هذا الشرط - وهو استيطان المدينة للمسلمين الجدد - مشكلات صحية واقتصادية واجتماعية . وقام ﷺ بدوره العظيم وهو يستقبل اللاجئين والفارين بدينهم من

(١) نص الصحيفة عند ابن هشام ، ٢/٢٤٨ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، وراجع : صالح العلي : الدولة في عهد الرسول ﷺ ، ١٠٤/١ .

(٢) الأنفال ، آية ٧٢ .

(٣) صالح العلي : الدولة في عهد الرسول ، ٧٥/١ .

شتى البقاع . لقد تصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة بحمى الملاريا فأصاب المرض بعض الصحابة . واستوخم البعض جو الهجرة الجديد وأخذت تستيقظ فى نفوسهم غرائز الحنين إلى الوطن المفقود . وهكذا واجهت النبىء العظيم ﷺ شدائد المشكلات بالإضافة إلى توفير العمل والمسكن . كان هو المثل الأعلى أمامهم . ثم أخذ يصبرهم على احتمال الشدائد . ويطالبهم بالمزيد من الجهد والتضحية ، ويعد بالخير لمن يصبر على لأواء المدينة وشدتها ، ويدعو الله سبحانه أن يحبب إليهم المدينة وأن يبارك لهم فى طعامها . حتى ارتفع الروح المعنوى بهذا التشويق والإقبال ، واتجهت القوى الفتية إلى البناء^(١) . وأما الجانب الاجتماعى فتشير إليه آية الممتحنة ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾^(٢) .

وأما مشكلة المعيشة والسكن فقد أتيح لبعضهم أن يتاجر كما حدث مع عبد الرحمن ابن عوف وغيره ، ونزل بعضهم ضيفا على الأنصار ، واتخذ بعضهم المسجد مسكنا . على كل لم تكن إعالة المهاجرين تمثل عبئا كبيرا نظراً لانخفاض مستوى المعيشة والقناعة بما تيسر حتى لو كان التمر والماء ، إلى أن أقطع الرسول ﷺ الأراضى التى لا ملكية لها (خط - ﷺ) - لأصحابه فى كل أرض ليست لأحد وفيما وهبت له الأنصار من خطتها^(٣) .

شغل رسول الله ﷺ أول مستقره بالمدينة بوضع الدعائم التى لا بد منها لقيام رسالته فى المعالم الآتية :

١ - صلة الأمة بالله .

٢ - صلة الأمة ببعضها ببعض .

٣ - صلة الأمة بالآخرين .

أمة الإسلام ليست كأي أمة . إن المسلمين أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله وتوضح نظرتهم للحياة ، وتنظم شئونهم . وتنتهى بعلاقتهم بالآخرين إلى غايات معينة . يستضيئون بالوحي ويقتدون بإمامهم وسيدهم ﷺ ليحققوا الحكمة العليا التى من أجلها خلق الناس وقامت الحياة .

(١) محمد الغزالي : فقه السيرة ، ص ١٣٣ .

(٢) الممتحنة : آية ١٠ .

(٣) صالح العلى : الدولة فى عهد الرسول ﷺ ، ص ٨٥ .

تتحقق صلتهم بالله أول ما تتحقق في المسجد^(١) فكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ هو بناء المسجد في صورة بسيطة . فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد وأعمدته الجذوع . هذا البناء المتواضع الساذج هو الذي ربي ملائكة البشر ومؤدبي الجبابرة وملوك الدار الآخرة . إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادى فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم ومنتدى للأدب .

ليس المسجد مساحة تحتكر الصلاة ، فالأرض كلها مسجد ، إنما هو رمز لما يهتم له الإسلام ويتشبه به . إنه وَصِّلَ العبادَ برَبِّهم وصلًا يتجدد مع الزمن ويتكرر آناء الليل وأطراف النهار . فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد وتجهل اليوم الآخر وتخلط المعروف بالمنكر^(٢) .

والعجيب أن للصلاة دورها في تحديد الأولياء من الأعداء . يقول الحق سبحانه : ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾^(٣) . ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾^(٤) .

وعن صلاة الجنائز يقول الحق سبحانه لرسول الله ﷺ : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(٥) .

وأما المعلم الثانى وهو صلة الأمة ببعضها ببعض ، فقد أقامه ﷺ على الإخاء الكامل الذى تمحى فيه الأثرة وتذوب فيه عصبية الجاهلية وتسقط فوارق النسب واللون والوطن فلاحمية إلا للإسلام . وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا وعملاً يرتبط بالدماء والأموال . وقد حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين حتى إن المهاجر لم يكن ينزل على الأنصارى إلا بالقرعة . وظل عقد الأخوة مقدمًا على حق القرابة زمانًا^(٦) . وأما العلاقة بين المسلمين وغيرهم ففي نصوص « الصحيفة » أو دستور المدينة بيان شاف فلتأمل معالمها الرئيسية : -

(١) فقه السيرة ، ص ١٣٥ .

(٢) السابق : ١٣٦ .

(٣) التوبة : آية رقم ٥ .

(٤) التوبة : آية رقم ١١ .

(٥) التوبة : آية رقم ٨٤ .

(٦) فقه السيرة ، ص ١٣٨ .

فى بدايتها كما رواها ابن اسحاق فى سيرة ابن هشام^(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يَفِدُون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

والنص هنا يوضح :

(١) أن الرسول ﷺ بحكم النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة صار هو الرئيس المسئول . باسمه تصدر الوثائق والأوامر والمعاهدات^(٢) .

(٢) وأن المسلمين أمة واحدة من دون الناس يرتبطون برابطة العقيدة وليس على أساس الدم أو الجنس أو اللون . دماؤهم واحدة ويجير عليهم أدناهم .

وأنهم مسئولون فى تحمل الديات وفك الأسرى (أنهم لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل) والمفْرَحُ : المثل بالدين كثير العيال^(٣) . وأن ولاءهم واحد ودماؤهم متكافئة ولا يجوز لمؤمن أن يوالى مولى مؤمن دونه . وأن بقية العشائر من بنى عوف وبنى الحارث ومن إليهم عليه حمايةٌ ضعيفهم وفك أسراهم وتحمل دية قتلاهم .

(٣) الأمن مسئولية الجميع : «إن المؤمنين المتقين على من بغى أو ابتغى ظلماً أو عدواناً أو فساداً ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم» فيجب اشتراك الجميع فى صيانة الأمن ومطاردة المفسدين والامتناع عن حماية المجرمين : لا يحل لمؤمن أقرُّ بما فى هذه الصحيفة وأمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً (مجرماً) أو يؤويه . فمن نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه .

(٤) القضاء والعدالة : تظهر الوثيقة اهتمام الرسول ﷺ بأمر العدالة وتنظيم القضاء وقد نص القرآن الكريم على جعل القضاء بيد الرسول ﷺ . يقول سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام ٣٤٨/٢ .

(٢) محمد أبو زهرة : خاتم النبیین ، دار الفكر العربى ، ٢٠ / ٣٤ .

(٣) ابن هشام . السابق .

(٤) النساء : آية ٦٥ .

وجاء النص فى الصحيفة على :

- ١ - إنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .
 - ٢ - ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فسادة فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ ^(١) .
- والنص السابق يُدخل اليهود ومن كان على دين الشرك . وإن كان لليهود وضع آخر إلى جانب هذا . فإذا كان الأمر يتعلق بالنظام العام فى حرمة الدماء والأموال وما إليها فإنهم يخضعون لما فى هذه الوثيقة ، وأما ما يتعلق بشئونهم الخاصة فهم أحرار . وللرسول ﷺ إذا احتكموا إليه فى شئونهم الخاصة أن يحكم أو يُعرض .
- (٥) حرية العقيدة : وأن جميع قبائل اليهود أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . ولليهود النصر والأسوة مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه .

(٦) وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . واليهود والمسلمون عليهم ما يأتى :

- أ - واجب الدفاع عن الوطن إذا هوجم (وإن بينهم النصر على من دهم يشرب) .
- ب - لا يجوز إطلاقاً جوار واحدٍ من قريش أو حمايته أو حماية ماله ولا يحول دونه على مؤمن .

ج - لا يجوز الاقتتال بانتهاك حرمة يشرب (فيشرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة) .

د - تعاون الجميع على الدفاع عن المظلوم ونصرته ، وأن النصر واجب إذا حارب أهل هذه الصحيفة وأن على اليهود النفقة مع المسلمين ما داموا محاربين .

هـ - لا يجوز لأحد من اليهود أن يخرج من المدينة إلا بإذن من رسول الله ﷺ .

هكذا نظمت الصحيفة أول مجتمع خليط من ديانات مختلفة يجمعهم ولاء واحد للوطن وللقائد . ماذا تسمى هذا؟ أليست هذه دولة؟ وأليس رسول الله ﷺ حاكماً عليه مسئولية تنظيم الأمن والعقيدة والتعاون ونصرة المظلوم وشئون الحرب والسلام والتقاضى؟ وهكذا اختلف الدين واتحد الولاء واتحدت القيادة واتحد العدو . ولذلك فإن الوثيقة نصت على أنه لا يصح أن يتعاون اليهود مع أعداء محمد ﷺ وأن عليهم أن ينصروا المسلمين ويشاركوا معهم فى الدفاع عن المدينة وفى الاتفاق أثناء الحرب ، ولا يجوز أن يسالموا العدو أو يؤووه . وأخيراً إلى جانب المسئولية الجماعية هناك المسئولية الفردية ، تقول الوثيقة :

(١) ابن هشام ٢/٣٥٠ ، صالح العلى ١/١٠٦ .

«لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن هذه الصحيفة لا تحمى ظالماً أو أثماً . من خرج فهو آمن ومن قعد فهو آمن إلا من ظلم وأثم» ^(١) .

عند هذا المدى الزمني في بداية الرحلة النبوية المطهرة لإقامة الدولة يتوقف الحديث دون التجول في دواوينها وشهود جهادها وعظمة رجالها رهبان الليل وفوارس النهار .
ثم نختم بحثنا بملاحظات عن التراتيب للشيخ الكتاني .

ملاحظات على الشيخ الكتاني

أول ما يضافحك من هذا الشيخ الجليل وأنت تصحبه في رحلته هذا الخلق النبيل : عفة في اللسان وعدوبة في القول ورقة في القلب وتوقيراً لأقدار الرجال . لا يتحدث عن عالم إلا أضفى عليه من التكريم والثناء ما ينبئ عن طيب العنصر وكرم الأرومة . وربما أعان الشيخ على هذا الخلق الزكي هوّى صوفى تسلل إلى الوجدان . وهو يذكرنا في ذلك بشيخه أبي حامد محمد بن محمد الغزالي . . ثم رقد هذا الخلق تبهر في العلم فجمع الله له بين الحسنين . ولم يقف تبهره على فن واحد بل ضرب في كل الدروب وأخذ من كل العلوم فكان عالماً محققاً فقيها محدثاً . . حتى إذا ما نزع استحالت غرباً ^(٢) فروى وأثبت . أخلص في الذود فتفجرت ينباع .

ولأنه عالم محقق فإن الهفوات عنده سقطات .

أولاً : كيف يا شيخنا الجليل وأنت الناقد البصير تحتفى بأثر هالك لا يسُيغه عقل ولا يجيزه محقق ؟

في ٤٢/٢ تراتيب : « وفي ترجمة سعد بن معاذ الأنصاري من الإصابة روى الخطيب في المتفق بإسناد واهٍ وأبو موسى في الذيل بإسناد مجهول عن الحسن عن أنس أن النبي ﷺ لما رجع استقبله سعد بن معاذ الأنصاري فقال : ما هذا الذي أرى بيدك فقال أثر المسحاة أضرب وأنفق على عيالي . فقَبَّل النبي ﷺ يده وقال : «هذه يد لا تمسها النار» ٤٢/٢ وبالرجوع إلى الإصابه ٨٦/٣ رأيت العسقلاني يسوق الخبر الهالك في ترجمة من يسمى سعد بن معاذ الأنصاري آخر . وفيه : رجع من تبوك . وقد سقطت عند الكتاني . وبالرجوع إلى شيوخ التحقيق :

(١) ابن هشام ٣٥٠/٢ .

(٢) استحالت غرباً : استشراف بقول الحبيب ﷺ عن خلافة الفاروق : «ثم أخذها عمر - أي أخذ اللولو بعد أبي بكر - فاستحالت غرباً (أصبحت دلوًا عظيمًا) إشارة إلى اتساع الدولة ووفرة الخير . . والمقصود هنا غزارة علم الشيخ وتدفعه . (فتح الباري ٣٣/٧) .

وجدت أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزي يقول : «عن الحسن عن أنس» وذكر النص ثم قال : هذا حديث موضوع وما أجهل واضعه بالتاريخ فإن سعد بن معاذ لم يكن حيًا في غزاة تبوك لأنه مات بعد غزوة بنى قريظة من السهم الذي رمى به يوم الخندق سنة خمس ، وتبوك سنة تسع ، فلو كان عند الكذاب توفيق ما كذب ^(١) .

وعند الإمام جلال الدين السيوطي : «عن أنس - ذكره -» لكنه أضاف زيادة على ما ذكره ابن الجوزي : ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أن سعد بن معاذ هذا صحابي آخر غير ذلك المشهور ^(٢) .

وعند شيخ المحدثين في العصر الحديث محمد ناصر الدين الألباني : بعنوان «وهذه يد لا تمسها النار أبدًا» قال : «ضعيف» . وبعد أن أورد ما قاله ابن الجوزي والسيوطي . قال : «قال : الشيخ عبد الحى الكتاني في التراتيب الإدارية ٢ ، ٤٢ ، ٤٣ بعد ما نقل كلام الحافظ : قلت : - الكتاني - في هذه القصة عجيبة وهي تقبيل النبي ﷺ يد صحابي لأجل ضرب الأرض بالفأس» قلت - الألباني - لكن يقال : أثبت العرش ثم انقش فإن القصة غير ثابتة كما علمت ^(٣) .

فالقصة كما ترى باطلة وموضوعة ، وما سعد بن معاذ هذا إلا شخصية مختلقة للنجاة من الكذب التاريخي لأن سعدًا الحقيقي توفي بعد الخندق ، وللتخلص من هذا قالوا : سعد ابن معاذ آخر .

أين شيخنا من هذه الهزأة؟

نص على أن الأثر واهٍ وهذا شرط العلماء في رواية الأكاذيب حتى لا يتعرض الرواي للوعيد النبوي «من كذب على . الحديث» لكن الشيخ بدل أن يتبرأ من عارها ويدفنها إذا به يقول : «قلت : في هذه القصة عجيبة وهي تقبيل اليد» ٤٢/٢ كما ذكره الشيخ الألباني . الأدهى أن الشيخ الكتاني حوّل الأمثلة إلى أنشودة فعاد إليها مرة أخرى ١٠٢/٢ حيث يقول : «وتقدم أن سعدًا قبّل المصطفى يده» . عفا الله عنا وعنك فالغفلة عن الآفة مهلكة يا شيخنا .

(١) ابن الجوزي : الموضوعات ، تحقيق عبد الرحمن محمد عجمان . المدينة المنورة : المكتبة السلفية ، ٢٥١/٢ .

(٢) جلال الدين السيوطي : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية . بيروت : دار المعرفة .

(٣) محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، المجلد الأول ، حديث رقم ٣٩١ .

ثانيا : ثم دفعه الهوى الصوفى إلى سقطة أخرى ، ولتنظر ماذا قال عند تحريره لموضوع : «رقص الحبشة فى المسجد النبوى أمامه عليه السلام» ١٤١/٢ « وفى ترجمة أنس من مسند أحمد كانت الحبشة يزفون بين يدي رسول الله ﷺ ويرقصون ويقولون : محمد عبد صالح^(١) » فحول الشيخُ هذا اللعب والرقص إلى ذكر ، لماذا؟ حتى يحتج به على تمايل الجاهلين فيما يسمى «بحلقات الذكر» . انظر إلى تلاعب الشيخ : «غاية الرقص عند القوم ذكر من قيام ، وهو مشروع بنص القرآن الآية» والقيام يا شيخ هو القيام فى الصلاة وليس الرقص . وقد تولّى تفنيد هذا الزيغ القرطبى المفسر : عند قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) .

قال القرطبى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الأندلسى (٦٧١هـ) : قال ابن عطية^(٣) : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله تعالى : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قلت : وهذا تعلق غير صحيح . هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم . وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة فى هذا الزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان . هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء . وقال الإمام أبو بكر الطرطوشى^(٤) وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل^(٥) . ثم عاد القرطبى إلى إنكار نفس الزيغ عند تفسير قوله تعالى من سورة طه : ﴿يَا هَارُونَ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾^(٦) .

(١) ابن حنبل : المسند ، ٤٩٢/١٠ حديث رقم ١٢٣٧٩ ، تحقيق : حمزة أحمد الزين . القاهرة ، دار الحديث .

(٢) الكهف : آية ١٤ .

(٣) ابن عطية : عبدالحق بن غالب الغرناطى (٤٨١ - ٥٤٢هـ) أبو محمد مفسر وفقه أندلسى ومن كتبه : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، الأعلام ٥٣/٤ .

(٤) الطرطوشى ، محمد بن الوليد : أبو بكر الطرطوشى (٤٥١ - ٥٢٠هـ) نسبته إلى طرطوشة بالأندلس . صاحب كتاب سراج الملوك وغيرها ، الأعلام ٣٥٨/٧ .

(٥) تفسير القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ٣٩٨٣/٥ ، طبعة دار الشعب .

(٦) طه : آية ٩٢/٩٣ .

قال القرطبي: « وسئل الإمام أبو بكر رحمه الله عن مذهب الصوفية . وأُعلِم أنه احتج جماعة من رجال يكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد ﷺ ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ويحضرُونَ شيئاً يأكلونه . هل الحضور معهم أم لا ؟ »

«الجواب : مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة . وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما القضيب فأول من اتخذ الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى . وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأن على رؤوسهم الطير من الوقار . فينبغي على السلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعيّنهم على باطلهم . هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين^(١) .

لولا تلبيس الباطل يا شيخنا ما استدعينا هؤلاء القضاة . فمن قال : إن الرقص عبادة؟

وهل ما فعلته الحبشة في المسجد ذكر؟

يقول صاحب الفتح : «وأما ما ابتدئته الصوفية في ذلك - الغناء والرقص - فمما لا يختلف في تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب حتى لقد ظهر من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان ، فرقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقع بقوم منهم أن جعلوها «من باب القرب وصالح الأعمال ، وأن ذلك يثمر سنيّ الأحوال» وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وفعل أهل المخرقة»^(٢) .

المصنّف ملئ بهذه الآثار الواهية وبعضها فقد الحياء . حين يصور فرحاً حضره رسول الله ﷺ وقال على الألفة والخير والطائر الميمون دَفَّقُوا (اضربوا بالدف) على رأس صاحبكم . وجاءت الجوارى معهن الأطباق فيها اللوز والسكر فتُنشر عليهم (ويمكن أن تُقرأ نثرَ البناء للفاعل) وهو يناسب سوء الأدب مع رسول الله . والقصة من سخفها وثقلها تثير الاشمئزاز . ومع أن الشيخ نقل رأى المحققين فيها وأنها أثر هالك ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يجعل

(١) تفسير القرطبي ، ٤٢٧٧/٥ .

(٢) الحافظ ابن حجر : فتح الباري ، ٣٦٨/٢ .

لها عنوانا كما لو كانت حقيقة صحيحة ، فعقد لها هذا العنوان : «نهب اللوز والسكر ونثره في العرس»^(١) .

وهذه سنة مطردة عن الشيخ يذكر الآثار الواهية ثم يتناسى هذا ويحتفى بها (تقبيل اليد أو الرقص أو النهب) .

ومن الأخطاء ، ولعلها مطبعية :

(١) «وفي الصحيح أن النبي ﷺ لما هاجر استأجر رجلاً يهودياً خريتا» ولعلها هادياً فقد جاء في فتح الباري ٣٦٢/٤ كتاب الإجارة : واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل هادياً وكان على دين كفار قريش»^(٢) .

(٢) «وترجم في الإصابة لعبد الرحمن بن أبزي فنقل عن ابن السكن»^(٣) فقال : استعمله النبي ﷺ على خراسان^(٤) . فعلاً ذكره ابن حجر في الإصابة^(٥) ٢٨٢/٤ . وهذا خطأ لأن خراسان هذه بدأ فتحها في خلافة عمر سنة ١٨ هـ . لكن شيخنا على دقة استدراكاته ينقل أحيانا عن الآخرين بغير مراجعة .

(٣) وشبيه بهذا وهو يتكلم عن سك النقود قال :

«كما أُلِفَ في الباب أيضا الحافظ السيوطي رسالة سماها «قطع المجادلة في تغيير المعاملة» وهي رسالة نفيسة في نحو كراسة . ذكر في أولها ان ابن أبي شيبه^(٦) أخرج في مصنفه عن كعب : أن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام»^(٧) .

هذه أخبار ينبغي أن تبرأ منها المؤلفات العلمية . . .

هناك أخيراً بعض الأخطاء في سياق الآيات القرآنية أو في القواعد النحوية :

(١) التراتيب : ١٥٥/٢ .

(٢) التراتيب : ٤٦٠/١ .

(٣) ابن السكن ، أبو علي سعيد بن عثمان (٢٩٤ - ٣٥٣ هـ) من حفاظ الحديث نزل بمصر وتوفي بها ، الأعلام ٢١٧/٦ .

(٤) السابق : ١٤٣/١ .

(٥) ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : علي محمد البجاوي .

(٦) ابن أبي شيبه (١٥٩ - ٢٣٥ هـ) عبد الله بن محمد الكوفي ، أبو بكر . حافظ للحديث له : المسند ، المصنف ، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢٢/١١ .

(٧) التراتيب : ٤٢٥/١ .

الصفحة	الخطأ فى الآية القرآنية	تصويبه
٤١/٢	فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نَخْرُجُ بِهِ حَبًّا مُتْرَاكِبًا	﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نَخْرُجُ مِنْهُ﴾ ^(١)
٤١/٢	وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ	﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾ ^(٢)
٤١/٢	وَمِنَ الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ	﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ ^(٣)
٢٠٠/٢	وَالصَّابِرِينَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ	﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ^(٤)

ونكتفى بهذا القدر لنشير إلى بعض الأخطاء النحوية ، أما الإملائية فربما دفع إليها الخطأ المطبعي .

الصفحة	الخطأ	الصواب
٢٣٢/١	يتحدث عن سعد بن أبي وقاص : « رأيت أخى عمرو بن أبى وقاص . . متوارى »	متوارياً
١٩٢/١	« وأول ما استعمل العرب الإبل ثم استبدلوها بالبغال »	ثم استبدلوا بها البغال
١٩٤/٢	« وله ذبول طبعت منه ولاكن الطابعون لم يميزوا بين الأصل والفرع »	ولكن الطابعين

وقد لاحظت أن الكتابة الإملائية فى المصنف كانت تثبت ألف المد هذه فى كلمات مثل « لا إله إلا الله - الرحمان ، لاكن ، طاها وهاكذا »

عتاب أخير على شيخنا . . وهو أنه حين أخذ فى عرض الموسوعات فى إحصاء العلوم فى القرن الرابع ذكر الفارابى أبا نصر محمد بن طرخان (٣٣٩هـ) وكتابه «إحصاء العلوم» .
والخوارزمى أبا عبد الله بن أحمد (٣٨٧هـ) فى كتابه «مفاتيح العلوم» .

(١) الأنعام : آية ١٤١ .

(٢) الأنعام : آية ١٤١ .

(٣) الرعد : آية ٤ .

(٤) البقرة : آية ١٧٧ .

وأبا القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي (٤٦٠هـ) في كتابه «طبقات الأمم» .

ثم أغفل عمدة هؤلاء جميعا أبا الفرح محمد بن إسحاق (ابن النديم) (٣٨٥هـ) في ذخيرته المشهورة «الفهرست» . مع أنه أشار إليه في ثانيا كتابه ٢/٢٦٣ ، ٢/٢٧٤ ، ٢/٢٧٥

وبعد :

فمعدرة يا شيخنا الجليل لمكانك ومكانتك ، لكن الحق أحب إلينا ، وجزاك الله خير ما يجزى به العلماء على هذا الإمتاع الذي أنست به زمناً بصحبة شيخنا الخزاعي وصحبتك في رحلة علمية مباركة وارفة .

وأعتذر عن هذه القراءة العجلى التى قد يعتورها قصور أو نقصان ، راجيا أن تكون تلك إشارة متواضعة إلى هذين العاملين حتى يقيض الله لهما أحد شيوخ التحقيق وخاصة موسوعة الشيخ عبد الحى الكتانى التى هى من نواذر المؤلفات فى هذا الباب ، والتى تنبئ عن عالم جليل لا يعرف قدره إلا القليل ، وأسأله سبحانه العفو والمغفرة .

المصادر والمراجع

- ١ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب / ابن عبد البر .
- ٢ - الإسلام وأصول الحكم / على عبد الرازق . القاهرة : دار الهلال .
- ٣ - الإصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني .
- ٤ - الأعلام / خير الدين الزركلي .
- ٥ - تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار . القاهرة : دار المعارف .
- ٦ - تاريخ الأدب العربي / جرجي زيدان . القاهرة : دار الهلال .
- ٧ - تفسير القرطبي . القاهرة : دار الشعب .
- ٨ - ثلاث معارك فكرية / مختار التهامي . القاهرة : دار مأمون للطباعة .
- ٩ - خاتم النبيين / محمد أبو زهرة . القاهرة : دار الفكر العربي .
- ١٠ - الخلافة / محمد عمارة . القاهرة : دار الهلال .
- ١١ - دراسات في السيرة / حسين مؤنس . القاهرة : دار المعارف .
- ١٢ - الدولة في عهد الرسول ﷺ / صالح أحمد العلي . بغداد : المجمع العلمي العراقي .
- ١٣ - الرسالة / الإمام الشافعي ، تحقيق أحمد شاكر . القاهرة : دار التراث .
- ١٤ - رفاة الطهطاوي رائد التنوير / محمد عمارة . القاهرة : دار الشروق .
- ١٥ - سلسلة الأحاديث الضعيفة / محمد ناصر الدين الألباني . بيروت : المكتب الإسلامي .
- ١٦ - سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي . بيروت : دار الكتب العلمية .
- ١٧ - سير أعلام النبلاء / الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤطي . بيروت : مؤسسة الرسالة .
- ١٨ - سيرة ابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة : مطبعة محمد علي صبيح .
- ١٩ - صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة : إحياء الكتب العربية .
- ٢٠ - فتح الباري / ابن حجر العسقلاني . بيروت : دار المعرفة .
- ٢١ - فقه السيرة / محمد الغزالي . القاهرة : دار الشروق .
- ٢٢ - اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة / جلال الدين السيوطي . بيروت :

دار المعرفة .

- ٢٣ - المجمعيون/ المجمع اللغوى . القاهرة : مجمع اللغة العربية .
- ٢٤ - المستشرقون/ نجيب العقيقى . القاهرة : دار المعارف .
- ٢٥ - المسند/ للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق حمزة الزين . القاهرة : دارالحديث .
- ٢٦ - مشهورون ومنسيون/ فتحى رضوان . القاهرة : كتاب اليوم ، أخبار اليوم .
- ٢٧ - معجم البلدان/ ياقوت الحموى . دار بيروت .
- ٢٨ - المعجم الفلسفى/ إشراف إبراهيم مذكور . القاهرة : مجمع اللغة العربية .
- ٢٩ - مقدمة ابن خلدون .
- ٣٠ - الموسوعة الثقافية/ إشراف حسين سعيد . القاهرة : دار الشعب .
- ٣١ - الموضوعات / عبدا لرحمن بن الجوزى . المدينة المنورة : المكتبة السلفية .
- ٣٢ - النهاية فى غريب الحديث والأثر/ ابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحى . القاهرة : إحياء الكتب العربية .
- ٣٣ - نيل الأوطار/ محمد بن على الشوكانى . بيروت : دار الكتب العلمية .

نصوص تراثية

نصوص من كتاب أنندلس مفقود

٥١/ رجب عبد الجواد إبراهيم*

إنَّ محاولة رسم ملامح كتب مفقودة من خلال استنطاق نصوصها المتناثرة في كتب مطبوعة وصلت إلينا هي جدُّ محاولة مُهمّة في الكشف عن خبايا تراثنا . واستكمال جوانب النقص في مكتبتنا العربية ، كما أنَّ هذه المحاولة تُعدُّ جزءاً مُتَمِّماً لحركة نشر وتحقيق المخطوطات العربية ، ولعلَّي بهذه المحاولة ألقت انتباه الدارسين والمهتمين بقضايا التراث إلى الكشف عن الكتب المفقودة من خلال ما وصل إلينا من نصوصها في الكتب المطبوعة .

والكتاب المفقود الذي لم يصل إلينا هو كتاب : «النُّصار في المَسْلاة عن نُصار» للعلامة أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان ، أثير الدين الأندلسي الغرناطي (ت ٧٤٥هـ) نحويّ عصره ، ولُغويّه ، ومفسِّره ، ومحدِّثه ، ومُقرِّئه ، ومؤرِّخه ، وأديبه (١) .

وكتاب «النُّصار» هذا ألّفه أبو حيان بعد وفاة ابنته نُصار ، وقد تحدّث فيه - كما يقول السيوطي في البغية - عن مبدئه واشتغاله بالعلم ، وشيوخه الذين تلقّى على أيديهم العلم والمشاهير من علماء الأندلس في اللغة والنحو ، والأسباب التي دفعته إلى أن يترك بلده غرناطة ويرحل إلى المشرق . يقول السيوطي - نقلاً عن «النصار» - : ورأيت في كتابه النُّصار الذي ألّفه في ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته أنَّ مما قوَّى عزمه على الرحلة عن غرناطة أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضي والطبيعيّ قال للسلطان : إني قد كبرت وأخاف أن أموت ، فأرى أن ترتّب لي طلبة أعلمهم هذه العلوم ؛ لينفعوا السلطان من بعدى . قال أبو حيان : فأشير إليّ أن أكون من أولئك ، ويرتّب لي راتب جيّد وكُساوٍ حسان فتمنّعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك (٢) .

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة حلوان .

(١) حول ترجمته انظر : الإحاطة في أخبار غرناطة ٤٣/٣ - ٦٠ ، الكتيبة الكامنة ٨١ ، نفح الطيب ٢٨٠/٣ - ٣٢٨ ، الوافي بالوفيات ٢٦٧/٥ ، نكت الهميان ٢٨٠ ، معجم الأدباء ١٩/١٢٣ ، شذرات الذهب ١٨٥/٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣١/٦ - ٤١ ، فوات الوفيات ٥٥٥/٢ - ٥٦٢ ، الدرر الكامنة ٣٠٤/٤ ، العقد الثمين ٤٠٢/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١١١/١ ، بغية الوعاة ٢٨٠/١ - ٢٨٥ ، فهرس الفهارس والأثبات ١٠٨/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٢/١ ، الأعلام للزركلي ١٥٢/٧ ، أبو حيان الأندلسي لخديجة الحديشي .

(٢) بغية الوعاة ٢٨١/١ .

أما عن نُصار ابنة أبي حيان فيحدثنا عنها المقرئ في كتابه «نفح الطيب» قائلاً : كانت نُصار هذه قد حجّت ، وسمعت بقراءة العَلَم البرزالي على بعض الشيوخ ، وسمعت على جماعة ، وأجازها من المغرب أبو جعفر بن الزبير ، وحفظت مقدّمة في النحو ، وكان والدها يثنى عليها كثيراً ، وكانت تكتب وتقرأ ، وتنظم الشعر ، وكان والدها يقول دائماً : ليت أخاها حيّان كان مثلها . وتوفيت في جمادى الآخرة سنة ٧٣٠هـ في حياة والدها ، فوجد عليها وجداً عظيماً ولم يثبت ، وانقطع عند قبرها ولازمه سنة (١) .

هذا ، وقد نقل السيوطي في «البغية» خمسة وعشرين نصّاً من كتاب «النصار» ؛ وهي نصوص يترجم فيها لنحويين ولغويين أندلسيين ، وقد اتّسمت نقول السيوطي بالدقة والأمانة ، فلم يكن - رحمه الله - يغيّر في ألفاظ من ينقل عنهم شيئاً ، وطريقته في «البغية» واحدة ؛ هي أن يختار نصّاً من الكتاب الذي ينقل عنه دون تغيير أو تبديل ، وقد بلوته في نصوص كثيرة نقلها من كتب مطبوعة بين أيدينا اليوم .

ومن خلال النصوص الخمسة والعشرين نستطيع أن نرسم ملامح كتاب «النصار» ، ونجملها في الآتي :

- ١ - الكتاب يترجم لنحاة الأندلس المشهورين في القرن السابع الهجري غالباً .
- ٢ - يكشف الكتاب عن جوانب خفية في حياة من يترجم لهم ، لا وجود لها في كتب أخرى ؛ كأن يقول عن ابن مالك : إنه كان لا يحتمل المباحثة ولا يثبت للمناقشة ، ولم يكن له شيخ مشهور يعتمد عليه . ويقول عن ابن حَوْط الله الحارثي (ت ٦١٢هـ) : كان يكتب بيده اليسرى لتعذر اليمنى ، ولم يكن يخرجها من ثوبه ، ولم يعرف أحد عذرها . ويقول عن المالقى (ت ٧٠٢هـ) : كان شديد البَلَه ، طبخ قدراً فوجدها تعوز الملح ، فوضع فيها ملحاً غير مطحون ، ثم ذاقها قبل أن ينحلّ الملح فزادها حتى صارت زُعاقاً . وقال عن أبي علي بن أبي الأحوص القرشي الفهرى (ت ٦٧٩هـ) : كان فيه بعض ترفع وتعتب على الدنيا حيث قُدّم مَنْ هو دونه إلخ .

- ٣ - يبرز الكتاب بعض ملامح الحياة الاجتماعية في الأندلس في عصر أبي حيان ؛ فالأندلسيون كانوا يسمون عبد الله : عبّوداً ، ويسمون محمداً : حمّوداً ، وقد نقل المشاركة عنهم ذلك .

(١) نفح الطيب ٣/ ٢٨٠ - ٣٢٨ .

٤ - يكشف الكتاب عن مدى اهتمام الأندلسيين بكتاب سيبويه في عصر أبي حيان ؛ فقد كانوا لا يعتدّون بالعالم الأندلسي في اللغة والنحو إذا لم يكن يقرأ «كتاب سيبويه» ؛ يؤكد ذلك حديث أبي حيان عن المالقى أحمد بن عبد النور (ت ٧٠٢هـ) بقوله : كان عالماً بالنحو ، وكان لا يقرأ كتاب سيبويه ، فكان أصحابنا إذا ذكر يقولون : هل يقرأ «كتاب سيبويه» ؟ فيقال : لا ، فيقولون : لا يعرف شيئاً .

٥ - ترجم أبو حيان في الكتاب لبعض النحويين الذين رحلوا عن الأندلس وقابلهم في بجاية بتونس أو ببلاد المشرق ، فهو يقول عن سلام الجبجلى : رأيته يُقرئ النحو ببجاية لما دخلتها سنة تسع وسبعين وستمائة ، ويقول عن ابن خروف : مات بحلب ، ويقول عن ابن السمين : رحل إلى المشرق ومات بها .

٦ - ذكر فيه أبو حيان علماء الأندلس الذين أجازوا له ؛ وهم : ابن الزبير (ت ٧٠٨هـ) ، والحسين بن محمد التّعمري (ت بعد ٦٧٥هـ) ، وعبد الله بن أبي عامر يحيى ابن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري القرطبي (ت ٦٦٦هـ) ، ويوسف بن إبراهيم ابن يوسف بن سعيد بن أبي ريحانة المالقى أبو الحجاج المعروف بالمربليّ (ت ٦٧٢هـ) ، إلى جانب ترجمته لهم .

وها هي النصوص الخمسة والعشرون نقلتها من «بغية الوعاة» للسيوطي (ت ٩١١هـ) ، ووثقتها فيه ، وهؤلاء هم النحويون الذين تُرجمَ لهم في البغية نقلاً عن أبي حيان .

(١) محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك ، العلامة ، جمال الدين أبو عبد الله الطائي الجيّاني الشافعيّ النحويّ (ت ٦٧٢هـ) ^(١) .

قال أبو حيّان : بحثت عن شيوخه فلم أجد له شيخاً مشهوراً يعتمد عليه ، ويُرجع في حلّ المشكلات إليه ، إلا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال : قرأت على ثابت بن حيّان بجيّان ، وجلست في حلقة أبي على الشلّوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً ؛ ولم يكن ثابت بن حيّان من الأئمة النحويين ، وإنما كان من أئمة المقرئين .

قال : وكان ابن مالك لا يحتمل المباحثة ، ولا يثبت للمناقشة ؛ لأنه إنما أخذ هذا العلم بالنظر فيه بخاصة نفسه ، هذا مع كثرة ما اجتناه من ثمرة غرسه . انتهى .

(١) بغية الوعاة ١/١٣٠ - ١٣١ رقم ٢٢٤ .

(٢) محمد بن عبد الله بن مصالة الفازاري الرّكلاويّ ، أبو عبد الله^(١) .

ويعرف بابن عبّود . قال أبو حيّان في «النّصار» : وهم يسمّون عبد الله عبّوداً ، ومحمداً حمّوداً .

وهو من مكناسة الزّيتون ، كان نحوياً مفسراً لغويّاً ، روى عن أبي إسحاق الكمال وأبي جعفر بن فرتون الحافظيّين ، وأجاز لأبي الحسين اليّسر بن عبد الله الغرناطيّ .

(٣) محمد بن عليّ بن يحيى ، أبو عبد الله قاضي الجماعة^(٢) .

المعروف بالشريف ، شهرة لانسباً . قال أبو حيّان في «النّصار» : كان بمراكش في زمن ابن أبي الرّبيع يدرس «كتاب سيّبويه» والفقه والحديث ، ويميل إلى الاجتهاد ، وله مشاركة في الأصول والكلام والمنطق والحساب ، ويغلب عليه البحث لا الحفظ . روى عن الحافظ أبي الحسن بن القطّان وغيره ، وأخذ النّحو عن يحيى بن راجل شارح «الجزوليّة» ، وقرأ عليه جماعة ، أجّلهم أبو عبد الله الصّنهاجيّ وأبو إسحاق العطار شارح «الجزوليّة» .

ومات بمراكش عام اثنين وثمانين وستمائة .

(٤) محمد بن موسى السلويّ النّحويّ الأديب (ت ٦٨٥ هـ)^(٣)

قال أبو حيّان : قرأ «كتاب سيّبويه» على ابن أبي الرّبيع ، وبرع فيه ، وأقرأ النّحو بفاس ، وكان فاضلاً نزّها وقوراً مهيباً .

ومات سنة خمس وثمانين وستمائة وسنه نحو من خمس وعشرين سنة .

(٥) أحمد بن إبراهيم بن الزّبير بن محمد بن إبراهيم بن الزّبير بن الحسن ابن الحسين القفيّ العاصميّ^(٤)

الجيّانيّ المولد ، الغرناطيّ المنشأ ، الأستاذ أبو جعفر . قال تلميذه أبو حيّان في «النّصار» : كان محدثاً جليلاً ، ناقدّاً ، نحوياً ، أصوليّاً ، أدبيّاً ، فصيحاً ، مفوّهاً ، حسن الخطّ ، مقرئاً مفسراً مؤرخاً . أقرأ القرآن والنّحو والحديث بمالقة وغرناطة وغيرهما ؛ وكان كثير الإنصاف ، ناصحاً في الإقراء ، خرج من مالقة ومن طلبته أربعة يقرأون «كتاب سيّبويه» ؛ ثم عرض له أن السلطان تغيّر عليه فجعل سجنه داره ، وأذن له في حضور الجمعة ، فلما مات شيوخ غرناطة ، وشغّر البلد عن عالم رضى عليه ، وقعد بالجامع يفيد الناس .

(١) بغية الوعاة ١٤٧/١ رقم ٢٤٢ .

(٢) بغية الوعاة ١٩٣/١ - ١٩٤ رقم ٣٢٨ .

(٣) بغية الوعاة ٢٥٣/١ رقم ٤٦٨ .

(٤) بغية الوعاة ٢٩١/١ - ٢٩٢ رقم ٥٣٢ .

وولى الخطابة والإمامة بالجامع الكبير ، وقضاء الأنكحة ، وتخرج عليه جماعة ، وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها .

وكان محدث الأندلس بل المغرب فى زمانه ، خيرًا ، صالحًا ، كثير الصدقة ، معظمًا عند الخاصة والعامة ، متحررًا ، أمارًا بالمعروف ، نهًا عن المنكر ، لا ينقل قدمه إلى أحد ، جرت له فى ذلك أمور مع الملوك صبر فيها ، ونطق بالحق بحيث أدى إلى التضييق عليه وحبسه .

وروى عن أبى الخطاب بن خليل ، وعبد الرحمن بن الفرس ، وابن فرتون ، وأجاز له من المشرق أبو اليمن بن عساكر وغيره .

صنف تعليقًا على «كتاب» سيبويه ، و«الذيل على صلة ابن بشكوال» .

ولد سنة سبع وعشرين وستمائة ، ومات يوم الثلاثاء ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعمائة .

ومن شعره :

مَالِي وَلِلتَّسَالِ لَا أُمُّ لِي إِنَّ سَلْتُ مَنْ يُعْزَلُ أَوْ مَنْ يَلِي
حَسْبِي ذُنُوبِي أَثْقَلْتُ كَاهِلِي مَا إِنْ أَرَى غَمَاءَهَا تَنْجَلِي

(٦) أحمد بن إبراهيم بن سهل الأنصارى ، الأستاذ النحوى^(١)

روى عن أبى سعد بن غنائم الحموى الضرير ، وعن أبى إسحاق الغرناطى «الأربعين» له ، رواها عنه أبو عبد الله بن يخلف .

قاله أبو حيّان .

(٧) أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد ، أبو جعفر المالقى النحوى

(ت ٧٠٢هـ)^(٢)

قال فى «النُّصار» : كان عالمًا بالنحو ، وكان لا يقرأ «كتاب» سيبويه ، فكان أصحابنا إذا ذكر يقولون : هل يقرأ «كتاب» سيبويه؟ فيقال : لا ، فيقولون : لا يعرف شيئًا .

(١) بغية الوعاة ٢٩٣/١ رقم ٥٣٤ .

(٢) بغية الوعاة ٣٣١/١ - ٣٣٢ رقم ٦٢٧ .

وكان ضيق الحال فدخل المُرِّيَّة ، فوجدها صِفراً ممن يشتغل بالنحو ، فأقام بها يشغل الناس فيه ، فحسنت حاله ، وأنجب عليه أبو الحسن بن أبي العيش ، وكان قرأ النحو على أبي المفرج الملقى ، وتلا على أبي الحجاج بن ریحانة ، وكان شديد البله ، طبخ قذراً فوجدها تعوز الملح ، فوضع فيها ملحاً غير مطحون ، ثم ذاقها قبل أن ينحل الملح ، فزادها حتى صارت زُعاقاً .

صنّف «شرح الجزولية» ، وشرح «مقرب» ابن هشام الفهرى ، وصل فيه إلى باب همزة الوصل ، و«رصف المباني في حروف المعاني» من أعظم ما صنّف . ويدلّ على تقدّمه في العربية ، وله تقييد على «الجمل» وغير ذلك .

مات يوم الثلاثاء سابع عشرين ربيع الآخر سنة ثنتين وسبعمئة .

(٨) أبو بكر بن الصائغ^(١)

ويُعرف أيضاً بابن باجة ، ذكره أبو حيّان في «النُّصَار» ، فقال : كان عالماً بالأدب والنحو ، ونظر في كلام الحكماء فكان يشبّهه بابن سينا ، ذكره الفتح بن خاقان في «القلائد» ، ونسبه إلى الزندقة .

(٩) حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصارى القرطبيّ النحوى ، أبو الحسن هنىء الدين (ت ٦٨٤ هـ)^(٢)

شيخ البلاغة والأدب ، قال أبو حيّان : هو أَوْحد زمانه في النُّظْم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان ؛ روى عن جماعة يقاربون ألفاً ، وروى عنه أبو حيّان ، وابن رُشيد وذكره في رحلته فقال : حَبْرُ البلغاء ، وبحرُ الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحداً ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاهد علم البيان ما أحكم ؛ من منقول ومبتدع ، وأما البلاغة فهو بحرُها العذب ، والمتفرّد بحمل رأيها ، أميراً في الشرق والغرب .

وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حمّاد راويتها ، وحمّال أوقارها ، يجمع إلى ذلك جُودَة التصنيف وبراعة الخطّ ، ويضرب بسهم في العقليات ، والدراية عليه أغلب من الرواية .

(١) بغية الوعاة ١/٤٧٥ رقم ٩٧٧ .

(٢) بغية الوعاة ١/٤٩١ - ٤٩٢ رقم ١٠١٨ .

صنّف: «سراج البلغاء» فى البلاغة ، وكتاباً فى القوافى ، وقصيدة فى النحو على حرف الميم .

مولده سنة ثمان وستمائة ، ومات ليلة السبت رابع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة .

ومن شعره :

مَنْ قَالَ حَسْبِيَ مِنَ الْوَرَى بَشْرٌ فَحَسْبِيَ اللَّهُ حَسْبِيَ اللَّهُ
كَمْ آيَةٍ لِلَّهِ شَاهِدَةٌ بَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ !

(١٠) الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن محمد ، الإمام أبو على ابن أبى الأحوص القرشى الفهرى (ت ٦٧٩ هـ) (١) .

الغرناطى الموطن ، البلنسى الأصل ، الجيانى المولد . ويعرف أيضاً بابن الناظر ، الحافظ النحوى .

قال أبو حيان فى «النّصار» : كان فيه بعض ترفع وتعتب على الدنيا حيث قدّم من هو دونه ، وكان لا يحكم برأى ابن القاسم بل بما يرى أنّه صواب .

وله «شرح المستصفى» ، و«شرح الجمل» .

ومن شعره :

رَغِبْتُ عَنْ الدُّنْيَا لِعِلْمِي أَنَّهَا مَحَلُّ حَيَاةِ الْمَرْءِ فِيهِ بَلَاغُ
وَقَدْ لَاحَ فِي فَوْدِي شَيْبٌ عَلَى الرَّدَى دَلِيلٌ وَفِيهِ مَا أَرَدْتُ بَلَاغُ
وَأُمِلْتُ مِنْ مَوْلَايَ نَظْرَةً رَحْمَةً يَكُونُ بِهَا مِنِّي إِلَيْهِ بَلَاغُ
فَأَحْظَى إِذَا الْأَبْرَارُ قِيلَ لَهُمْ غَدًا هَلُمُّوا إِلَى دَارِ النَّعِيمِ فَرَاغُوا
رَأَيْتُ بَنِيهَا مَا رَمَتْهُمْ سِهَامُهَا فَطَاشَتْ وَلَا حُمَّ الْحِمَامُ فَرَاغُوا
فَعُجْتُ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ بِهَمَّتِي فَعِنْدِي عَنْهَا رَاحَةٌ وَفَرَاغُ

(١١) الحسين بن محمد التّعمريّ ، أبو على (ت بعد ٥٦٤ هـ) (٢) .

وتعمر ، بفتح المثناة من فوق وسكون المهملة وفتح الميم ، قبيلة من البربر .

(١) بغية الوعاة ١/٥٣٥ - ٥٣٦ رقم ١١١١ .

(٢) بغية الوعاة ١/٤٥٠ رقم ١١٨٨ .

قال أبو حيان في «النضار»: نحويٌ أديبٌ مفتنٌ ، إمامٌ ، ويعرف بالخمّاش ، أخذ العربية والأدب عن أبي عبد الله محمد بن عليّ المحلّي ، وحدث عن الحافظ أبي العباس العزفيّ وغيره ، أجاز لي سنة خمس وسبعين وستمائة . انتهى .

(١٢) حسان بن محمد الجببيّ الإشبيليّ ، أبو جعفر (ت نحو ٧٠٠ هـ) ^(١)

قال أبو حيان في «النضار»: كان لغويّاً أديباً مجيداً ، حسن الخطّ ، رأيته بقرناطة ، وبها تُوفّيَ قبل خروجي منها ، وكان في كنف ملكها ابن الأحمر ، ورحل قديماً إلى تونس ، ومدح ملكها . انتهى .

(١٣) رضوان بن عبد الله البلنسيّ ، أبو المجد ^(٢)

قال أبو حيان : كانت له اليد الطولى في النحو واللغة والأدب .

(١٤) سلام الجبجليّ (ت نحو ٧٠٠ هـ) ^(٣)

بكسر الجيم الأولى وفتح الثانية بينهما باء موحدة ساكنة ، قال في «النضار»: رأيته يقرئ النحو ببجاية لما دخلتها سنة تسع وسبعين وستمائة .

(١٥) عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر

ابن حوط الله الحارثيّ (ت ٦١٢ هـ) ^(٤)

قال في «النضار»: كان عبد الله هذا فقيهاً جليلاً نحويّاً أديباً شاعراً كاتباً ، ورعاً ، ديناً ، حافظاً ثبّتاً ، مشهوراً بالفضل والعقل ، معظماً عند الملوك ، بارع الخطّ ، يكتب بيده اليسرى لتعذر اليمنى ؛ ولم يكن يخرجها من ثوبه ، ولم يعرف أحد عذرها ، يميل إلى الاجتهاد ويغلب عليه طريقة الظاهر . تردد في أقطار الأندلس هو وأخوه سليمان ، وسمعا في عدة بلاد ، وحصّلا من السماع ما لا يحصل لأحد من أهل المغرب . وولى عبد الله قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسیة وغيرها ، فتظاهر بالعدل وصنف .

مولده بأندة يوم الأربعاء في رجب سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ومات بقرناطة يوم الخميس ثاني ربيع الأول سنة ثنتي عشرة وستمائة .

(١) بغية الوعاة ٥٤٥/١ رقم ١١٣٧ .

(٢) بغية الوعاة ٥٦٧/١ رقم ١١٧٨ .

(٣) بغية الوعاة ٥٩٤/١ رقم ١٢٥٧ .

(٤) بغية الوعاة ٤٤/٢ رقم ١٣٨٧ .

(١٦) عبد الله عامر يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري القرطبي ، أبو القاسم (ت ٦٦٦ هـ) ^(١)

قال أبو حيان في «النضار» : ومن شيوخه أبو بكر بن طلحة النحوي ، والحافظ أبو بكر ابن خلفون ، وأبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشني ، وقد أجاز لي في عميم إجازته لأهل غرناطة .

(١٧) عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السداد الأموي الملقى ، أبو محمد (ت ٧٠٥ هـ) ^(٢)

ذكره أبو حيان في «النضار» ، فقال : صاحبنا الأستاذ المقرئ النحوي .

(١٨) علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحيم الخشني الأبدى ، أبو الحسن (ت ٦٨٠ هـ) ^(٣)

قال أبو حيان في «النضار» : كان أحفظ من رأيناه بعلم العربيّة ، وكان يقرئ «كتاب» سيبويه فما دونه ، وكان في غاية الفقر على إمامته في العلم ، ولي إمامة جامع القيساريّة ، فارتفق بمعلومه . قلت يوماً للفيّقيه أبي إسحاق إبراهيم بن زهير - والأبدى حاضر - : ما حدّ النحو؟ فقال : هذا الشيخ هو حدّ للنحو .

مات في رجب سنة ثمانين وستمائة .

(١٩) علي بن محمد بن علي بن محمد نظام الدين أبو الحسن ابن خروف ، الأندلسي ، النحوي (ت ٦٠٩ هـ) ^(٤)

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : مات بحلب ، وأنشد له في الكأس :

أنا جِسْمٌ لِلْخُمَيَّا	وَالْخُمَيَّا لِي رُوحٌ
بين أهلِ الظَّرْفِ أَغْدُو	كُلَّ يَوْمٍ وَأَرْوَحُ

وله في نيل مصر :

ما أعجبَ النِّيلَ ما أحلّى شَمائِلَه	في ضفّتيه من الأشجار أرواحُ
--------------------------------------	-----------------------------

(١) بغية الوعاة ٦٦/٢ رقم ١٤٥٣ .

(٢) بغية الوعاة ١٢١/٢ - ١٢٢ رقم ١٥٩٥ .

(٣) بغية الوعاة ١٩٩/١ رقم ١٧٨٣ .

(٤) بغية الوعاة ٢٠٣/١ - ٢٠٤ رقم ١٧٩٣ .

من جنة الخلد فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا وإنمما هي أرزاق وأرواح

(٢٠) علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي الإشبيلي ، أبو الحسن المعروف بابن الضائع (ت ٦٨ هـ) ^(١) .

بالضاد المعجمة والعين المهملة .

قال في «النضار» : له «شرح الجمل» ، و«شرح كتاب سيبويه» ؛ جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن خروف باختصار حسن .

مات في خمس وعشرين من ربيع الآخر سنة ثمانين وستمائة ، وقد قارب السبعين .

(٢١) لبنى كاتبة الخليفة المستنصر بالله الأموي (ت ٣٧٤ هـ) ^(٢)

قال في «النضار» : جارية الخليفة الحكم بن عبد الرحمن ؛ كانت تكتب الخط الجيد ، نحوية شاعرة عروضية ، بصيرة بالحساب ، مشاركة في العلم ، لم يكن في قصرهم أنبل منها .

ماتت سنة أربع وسبعين وثلثمائة .

(٢٢) مالك بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن الفرج ، أبو الحكم ابن المرحل الملقب النحوي الأديب (ت ٥٩٩ هـ) ^(٣) .

له نظم فصيح في ثعلب وغيره . ووقع بينه وبين ابن أبي الربيع في مسألة «كان ماذا» ، فنظم مالك :

عاب قوم كان ماذا ليت شغري لم هذا
وإذا عابوه جهلاً دون علم كان ماذا

وجهله ابن أبي الربيع ؛ وصنف في المنع مصنفًا .

قال أبو حيّان : وألسنة الشعراء حداد ؛ وإلا فلا نسبة بين ابن أبي الربيع وابن المرحل ، فإن ابن أبي الربيع ملأ الأرض نحواً .

مات مالك سنة تسع وتسعين وستمائة .

(١) بغية الوعاة ٢/٢٠٤ رقم ١٧٩٤ .

(٢) بغية الوعاة ٢/٢٧٩ رقم ١٩٥٧ .

(٣) بغية الوعاة ٢/٢٧١ رقم ١٩٦٠ .

ومن شعره :

مَذْهَبِي تَقْبِيلُ خَدِّ مُذْهَبِ سَيِّدِي مَاذَا تَرَى فِي مَذْهَبِي !
لَا تُخَالِفِ مَالِكًا فِي رَأْيِهِ فِيهِ يَأْخُذُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ

(٢٣) منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي ، أبو علي^(١)

قال في «النصار» : كان يشتغل ببجاية في النحو والفقه والأصول ، رحل إلى القاهرة ولازم العز بن عبد السلام ، وسمع من إبراهيم بن مضر وأبي عبد الله بن أبي الفضل المرسى .

(٢٤) يحيى بن يحيى القرطبي الأديب المعتزلي المتكلم المعروف بابن السمينه (ت ٣١٥ هـ)^(٢)

قال في «النصار» : كان متصرفاً في العلوم بصيراً بالحساب والنجوم والطب ، بارعاً في النحو واللغة والعروض ومعاني الشعر والحديث والفقه والأخبار والجدل ، رحل إلى المشرق وفات بها سنة خمس عشرة وثلثمائة .

(٢٥) يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن سعيد بن أبي ریحانة الأنصاري النحوي المالقي ، أبو الحجاج (ت ٦٧٢ هـ)^(٣)

ويُعرف بالمربلي . قال في «النصار» : أخذ القراءات والعربية عن الرندي ولازمه ، وقرأ عليه الكثير تفههماً ؛ ككتاب سيبويه ، والجمل ، والكامل ، والإصلاح ، وأدب الكاتب ، والغريب المصنف ، والحماسة ، وغير ذلك .

وسمع الحديث منه ومن أبي الحجاج يوسف بن محمد الفهرى ، وأبي إسحاق الخولاني ، وأجاز له أبو القاسم الغافقي وأبو الخطاب بن واجب وأبو بكر بن طلحة وجماعة ، وأقرأ ببلده القرآن والعربية ، ثم رجع عن الإقراء ، وأثر الخمول والانزواء ، ثم ولي الخطبة والصلاة بجامع مالقة ، وكان من أهل الفضل والدين والخير .

مات في آخر سنة ثنتين وسبعين وستمائة .

قال أبو حيان : وكتب لي بالإجازة من مالقة .

(١) بغية الوعاة ٣٠١/٢ رقم ٢٠٢٥ .

(٢) بغية الوعاة ٣٤٥/٢ رقم ٢١٤٩ .

(٣) بغية الوعاة ٣٥٣/٢ رقم ٢١٦٨ .

إرثاء الفلك لتحقيق الساعة بربع الشمام والظلال

ل

عبد السلام بن محمد بن أحمد السنخى العلمى

{ ١٢٤٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٣٠ - ١٩٠٥ م }

انتقاه وقدم له : أحمد عبد الباسط *

صاحب هذا النص طبيبٌ عربىٌ مسلمٌ ، وعالمٌ بالميكات ، تخرج فى مدرسة الطب بالقاهرة ، ثم أنشأ مصححةً صغيرةً ببلده « فاس » . ما إن انفتحت حدقته لتنظر إلى هذا الفلك الغريب حتى وجد إرثاً زاخراً خلفه له أجداده من علماء الحضارة الإسلامية . فأجداده هم الذين عرفوا هيئة الأفلاك والمجموعات النجمية ، وهم الذين ابتكروا آلة ذات أوتار لتحديد الزمن فى العروض المختلفة ، وهم الذين اهتموا إلى المزاويل الشمسية المتنوعة لمعرفة أوقات الصلاة وساعات الليل والنهار ، وهم الذين طوروا آلة الإسطرلاب ، واختراعوا التلسكوب ، وهم أيضاً الذين صححوا أخطاء بطليموس الفلكية فى كتابه « المجسطى » ، وهم أول من توصلوا إلى قاعدة الانحراف القمري الثالث .

أولئك أبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أجل ؛ من ذا الذى ينسى بنى موسى ، وأبا الريحان البيروني ، وأبا الوفا البوزجاني ، وعبد الرحمن الصوفى ، والخجندى ، وابن يونس ، ومسلمة المجريطى ، وعمر النخيام ، والبتانى ، ونصير الدين الطوسى وغيرهم كثير !!؟

وبعد ؛ فما نحن نقدم إليك أيها الغيور على تراثه - جهداً أدلى به صاحبه ضمن دلاء من سبقوه فى هذا المضمار ؛ نظر إلى ذلك الميراث الذى سلبناه فى غفوة الليل ، وغلس الظلام ، فحاول أن ينزع عنه شرك العوائق ، وغبرة الزمان ، فأخذ يسير على هديهم ، ويتبع طريقته المثللى .

فما هو يقدم لنا آلة شعاعية طالما تنافس فى اختراعها « جميع الحكماء » ، وحض على النظر فى العلوم الموصلة لذلك كل العلماء ، وما زالت أفكار العلماء تستخرج دُرر

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .

العلوم ، ويُحَقِّقُ المتأخِّرُ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَحْمِ حَوْلَ تَحْقِيقِهِ الْمُتَقَدِّمُ الْفَهْمُ » .

أقول : صنع واستنبط صاحبنا هذه الآلة - التى نقدم لها ، ونُرفق معها نصّها - ليجمع بها أكثر من وظيفة ؛ فمن خلالها يمكن :

أ - معرفة عرض البلد من غاية الارتفاع .

ب - معرفة الميل .

ج - معرفة أوقات الصلاة ، وساعات الليل من النهار .

د - معرفة الجهات الأربعة .

وهذه هى الأبواب الأربعة للنص الذى نرفقه مع تلكم الآلة البديعة ، وكيفية العمل بها ، بالإضافة إلى مقدمة فى تسمية أجزائها ورسومها .

والجدير بالذكر أن هذه الآلة موجودة - بحالة جيّدة - بقسم المخطوطات بدار الكتب والوثائق القومية ، ويمكن لأهل الاختصاص الاستفادة منها بعد التعرف على تركيبها ، وغنيّ عن البيان ما لهذا العمل من فوائد تعليمية جمّة لطلاب المدارس والجامعات ، ولرواد المتاحف وأندية العلوم - إذا ما وُجدَ من يتعهّده بالرعاية والاهتمام .

وختامًا : لا يفوتنى أن أشكر كل من ساعد فى إخراج هذا العمل ؛ وأخصّ بالشكر أستاذى الدكتور أحمد فؤاد باشا ، وقسم المخطوطات بالدار الموقرة : مديراً ورئيساً وموظفين .
والحمد لله وحده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

اللهم يا مفيض بشعة الألهام • على ظلال
الأفهام • ومرشد هابعد الميل والأيهام •
فقد رأت الإبهام • حتى فطفت من زهار •
رياض الإشتياط • بعد بعد في ورج
أفلاك الأرتباط • وسيلة ركن من ركاز
الدين • للراغبين العابدين • وصل اللهم على
سيدنا محمد أفضل المخلوقات وعلى اله وصحبه
صلاة دامة على من لا يموت من الأوقات •
وبعد فيقول العبد الحقير المعترف بالجن

والفقير

والفقير • عبد السلام بن محمد بن أحمد الحسنی
العلی علی الله عنه لما تناقض في اختراع الآلات
الشعاعية جميع الحكاء • وحض على النظر
في العلوم الموصلة لذلك العلماء • وما زالت
أفكار العلماء تشتت في دوا العلم • ويحقق
المتأخر منهم ما لم يحسم حول تحقيقه المنفذ فهو
• وزيانا تخلف العوزف والطرف المعارف
علم يتوصل به إلى معرفة أوقات الصلوات
التي هي عماد الدين • لأنه فرض عين على عقائد
المسلمين • وبراعت الأمانجد والأفاضل
جيلا بعد جيل • وتنافس في تخصيصه
كل رفيع المهمة جليل أفتت النظر في الآيات
السمائية • ولطائف الفلكية • وفق كونا

فطريق الأفلاك وطرائقه • وتأملنا في قائمه
 وحقايقه • من اختلاف أوضاعه • وأصناف
 تشكيل حركه أنواعه • فأرشدنا من منه المسخ
 الإلهي • والمواهب الالهية • التي
 ليست محصورة في قوم • ولا مختصة بيوم •
 لا شتتباط الفروع من الأصول • ليتيسر
 لمن جاء بعدنا الوصول بأن عثرنا على قيمة
 من لجه • مسجلة ببراهينه وحججه • دانية
 الأعمال • قريبة الاستعمال • قليلة الحسب •
 سريعة الجواب • مع قصر باع • وقلة
 اطلاع • وعطر نزر • وفهم قصر • فلما
 استكملت تقوية ما بعد النصب • وطويت
 أعمالها طوى السجل للكتابات جعلته

طرفة

تخفة وهدي • لأعتاب من تعطرت بطيب
 نثاره الأفواه • وبلغ من كل وصف جميل
 غايته ومنتهاه • وبذل في تخصيص
 المعارف الفاس الأخشان • وأوفد اليه
 أربابها من جميع البلدان • واشترقت بأفقه
 شمس اللطائف • وصارت أرجاؤه
 كحبة علم فكم بهما من طائف • ذوا المناقب
 الفاخره • والعطايا الجنبه الزاخره • من
 عم البرية نفقه • واشتهر بالمشرق والمغرب
 مجده • اعنى سعادة عزرائيل والأقطار الصرية
 • وحامي ديار النيلية والسودانية •
 أمير الأفراء • وسيد الوزراء والكبراء •
 الخديوي الأعظم أصغرهم

لازالت الارواح تذتعتش بنبحات الآله
 انفاثا . ولازالت شمس ولاينه امنه
 من الكسوف . وبدورد واوبنه حروسة
 من الحسنوف . ولازالت عساكر قائمة الى
 الأبد . خرعة انف من كهر ومجد . بجاء
 مستيد المرتلين . آمين يارب العالمين .
 وقد سميت هذه النبذة المشتملة على
 كيفية العمل بهذه الآلة الحق استنبطها
 فنحن الفاترة . وفهمنا الباشا ارشادنا للظل
 لتحقيق المشاعة بربع الشعاع والظل
 وهي منحورة في مقدمة واربعة ابواب

المقدمة

في تسمية اجزائه ودرسومه . امّا المخور

ويسمى قطب المورى فهو المغزل المركب في طرف
 الربيع الاخذ من جهة يمين الناطر اليه الجهة
 شماله المكيب في رأسه مصرى الساعات .
 وهي ذنبه الزيادة الحزوظة الحق يحث منها
 عند ارادة معرفة الوقت وامّا السهم فهو
 المشاخص التقاة عليه المرتبط بوسطه
 الحاد الراس ليعلّم به على درجة الميل وباصله
 سطح دائرة صغيرة ليقع عليها الظل عند
 ارادة الغلامه وامّا الساعات فهي الاربع
 والعشرون المرسومة بدائرة الصفر
 القائمة على جنب الربيع من جهة يسار الناطر
 اليه النافذ في وسطها رأس المحور المركب
 فيه المرى وامّا قوس الارتفاع فهو المحيط

بالربع المقسوم ويتسعين فتماماً مستساوية
مكتوباً عليها اعداد هاطح او عكسا ومركزه
هو محل الحيط واما قوس الميل فهو القوس الصغير
القريب من مركز الربع وهو مركزه ايضا مقسوماً
بعدد اذراج الميل الكلي الذي هو كج ل تقريبا
واما القوس الثاني للميل فهو الذي في وسط
الربع الذي يحاسبه الشهم عند مركزه فيه
مقسوماً بضعف الميل الكلي وبوسط هذا
القوس خط ينصفه يسمى خط الاعتدال
لكونه فاصلا بين الميل الجنوبي الذي هو ممتنه
جنوباً وبين الميل الشمالي الذي هو ممتنه شمالاً
واما قوس الوسط فهو القوس الذي في ثخن الربع
تحت القوس للميل وموازياً له وقد يحدف من بعض

الارباع

الارباع اذا كان القوس الثاني للميل قائماً مقامه
واما الحيط والشاقول المرتبطة به فليس يحذف
والله تعالى اعلم الياب الاول في معرفة
عرض البلد من غاية الارتفاع حرك يدك
حتى تستوي اظل والشعاع في وجه الربع وفي
وجه دائرة الساعات فاقطعه بالحيط حيث تد
من اول القوس فهو الارتفاع فاستخرج الغاية
برصده ثمران لم يكن ميل قائماً منها الى التسعين
هو عرض البلد وان كان ميل فرد على تمامها
ان كان فخالفاً لها في الجهة وخذ الفضل
ان كان موافقاً فاك ان فهو عرض البلد والله
تعالى اعلم الياب الثاني في معرفة الميل الاول
وكيفية التعليم عليه برأس الشهم في القوس

الشمس في بلد
المرور في بلد
تحت خط الساعات
والمرور في بلد
الشمس في بلد
المرور في بلد

الثاني لليل في قوس الارتفاع مقام منطقتي
 فلك البروج طردا وعكسا واجعل قول القوس
 هو اول الحمل فيكون اول الحمل والميزان من اول
 القوس واول الجدي والمترطان من اخره
 ثم وضع الخيط على درجة الشمس من قوس
 الارتفاع فاقتطعه للخيط من قوس الليل
 فهو ميل الشمس وهو شاذ ان كانت الشمس
 في ستة الحمل وجنوبي ان كانت في ستة الميزان
 فابعد بقدره عن خط الاعتدال في جهته
 من القوس الثاني لليل وعلم على ذلك البعد
 برأس الشمس فيكون مسامتا لما راى الشمس
 في ذلك اليوم والله اعلم وهو الملام الباب
 الثالث في معرفة اوقات ساعة انت من ساعات

النهار

النهار وكه مضى منها ضع رأس الشمس على قوس
 الوند وليكن مسامتا لدرجة ميل الشمس
 في جهته من جنوب وشمال ثم علم بالموزن على
 الساعة الثانية عشر التسعة وهي اول
 من غير ان تحرك المحور ويكون رأس الموزن
 مرتفعاً عن صفيحة الساعات عند دونه
 عليها لا يماسها فحفل بالعمل ثم امسك الوتر
 بيدك وعلق في خيطه شاقولا وحركه
 بيدك حتى يقطع الخيط من اخر قوس الارتفاع
 عرض البلد الذي انت فيه ويكون الخيط
 لا دخلا في الربع ولا خارجا عنه ثم حرك المحور
 من ذنبه الخ ووطداهما رأس الشمس في
 جهة المشرق والاولى ان تكون مواجها لذلك

رسمه الملام في
 حنة خلال النسخ الى
 الربع وجمعة النسخ الى
 خطه ليس النسخ الى

الجهة تحقيقاً وتنجيماً ولا تزال تحرك المحور حتى
يقابل رأس الشمس الشمس مشرقاً كانت ومغرباً
ولذلك عدم ظله بأن لا يكون ظل أصلاً على سطح
الدائرة التي في أضله ويكون الحيط على عرض
البلد من آخر القوس كما ذكرنا وهو تمام العمل
فإن ترك ذنب المحور حينئذ يبلطف واختر
ما قطعته المرى من التناوعات فذلك الماضى
من نصف الليل فإن كان أقل من اثني عشر
ساعة فانت قبل الزوال والافبعد ه اعني
مواقفاً سير المجانة المرسله من وقت كون
الشمس على دائرة نصف النهار من غير صرف
ولا عمل وهو هذا العمل عام في جميع العروض
وجميع الأزمنة فاعمله والله تعالى اعلم

وهو

وهو المالم لأرب غير متبنيه لا بد من
أن يكون وجه الربع مظلاً قبل الزوال ونيراً
بعك ويعرف قبله وبعد من قبل زياده
الارتفاع ونقصانه بعمل الباب الاول تبنيه
آخر قد يكون في ظهر بعض الأرباع قوس
مثل قوس الارتفاع يعتبر من أوله العرض
أن كان الوقت قبل الزوال فيكون العمل به
اسهل الباب الرابع في معرفة الجيب الرابع
اعلم أن سطح الربع عند الغد وظل الشخص
يعمل الباب الثالث يكون قطعة من سطح
دائرة نصف النهار فحذبه إذا
خطت في الأرض خطاً موازاً للسطح
الربع وهو على تلك الحالة كأنه هو خط الزوال

ورأسه الموالى لجهة آخر القوس هو عين .
 الشمال قائم عليه خطا على زوايا قائمة
 يكون هو خط المشرق والمغرب وقت
 اتخذت الجهات الأربع فابعد عن عين
 المشرق والمغرب بقدر سمت قبلة تلك
 في ربعه يحصل سمت القبلة والله تعالى

اعلم

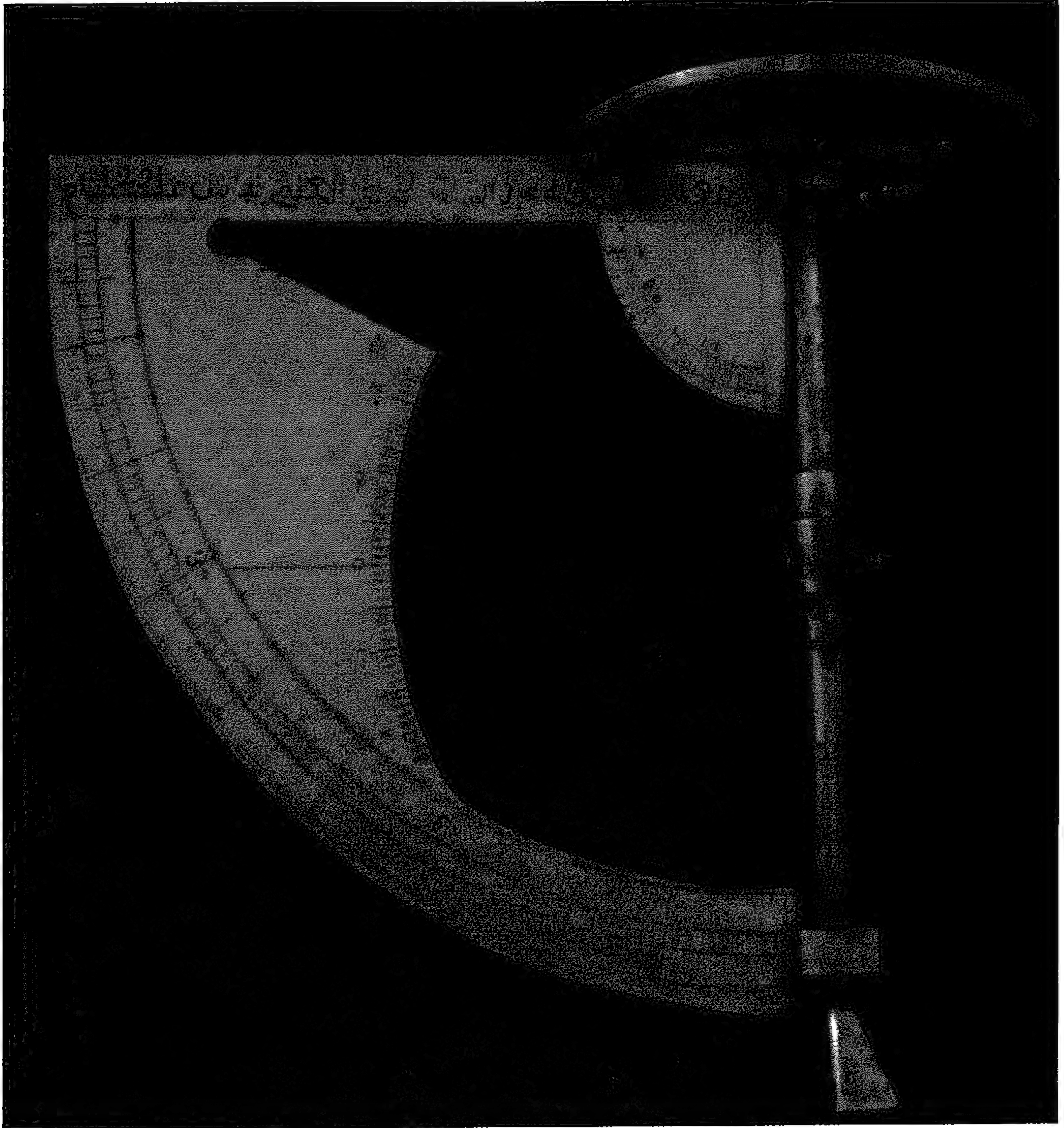
ثم بحمد الله وعونه

وحسن

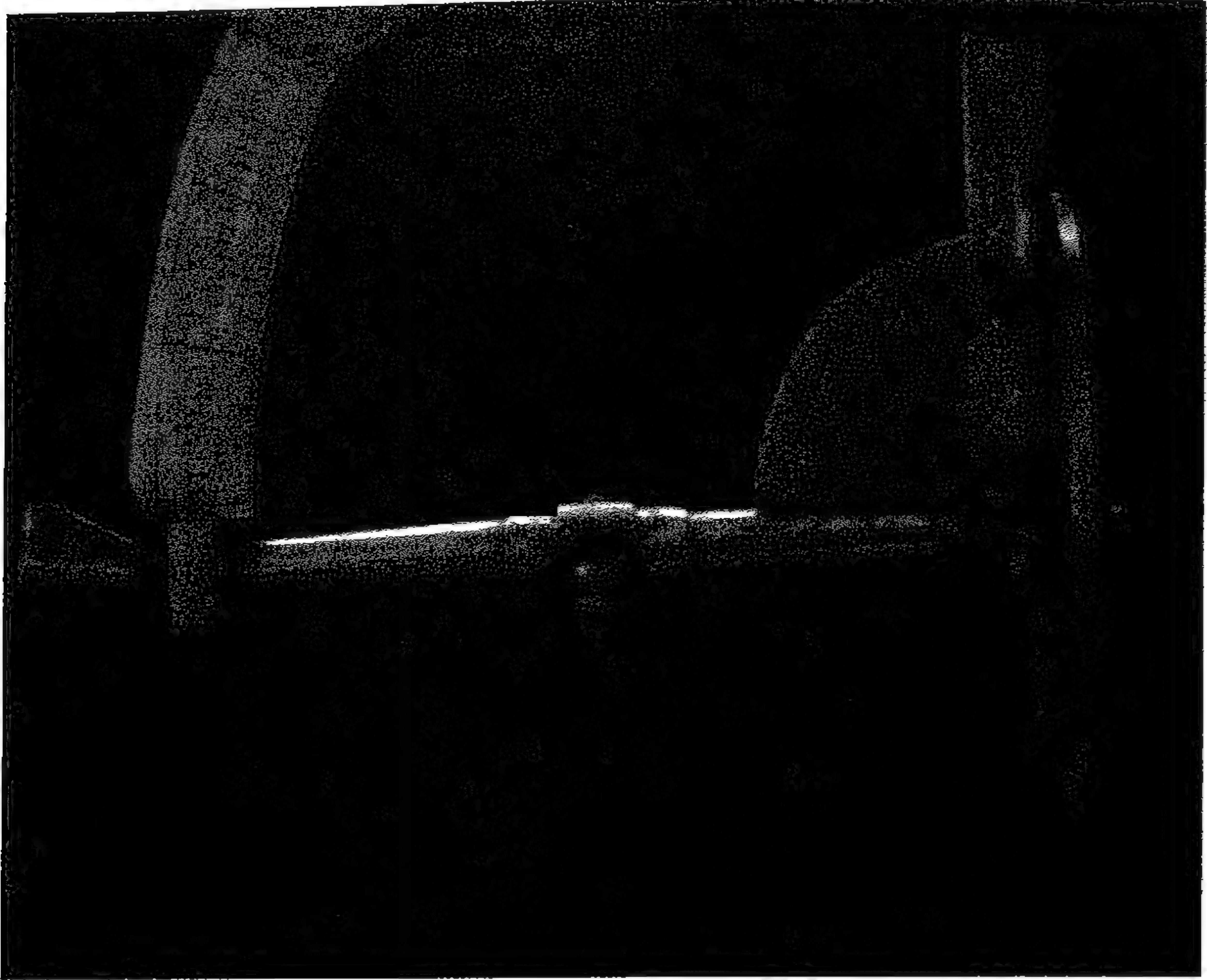
توفيقه

م

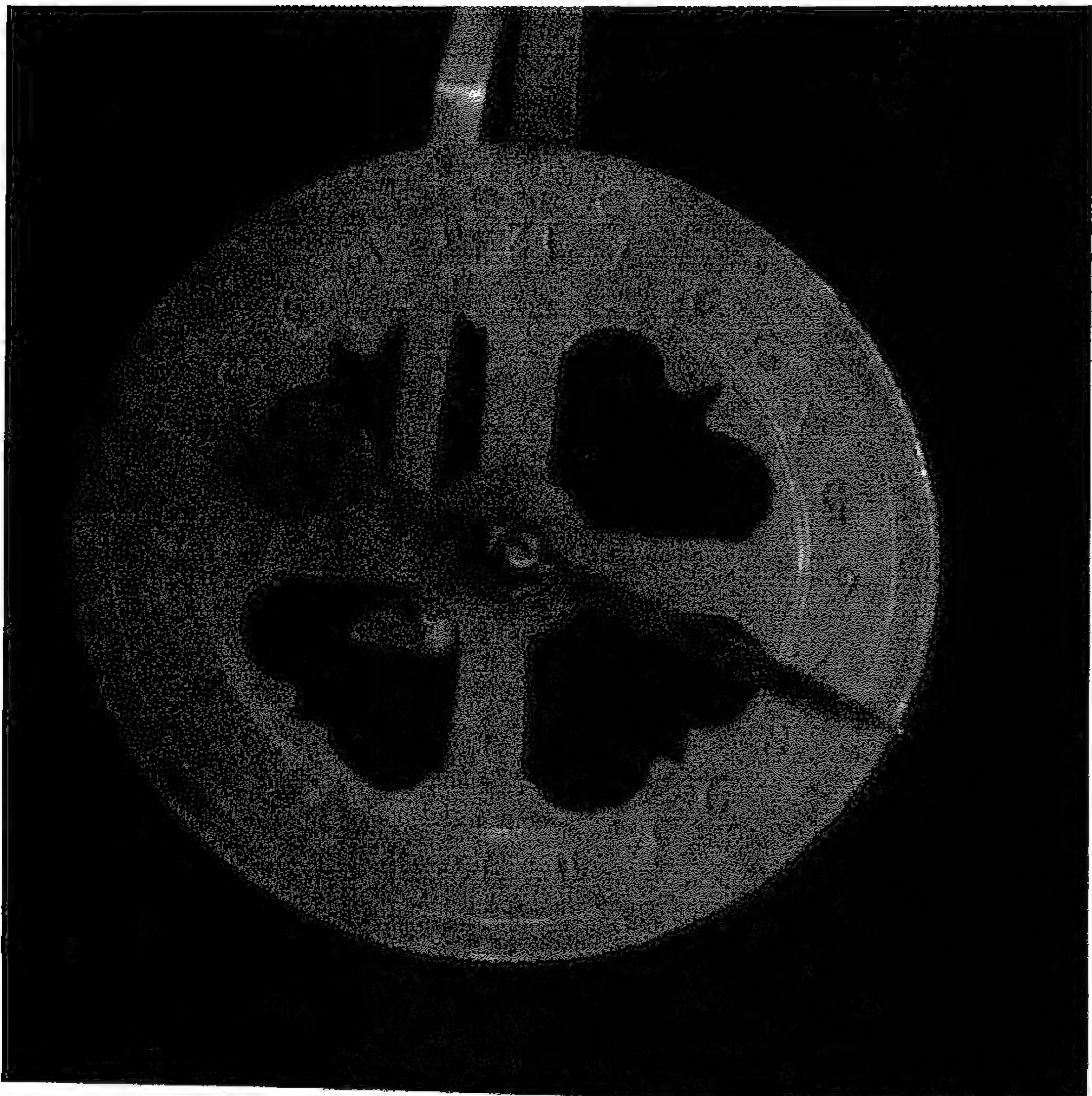




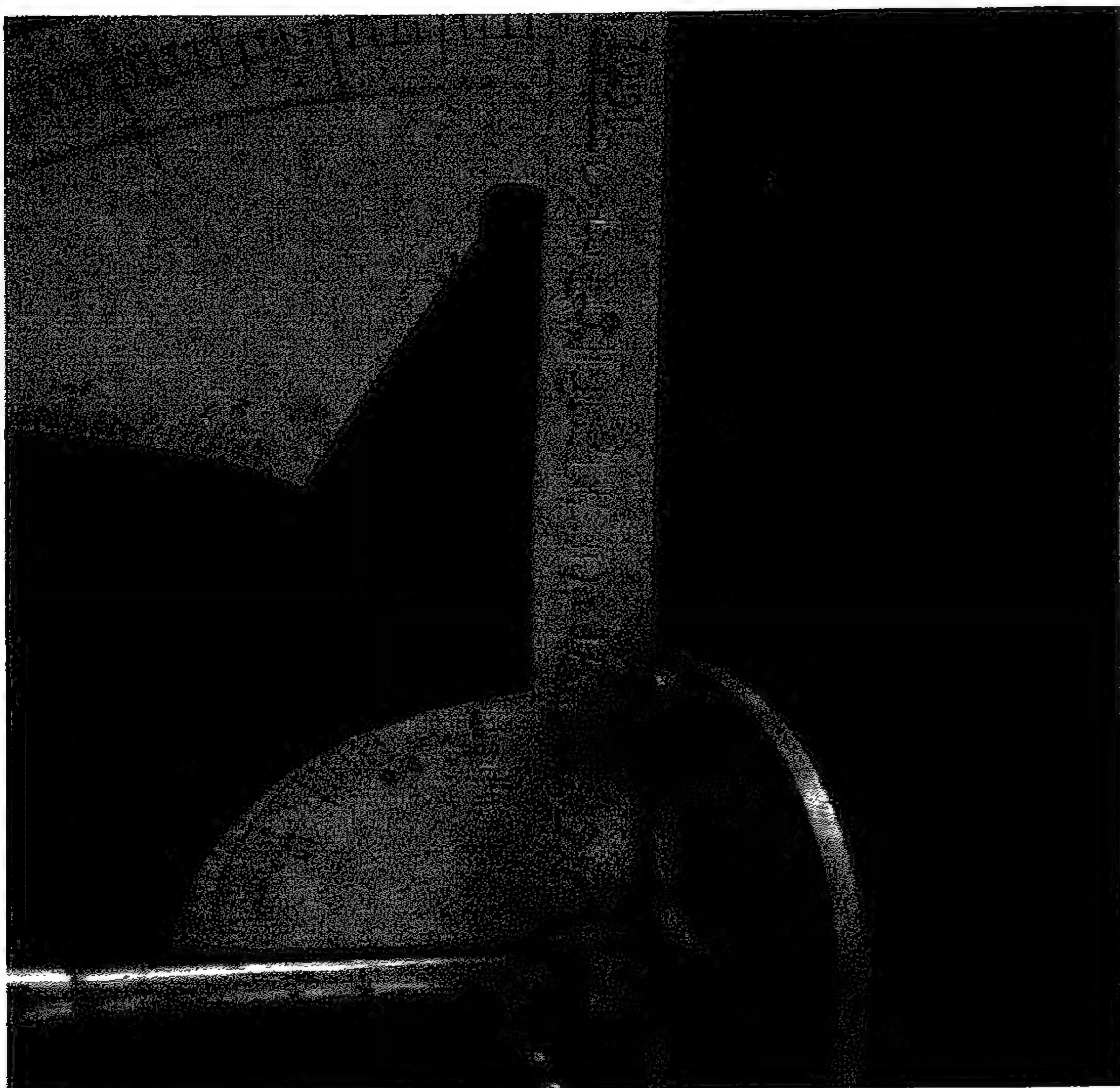
صورة مجملة وفيها يظهر بوضوح قوس الارتفاع والميل والوتد



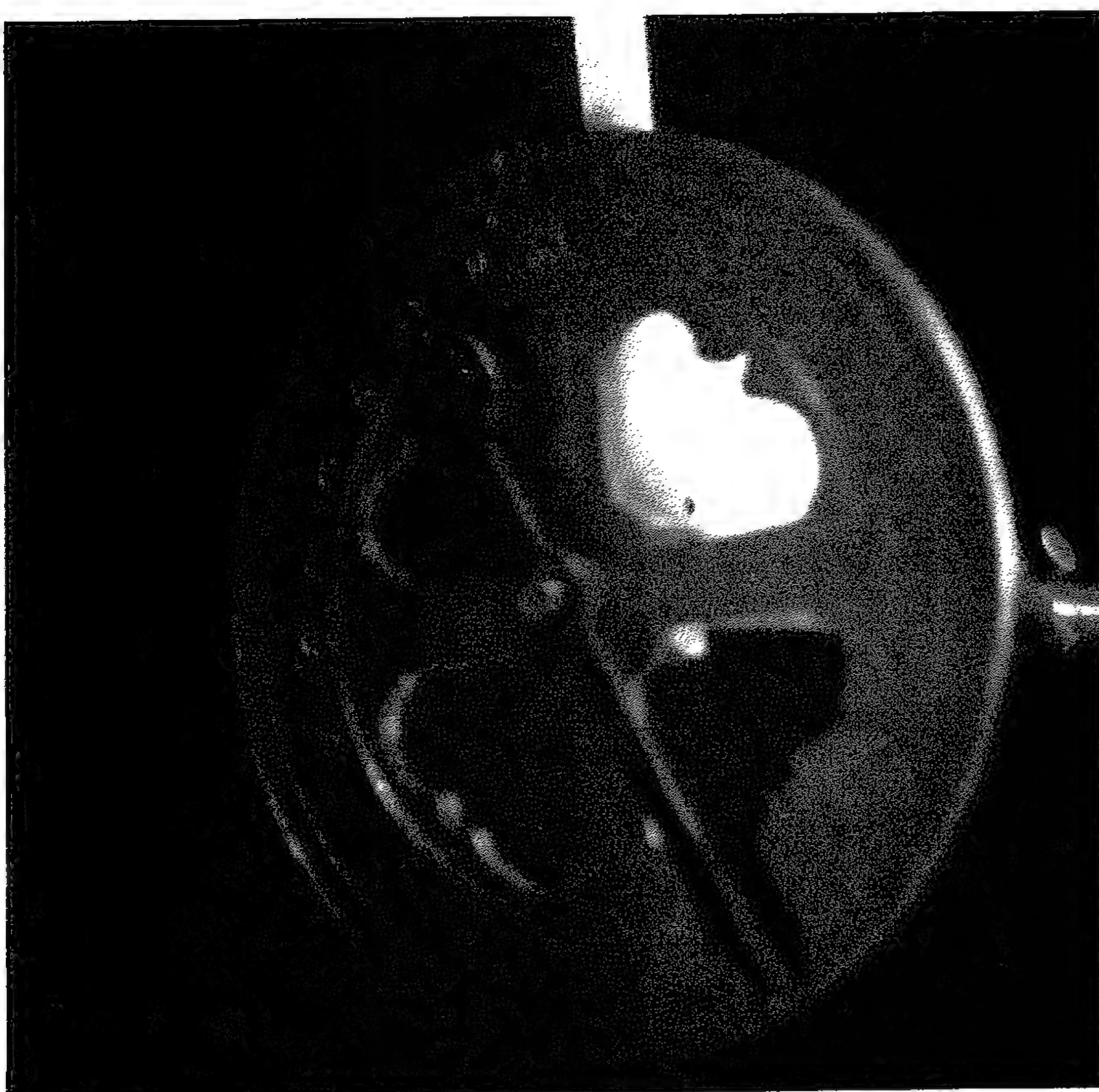
محور الآلة (قطب المورى)



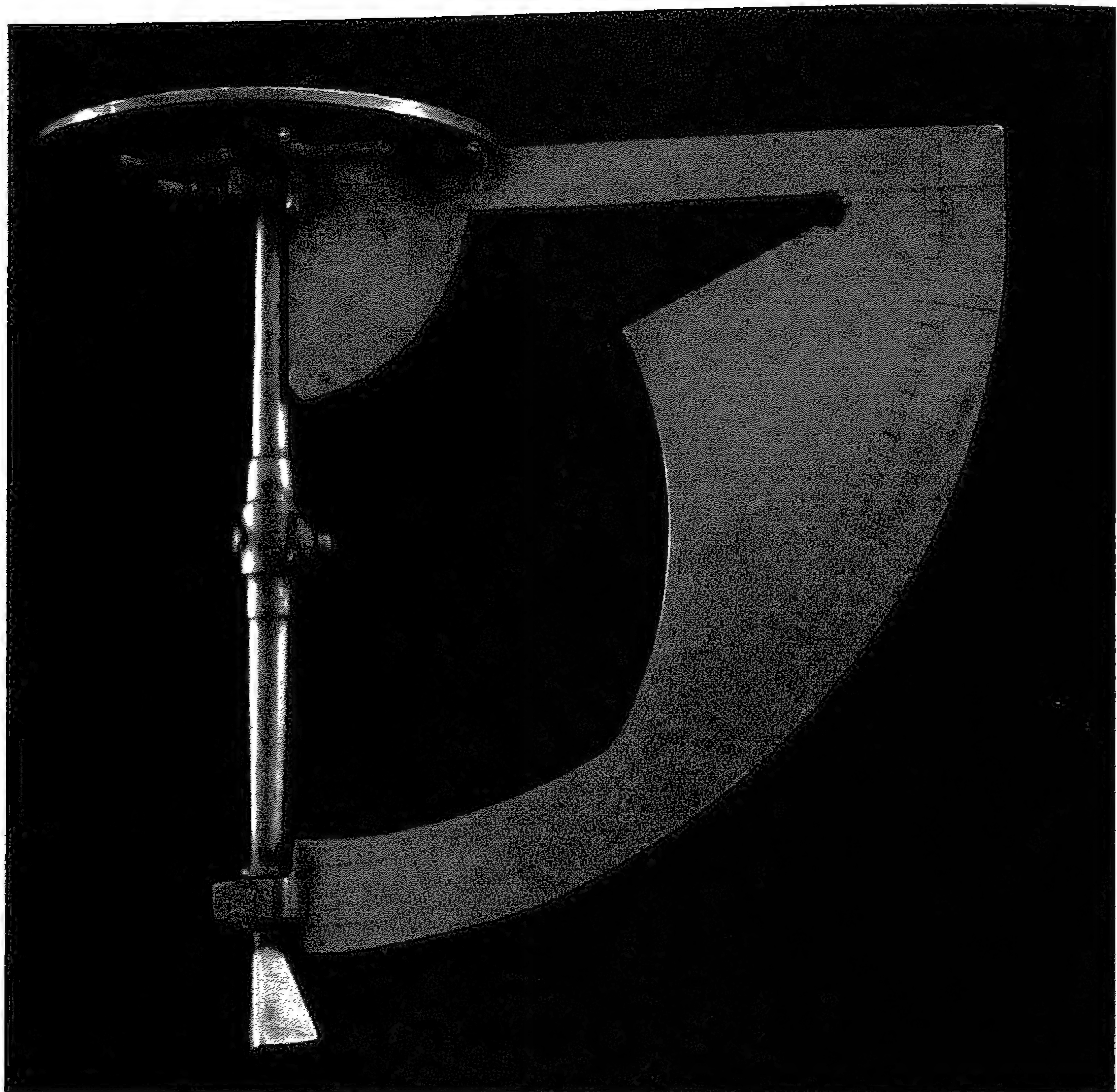
مري الساعات وفى وسطها سهم قائم



الجزء العلوى من قوس الارتفاع ، وقد حفر عليه ما نصه :
(صنعه مستنبطه عبد السلام الحسنى العلمى بفاس عام ١٢٩١ هـ)



صورة أخرى من مرى الساعات، وقد قُسمت فيها الساعات إلى أربع وعشرين ساعة



صورة خلفية للآلة

متابعات نقطية

تاريخ خزائن المختب بالمغرب

قراءة فتح مختار د . بنين

د . فيصل الإفياح*

لست أدري هل ما سأكتبه قراءة لكتاب ، أم استبطان لما فى عقل مؤلفه ، أم أشياء من هذا وأشياء من ذاك . ولست أدري إذا ما كان هذا الخليط ، كفة أيهما ستكون أرجح ؟ كما أنى لا أجزم : هل هو قراءة موضوعية لكتاب بعينه ، أم قراءة ذاتية تتكى على كتاب ، ثم تتجاوزه إلى هموم التراث وقضاياه عامة .

أترك ذلك الآن ، لكنى متأكد تماماً أن الأمر أيًا ما كان فإنه لن يخرج عن حديث فى «هم التراث العربى الإسلامى فى المغرب» ، وهو هم يعدُّ صدى لهم توأمه فى المشرق . وكأن شجون الحديث المغربى هى - فى الوقت نفسه - شجون الحديث المشرقى . كلنا فى الهم - إذن - شرق أو غرب ، لا فرق .

وفاتحة الحديث أنه ما كان لتراثي أو معني بالتراث أن يقع فى يده كتاب يحمل عنوان «تاريخ خزائن الكتب فى المغرب» حتى يقرأه . فإذا ما أضيف إلى ذلك أن صاحب الكتاب هو د . أحمد شوقى بنين ، أصبح وادًا أن يحدث انتقال من فعل القراءة ، قراءة الكتاب ، إلى فعل الكتابة ، الكتابة عن الكتاب . وإنما يحدث هذا الانتقال لأن كتابًا بهذا الموضوع - وبخاصة لنا نحن المشاركة - لمؤلف مثل د . بنين ، لن تقنع منه بالقراءة التى قد تغرى بالسرعة ، وستجد نفسك - دون تردد - ميالًا إلى التلبث عنده طويلاً ، فتشرع ببناء علاقات لا تلبث أن تتفاعل ، فتحرك مياهاً راکدة ، وتستثير فكراً ، وتكون النتيجة أن تفرض الكتابة نفسها فرضاً لا تُجدى معه مقاومة .

* * *

الكتاب - كما نعرف - وعاء يلخص رحلة العقل الإنسانى مع المعرفة ، وما تعنيه من حضارة وتقدم . وهو - فى الوقت نفسه - يدفع العقل فى علاقة جدلية إلى رحلات أخرى ، وعوالم جديدة . وعليه فإن التأريخ له هو تأريخ للعقل البشرى ، ذلك السر الإلهي الذى استودعه الله الإنسان ، الإنسان وحده ؛ ليعمر الأرض ، ويجعل منه خليفة فيها . كأن التأريخ للكتاب هو تأريخ لأسمى ما يملكه الإنسان ، وما يميزه من المخلوقات .

(*) باحث فى قضايا التراث والعربية ، ومنسق برامج معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) .

ود . بنين واحد من نفر قليل مهموم بالكتاب ، مشغول به ، وخاصة ذلك الكتاب «القديم» الذي عُرف بعد ظهور الطباعة بـ «المخطوط» في العربية ، وبـ «manuscript» في الإنجليزية ، وبـ «manuscrit» في الفرنسية ، تمييزاً له من الكتاب الآخر الذي عرفناه بعد ظهور المطبعة .

ويمكن أن ننتع المخطوط محطّ عناية د . بنين بـ «العربي الإسلامي» . ويمكن أن نصيف نعتاً آخر «المغربي» ، وذلك أنه دَرَس دراسة أكاديمية معمّقة هموم هذا الكتاب «المخطوط» عامة ، ومنعوتاً بنعوته أنفة الذكر خاصة ، بوصفه وعاء للمعرفة ، وهي دراسة وصلت إلى مرحلة متقدمة في الغرب ، في حين لا تزال تحبو عندنا . على أن دراسته هذه لا تعني عدم تمكنه مما يحتويه هذا الوعاء من معرفة لغوية وأدبية وإخبارية ودينية ، فالرجل مثلاً على صلة وثيقة بابن الفارض ، وحقق ديوان شاعر الحمراء ، إنه باختصار منفتح على التراث بمختلف فروع المعرفة ، لكن تميزه الأساس في ما يُسمّى بـ «علم المخطوط العربي» أو «الكوديكولوجيا العربية» هذا اللون من الدراسة الذي لا يزال - على الرغم من خطره - نقطة مجهولة أو تكاد على خريطة المعرفة العربية اليوم .

والحق أن قراءة كتاب د . بنين والجمولة في عقل الرجل أشبه بمغامرة على خشبة ألقيت في بحر هائج في يوم عاصف ؛ إذ الرجل كما نعتُ لك . أما الكتاب فليس كتاب تاريخ ، ولا كتاب ثقافة ، ولا كتاب علم بعينه ، بل هو كتاب يجمع هذا كله وزيادة ، فالتاريخ فيه تاريخ الفرد ؛ الخليفة والأمير والوزير والعالم والفقير والأديب ، وتاريخ الدولة ؛ الإدريسية والسعدية والوطاسية والمرينية والعلوية ، وتاريخ الكتاب ؛ الذي نعرف عنوانه ومؤلفه ولم نره ، أو نعرف عنوانه ونجهل من ألفه ، والمؤسسة (الخزانة أو المكتبة) التي أنشأها ملك ، أو خليفة ، أو أمير ، أو امرأة ، أو رجل من عامة الناس . والثقافة فيه ثقافة قديمة وحديثة ، تعرّفك بالرجال وأثارهم وعلاقاتهم وحركاتهم وهواياتهم واتجاهاتهم ، كما تكشف لك عالم الكتاب ؛ القديم والحديث ، الذي كتبته يد الإنسان ، والذي طبعته المطبعة ، خطوطه وأنواعها ، وصناعاته وطرقها ، وأحباره ووسائلها ، ومواد كتابته وتطورها ، وأموراً أخرى كثيرة . وفي ثنايا ذلك قضايا علم المخطوط العربي : الوراق ، والفهرسة ، والوقف ، والترميم ، والمخطوطات النادرة ، والفريدة ، والمنتسخة بأقلام مؤلفيها ، والخزائنية ، والملكية ، بل حتى تلك المترجمة من اليونانية واللاتينية إلى العربية . وإلى جانب ذلك ثمة قضايا لا تقل أهمية تتصل بتنظيم المؤسسات العلمية عبر العصور ، ووظائف القائمين عليها ، وعلاقاتها مع الجمهور ، والإجراءات القانونية لحركة الكتب فيها .

عوالم من المعرفة المتشابكة المعقدة ، لكنها ممتعة ؛ لأنها تأخذك إلى عالم الإنسان وعقله في رحلة مثيرة ، وإن كانت متعبة .

إن قراءة كتاب «تاريخ خزائن الكتب بالمغرب» مغامرة ، ليس في ذلك مبالغة ولا تهويل ، ولذلك كان لابد أن أضع في الطريق صُوى تهديني حتى لا تتحطم تلك الخشبة الضعيفة ، والمغامر لما يبعد بعد عن الشاطئ .

أولى هذه الصُوى أن أقدم الكتابَ بـبليوغرافيًا بتركيز شديد ، تحت عنوان «قبل الولوج» .

وثانيتهما أن أدخل عقل مؤلفه من خلال مقدمة كتابه .

وثالثتها أن أعرض محتواه .

ولكن كيف يتأتى لي ذلك في ظل هذا التشابك الذي أشرت إليه آنفًا ؟ وبرق في ذهني بعد طول تفكير أن أدخل إلى الكتاب من أبواب عدة ، باب أدلف منه إلى المادة التاريخية ، وباب ألج عبره إلى ما يتصل بالخزائن ، وثالث أمور تتصل بالجغرافيا .

وما دمت قد فتحت تلك الأبواب على المادة ، فلا بأس إذن من فتح نوافذ ألقى عبرها نظرات نقدية . وبعد تطوافي ذلك تأتي الخاتمة .

هذه إذن قراءة سريعة للكتاب ، تحاول أن تلج إلى عوالم مادته من أبواب مختلفة ، وتنظر إليها من زوايا محددة ، بغية اللفت إلى ما فيها ، دون أن يعنى ذلك أن هذه الإشارات تغنى عن العبارات .

ويحسن التنبيه هنا إلى أن طبيعة هذه القراءة التي أعربت في مطلع كلامي عن حيرتي تجاه كونها قراءة لكتاب أم استبطانًا لما في عقل صاحبه ، قراءة موضوعية أم ذاتية .. خلطت بين كلامي وكلام الكتاب ، وجعلت منهما نسيجًا واحدًا ، يعكس هماً مشتركًا .

- ١ -

قبل الولوج

هذا كتاب صدر مؤخرًا (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) عن الخزانة الحسنية بالرباط (المملكة المغربية) لمؤلفه د . أحمد شوقي بنبين محافظ الخزانة . وقد قام بنقله د . مصطفى طوبى (تلميذ د . بنبين) من الفرنسية ، بعد أن ظل أسير هذه اللغة نحوًا من سبع عشرة سنة ، بعيدًا عن عيون المثقفين العرب والمسلمين .

والكتاب فى الأصل هو الرسالة الأكاديمية التى حصل بها د. بنين على درجة دكتوراه الدولة فى الأدب من جامعة بوردو الثالثة (فرنسا) عام ١٩٨٦ ، تحت إشراف الأستاذين : روجى أرنالدى (Roger Arnaldez) ومارك برجى (Marc Berger) ، وكانت تحت عنوان^(١) : Histoire des bibliothèques au Maroc والترجمة العربية التى قام بها طوبى (موضوع هذا البحث) هى أيضاً رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه ، تحت إشراف د. بنين .

وقع الكتاب (النسخة العربية) فى (٣١١) صفحة من القطع المتوسط ، مصدراً بتقديم د. بنين نفسه ، ثم مقدمة المترجم ، ثم تقديم للأستاذ المشرف روجى أرنالدى ، ثم مقدمة للدكتور بنين مرة أخرى ، وهذه الأخيرة هى مقدمة أطروحته بالفرنسية ، وقد قام المترجم بترجمتها إلى العربية .

وجاءت المادة فى بابين كبيرين : أولهما تحت عنوان «خزائن الكتب فى التاريخ الثقافى للمغرب» . وثانيهما تحت عنوان «بنية خزانات الكتب بالمغرب» . وقد شغل الباب الأول الصفحات من ٢١ حتى ١٧٢ ، والثانى من ١٧٥ حتى ٢٨٢ . ثم جاءت الخاتمة فى صفتين (٢٨٣ ، ٢٨٤) . وأعقبها ببليوغرافيا بالمراجع العربية ، والمقالات ، والفهارس والقوائم الببليوغرافية ، ثم مراجع باللغات الأجنبية ، فمقالات من مجلات أو دوريات ، وفهارس وقوائم ببليوغرافية باللغات الأجنبية أيضاً ، وأخيراً جاء فهرس المحتويات .

نعود إلى الباب الأول ، فنجد موزعاً فى أربعة فصول : الأول لبدايات خزائن الكتب فى المغرب ، والثانى لنموّ خزانة الكتب المغربية وتطورها ، والثالث لازدهار خزائن الكتب فى المغرب ، والرابع تحت عنوان «من المكتبة التقليدية إلى المكتبة العصرية» .

أما الباب الثانى ففيه أيضاً أربعة فصول : محنة المكتبة المغربية ، وقف الكتب فى المغرب ، الوراقة وخزائن الكتب ، مخطوطات المكتبات المغربية .

باختصار شديد يمكن القول إن الكتاب يعرض لنقطتين رئيسيتين : أولاهما تاريخية صِرفة . وثانيتهما موضوعية صِرفة . ولعل فى كلمة «صِرفة» بعض التجاوز ، وفى ثنايا التاريخ مسائل موضوعية ، وفى ثنايا الموضوعية أحياناً تاريخ ، لكن السمة المنهجية الغالبة هى أن يظلّ التاريخ على حدة ، والموضوع على حدة . وما هذا فى ذاك ، وذاك فى هذا إلا من قبيل التداخل الطبيعى اللازم فى سياق توضيح الفكرة ، ومدّ أبعادها ، وتحقيق الاكتمال لها .

(١) طبعت فى الرباط ، عام ١٩٩٢ م .

- ٢ -

داخل عقل المؤلف

كتب د . بنبين لكتابه مقدمتين : الأولى - وإن جاءت تالية - هي التي كتبها بالفرنسية في العام ٨٥ عندما قدّم رسالته . والثانية - وجاءت أولى - هي التي صدر بها الطبعة العربية . وثمة خيط لا تخطئه عين في الاثنتين معاً ، يتمثل في مقدار الجهد الذي بذله في سبيل بحثه . فما قام به كان «مهمة صعبة» أو «مخاطرة كبرى» على حدّ تعبيره ؛ وذلك لأن تاريخ خزائن الكتب ليس باباً خاصاً في تراثنا الحضاري . وهذا يعنى أنه لا يتمتع بمصادر مستقلة يمكن استقراؤها والرجوع إليها ، لكنه داخل في نسيج المعرفة التراثية بصنوفها وألوانها المتعددة ، وبخاصة تلك المعرفة التي تتصل بما يعرف بكتب التراجم والأثبات والمشیخات والمعاجم والرحلات ، على أن ما هو مبثوث في ثنايا هذه المصادر ، لا يبيلُ صدى ، ولا يشفى غُلةً ، كما يقولون .

مَنْ المسؤول عن هذا الإشكال ؟

يرى د . بنبين أنه «التاريخ الذى أخفى عنا جزءاً كبيراً من أمجادها (أى المكتبة) وتغيراتها . والإشكال كما عبرتُ عنه هو - فى رأيه - نوع من التدليس . وهو ميزة حضارة لم تتكلم بما فيه الكفاية عن منشأتها المادية ومؤسّساتها»^(١) ، كأن المتهم هو التاريخ أو الحضارة . وهذا حقٌّ ، فالتاريخ - كما نعلم - ليس رجلاً كريماً دائماً ، فهو يضنُّ ، وربما يُخفى كثيراً مما يعرف . وليست سمة البخل هذه قاصرة على التاريخ العجوز (القديم) ، فالتاريخ الفتى أو الشاب الذى نعيشه أو نعيش فيه يخفى أيضاً تحت إهابه الكثير ، ولا يبوّح إلا لمن يملك النظر والصبر والقدرة على الاستقراء والموازنة والغوص فى ما وراء السطور والأحداث وما فوقها وما تحتها .

لكن ما ذهب إليه د . بنبين ، وما وافقته عليه ، فيه تجاوز . فالتاريخ أو الحضارة ليس سوى شخصية هلامية ، أو بالأحرى هو ليس شخصية حتى تفعل ، الذى يفعل حقاً هو الإنسان ، يخلط الأوراق ، ويزيفها ، ويزورها ، ويضيعها ، ويخفيها ، وربما يحرقها ، عن حسن نية حيناً ، وعن سوء نية غالباً .

ويبدو أن المؤلف كان مدركاً لهذا التجاوز ، ولهذا فإنه في غير موطن من صلب الكتاب^(١) يحمل المسؤولية صراحة للإنسان المغربي ، والمقصود به هنا : الإنسان العالم تحديداً ، فهو لم يهتم بتاريخه إلا لماماً . وليس د . بنين بدعاً في ذلك ، فهو يتابع في هذا الكثير من الكتاب المغاربة المتأخرين ، ومنهم أحمد بابا ، والمقرى ، ومحمد العربي الفاسي ، واليوسى ، والكتانى .

وإذا كان المؤرخون المغاربة قد اتهموا من سبقهم بصورة مباشرة باللامبالاة إزاء تاريخ بلادهم وثقافتها ومؤسساتها العلمية ، فإن هناك متهماً أو متهمين آخرين ، هم أولئك الذين ضيعوا ما كتبه العلماء والمؤرخون ، فثمة مخطوطات كثيرة فُقدت ، لأسباب كثيرة ، ليس هذا موطن تفصيل القول فيها ، لكن المؤكد أن وراء هذه الأسباب غالباً «الإنسان» مرة أخرى ، قد يكون مغريباً ، وقد لا يكون ، لكنه الإنسان .

وما قلناه آنفاً بشأن التراث المغربي ، والمؤرخين المغاربة ، والتاريخ ، والإنسان عامة ، هو ما يمكن أن يقال عن التراث في المشرق ، والمؤرخين المشاركة ، والتاريخ ، والإنسان عامة ، لا فرق كبيراً بين الحالين .

نعود إلى مقدمتي الرجل ، فنقول إن من يقرأهما سيجدد عدداً من المقولات «الشوقية» (نسبة إلى المؤلف) التي صدر عنها في أطروحته ، ولها امتدادات في كلامه الآتى جميعاً . وقد قمت باستخراجها نظراً لأهميتها ، فهي - إلى ما سلف من خطرهما في الكتاب - ترتبط بقضايا تراثية عامة ، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية :

- غنى تراث المغرب .
- تكامله مع تراث المشرق .
- تقديس المغاربة للكتاب .
- تقصيرهم تجاه تراثهم .

وإنما استخرجت هذه المقولات ؛ لأن د . بنين في كتابه كان أقرب إلى الوصف منه إلى التحليل ، وقد اعترف بذلك فقال : «إن بحثنا لم يصل إلى المكانة التي يطمح إليها . . . وتهيمن على البحث الذي نقدمه المعرفة الواصفة ؛ لأننا اعتبرنا أن الابتداء بالتحليل أمر غير مناسب ، فالتحليل - في نظرنا - ما زال سابقاً لأوانه . . . ونحن نذهب إلى أنه

(١) انظر مثلاً : ص ٣٧ ، ٨٧ .

حتى المظهر الوصفى ما زال بعد لم يستنفذ (كذا) .. وإنما كان ذلك كذلك بسبب غياب «الكتالوجات» والفهارس والببليوغرافيات .. إلخ»^(١) .

وهذا حق ، فالتراث فى المغرب (موضوع بحث د . بنين) ، بل التراث العربى فى المشرق والمغرب على حد سواء ، بحاجة إلى جهود كثيرة حتى تتضح معالم خريطته وتضاريسها . وعليه فإن الوقت مبكر فيما يتعلق باستخراج النتائج وإطلاق الأحكام ، والانتقال من مرحلة الوصف إلى مرحلة التحليل .

المقولات التى استخرجناها إذن مهمة ؛ لأنها تكشف لنا عن رؤية د . بنين للتراث وقضاياها وما يتصل به فى بحث وصفى ، لم تمكنه المصادر من أن يحقق غاياته ، ويصل إلى أبعد مدى فى ما يطمح .

٢ - ١ : غنى تراث المغرب

يؤمن د . بنين بغنى التراث العربى الإسلامى فى المغرب ، وهو إيمان حق ، يشاركه فيه الكثيرون ، والشواهد عليه كثيرة ، فى صدارتها ما يحتفظ به المغرب حتى اليوم من مخطوطات فى خزائنه الملكية ، والخاصة ، والعامة ، ومساجده ، وزواياه ، وهذا - كما يقول - دليل مفحم على اندماج الأقطار البربرية فى الحضارة العربية الإسلامية على مستوى التأليف منذ القرون الأولى للهجرة^(٢) .

إن «تراث المغرب» غنى على أصعدة مختلفة ، وفى مستويات متعددة . وقد لمس د . بنين معظم هذه الأصعدة والمستويات . وأنا فى تناولى لنقطة الغنى هذه لا أرمى إلى مناقشته ، ولكن إلى جمع ما تناثر من إشارات ، وإضافة إليها .

اشتهر المغرب - كما يقول - بكونه «أول دولة إسلامية تحتفظ بالمخطوطات التى لا توجد فى أماكن أخرى ، وعرفت مكتباته بالتعدد والتنوع والثر»^(٣) . ولعل الفصل الرابع ضمن الباب الثانى قد جاء خالصاً لخدمة هذه المقولة ، فمن خلاله عرض لمحتويات الخزائن المغربية فى الماضى ، وفى الحاضر ، متوقفاً عند أهم الأجناس والأوعية التأليفية : الفهرسة ، والكناشات ، والمجاميع ، بالإضافة إلى تلك المخطوطات ذات القيمة العالية ،

(١) ص ١٩ .

(٢) ص ١٦ .

(٣) ص ٢٤٩ .

على وَفْق أسس مختلفة : القدسية (القرآن الكريم والكتب المقدسة) ، والأصالة (بخطوط مؤلفيها) وما يلحق بها ، والنُدرة ، والنفاسة ، وتحت كل أساس تفصيلات يطول الكلام فيها .

وأودُّ أن أدخلَ إلى هذا الغنى من مُدْخَلٍ آخر ، يضيف بعداً جديداً ، أو زاوية مختلفة ، قد لا يُتَنَبَّه إليها في كلام د . بنبين ، أعني تركيز ألوان غنى تراث المغرب في :

غنى الكم

ووراء هذا النوع من الغنى أسباب عديدة ، وله مظاهر مختلفة . ففي الأسباب ثمة سبب رئيس ، عنه تفرَّعت الأسباب الأخرى ، ويتمثل في تقديس المغاربة للكتاب ، وولعهم به ولعاً شديداً . وهذه نقطة أتوقف عندها لاحقاً في سياق آخر .

إن الحديث عن غنى الكم في التراث المغربي (شأنه شأن الحديث عن التراث العربي الإسلامي في عمومهِ) حديث مُرْسَل ، على الرغم من أنه حقيقة تاريخية ، وحقيقة حاضرة ، فالإشارات التاريخية مبثوثة في المصادر المختلفة ، ولا تزال آثار هذه الإشارات ودلائلها باقية حية في الخزائن المغربية . وهذا ما يحزُّ في نفس كل عاشق للتراث . ولعله هو الذي دفع د . بنبين إلى المطالبة باستنفار الجهود من أجل وضع أساس «مونوغرافى» ، يوفر لنا الفهارس والكشافات والبيبليوغرافيات و «الكتالوجات»^(١) .

نحن لا نملك حتى اليوم رقماً محدداً للمخطوطات في المغرب ، لا رقماً تاريخياً ، أيا كان التاريخ الذى يرصده ، ولا رقماً حاضراً ، لكنه - بلا شك - رقم كبير . وهذه بعض مؤشرات ذلك . فى مدينة سبتة وحدها - كما يقول الأنصارى (ت ٨٥٤ هـ) صاحب «اختصار الأخبار» - كانت توجد (٦٢) خزانة ، منها (٤٥) ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ! وما أكثر الخزائن المغربية التى نعتها المؤرخون بأنها «تحتوى على عدد هائل من الكتب أو أنها «مكتبة ضخمة» .

وفى العصر الحديث ، ومع التنبُّه إلى التراث ، وتصاعد الاهتمام به ، وظهور بعض الباحثين الذين زاروا عدداً كبيراً من المكتبات فى البلاد العربية والإسلامية ، والأجنبية ، عرفنا أرقاماً جزافية أطلقها هؤلاء ، فمن قائل بأن عدد المخطوطات العربية مليون ، ومن

قائل بأنها ثلاثة ملايين ، ومن قائل بأنها خمسة ملايين . وظل الرقم الحقيقي «أحجية» لا تزال تبحث عن حل حتى اليوم ؛ لأن هذه الأرقام جميعاً لم تعتمد على أساس علمي ، ولم تقم على رصد حقيقي .

الغنى حقيقة ، لكنها حقيقة ضبابية لم تتضح بعد أبعادها وحدودها . أليس طبعياً إذ أن يكتفى د . بنين بالوصف ، وينأى عن التحليل ؟ .

غنى التنوع والخصوصية

يتميز التراث العربى فى المغرب بالتنوع اللافت ، وهو تنوع على أكثر من مستوى ، مستوى المصادر ، ومستوى الموضوعات .

أما المصادر فالحكاية تبدأ من أن هذا التراث ليس ثمرة لتلك المنطقة الجغرافية ، أعنى أنه ليس نتاج عقول أبناء تلك المنطقة أو المقيمين فيها فحسب ، ولكنه أيضاً قادم أو مجلوب من الخارج ، فقد كان المغاربة شديدي الحرص على الكتب وشرائها بأى ثمن . فالخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف - مثلاً - لم يكن يتردد فى دفع أى ثمن مقابل الكتب التى يريدونها ، وفى سبيل ذلك خصص أموالاً طائلة . ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل إنه كثيراً ما لجأ - فى إجراء يمكن لنا أن نصفه بالأثرة والظلم - إلى مصادرة الكتب التى يرغب فيها . وثمة شواهد تاريخية على ذلك^(١) .

وإذا كانت إشارتنا إلى المصادرة من قبيل الاستطراد فى هذا السياق ، فإننا نعود - على عجل - إلى نقطتنا الأساس (تنوع المصادر) فنلاحظ أن د . بنين أشار إلى أن المرينيين أقاموا علاقات تبادل مع ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى . فأبو الحسن المرينى كان يتبادل الكتب مع الناصر محمد بن قلاوون (مصر) . والوطاسيون كذلك ، وإن كان التاريخ لم يَبْحْ بالكثير عنهم . وثمة إشارة إلى أن كتاباً من القاهرة أُهدى إلى الخليفة أبى العباس أحمد الوطاسي ، كما ذكر ابن عسكر صاحب «دوحة الناشر»^(٢) . أما المنصور الذهبي (السعدى) فكان يرسل إلى كل الأقطار الإسلامية (القاهرة ، مكة ، إستانبول) تجاراً أمناء ، محمّلين بمبالغ كبيرة ، ويطلب منهم أن يشتروا له الكتب^(٣) . كان الرجل شغوفاً بالكتب ، لا يأبه لشيء فى سبيلها . وفى هذا السياق ينقل د . بنين من إحدى الرسائل السعدية

(١) ص ٥٣ .

(٢) ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) ص ٩١ .

(نشرها عبد الله كنون) أن موظفى القصر السعدى كانوا يسافرون ويفرغون الأكياس المليئة بالذهب ؛ ليعودوا بالكتب من كل مكان^(١) .

ولابد من الإشارة هنا إلى مسألة مهمة ، هى حركة النسخة الواسعة فى المغرب ، وهذه الحركة لم تكن قاصرة على الكتب المغربية ، بل شملت تلك الواردة من الخارج ، فقد كان الخلفاء يكلفون النساخ بكتابة نسخ عديدة برسم المكتبات المغربية العامة والخاصة^(٢) .

خلاصة القول : إن روافد غنية وعديدة أسهمت فى إغناء التراث فى المغرب : التبادل مع البلاد الأجنبية والعربية ، والسفر إلى الخارج ، والمراسلات ، والمواسم الدينية كالْحج .

يضاف إلى ذلك كله رافد مهم هو «الترجمة» ، فقد أشار د . بنبين إلى أن الترجمة التى توقفت فى المشرق فقد قرون من النشاط ، استمرت فى المغرب ، وبخاصة فى عهدى السعديين والعلويين ، فقد ترجمت عيون الآثار العلمية الغربية فى بلاطاتهم ، وكان الخلفاء يقومون بأنفسهم بذلك ، فالملك العلوى محمد بن عبد الرحمن (١٨٧٣ م) ترجم أو أشار بترجمة كتاب نيوتن حول علم الفلك^(٣) . وثمة كتب ذكرها د . بنبين ترجمت من الإسبانية والبرتغالية والعبرية .

أما تنوع الموضوعات فقضية لا تقل عن سابقتها خطورة . إن الدول التى حكمت المغرب ، واختلفت نظرتها إلى العلوم اختلافاً وصل إلى حد التناقض ، قد أسهمت - وهى لا تدرى - فى تنوع موضوعات التراث من ناحية ، وفى تركيزها من ناحية ثانية ، وفى خصوصيتها من ناحية ثالثة . فإذا كانت الدولة المرابطة مالكية خالصة ، حتى إنها منعت تدريس المذاهب الفقهية الأخرى ، ونظرت إلى الكتب العقديّة (أصول الدين) والفلسفة على أنها بدع بل كفر^(٤) ، فإنها بلا شك قد أثرت المذهب المالكي ، وأعطت لتلك الحقبة التاريخية مذاقاً علمياً خاصاً . فى حين سارت الدولة الموحدية فى الاتجاه المعاكس لسابقتها ، بل للدول السابقة ، حتى وُصفت بأنها دولة محبة للفلسفة ، وفى أيامها ازدهت دراسة الفلسفة والتصوف والتاريخ والجغرافيا والفلك والنحو والتنجيم والطب .

وإذا كانت السياسة قد قامت بدور مزدوج بالصورة التى سلفت ، فإن ثمة مظهرًا من مظاهر الخصوصية للتراث فى المغرب لا علاقة للسياسة به بتلك الصورة المباشرة ، وأعنى

(١) ص ٩١ .

(٢) ص ٧٩ .

(٣) ص ٨٠ .

(٤) ص ٤٦ .

به (أى المظهر) انفراد هذا التراث بألوان معينة من التأليف . والانفراد هنا ليس بمعنى عدم وجود هذه الألوان فى تراث المشرق مثلاً ، ولكن بمعنى أنه أوضح كثيراً فيه من توأمه (المشرقي) .

ومن ذلك موضوع «الرحلة» ، فلا شك أن التأليف فى هذا الجنس المعرفي أكثر حضوراً فى المغرب منه فى المشرق ، سواء على مستوى الكم ، أو النوع ، أو التنوع . إن الذاكرة تستدعى فى هذا السياق على الفور : ابن بطوطة ، والعبدري ، وابن رُشيد ، وغيرهم كثير . وقد أشار إلى ذلك د . بنبيين ، وعدّ الرحلة عنصراً هاماً على المستوى التاريخي فى المغرب^(١) . وأحسب أن وراء ذلك عوامل عديدة ، يمكن الإلماح إليها بأن المشرق كان أسبق علمياً ، وكان بذلك مقصد المغاربة لاغتراف العلم . كما لا يخفى دور الحج ، تلك الفريضة الإسلامية التى تجذب المسلمين من كل مكان ، والطريق من المغرب إلى مكة المكرمة طويلة ، وتحفل بالمشاهدات واللقاءات ، وتفتح آفاق الفكر ، ومن ثم التأليف .

وهكذا اكتمل عقد التراث العربى فى المغرب ، مصادر ، وتنوعاً ، وخصوصية ، وعوضت كل دولة - برعايتها الزائدة - ما قصرت به الأخرى ، وكان الكاسب فى النهاية هو التراث نفسه .

ولا ينفى ذلك أننا خسرنا ثروات لا تقدّر بثمن من الكتب نتيجة التعصب ، لكنه شأن الحياة ، لا تعطى إلا لتأخذ . ويبقى أن نستفيد من الدروس ، ولا ننتسخ الأخطاء .

٢ - ٢ : تكامله مع تراث المشرق

لا شك أن حركة العلم عمومًا ، والتأليف خصوصًا ، قد بدأت فى المشرق ؛ لأسباب تاريخية معروفة ، لكن المغرب (والأندلس) لم يتأخر كثيراً عن توأمه ، صحيح أنه اعتمد عليه فى البداية ، بل إنه قلّده حتى قيل فى أحد الكتب الأندلسية (العقد الفريد لابن عبد ربه) عندما وصل إلى المشرق «هذه بضاعتنا ردت علينا» . لكن المشاركة والمغاربة كانا فرسى رهان ، ليس بالمعنى السلبي للمنافسة ، ولكن بالمعنى الإيجابى . معنى حب العلم والرغبة فيه . وإذا كانت البداية مشرقية ، فإن زمام المبادرة أصبحت مغربية فى مرحلة لاحقة ، ليس فى كل الميادين العلمية ، ولكن فى بعضها على الأقل .

ومن هذه الميادين ميدان الترجمة . وهذا ما لمسّه د . بنبين ، عندما أشار إلى أن حركة الترجمة في المشرق «قد توقفت في العصر الذي سمي بعصر الانحطاط ، وبقيت مستمرة في المغرب بفضل تشجيعات الخلفاء ، وخاصة السعديين والعلويين ، «وكان الخلفاء يترجمون في بعض الأحيان هم بأنفسهم الكتب إلى العربية . .» وضرب أمثلة عديدة على الكتب التي ترجمت من اللاتينية والفرنسية والبرتغالية والإسبانية والعبرية^(١) .

يمكن أن نقول إذن : إنّ الراية انتقلت إلى المغرب ليكمل المهمة ، تلك التي بدأها في المشرق حنين ومدرسته . هو التكامل الذي أَلْمَحْنَا إليه ، والذي صبّ في النهاية في إغناء التراث العربي الإسلامي (وهو تراث واحد مشرقاً ومغرباً) وإعطائه قيمته وخصوصيته .

٢-٣ : تقديس المغاربة للكتاب

يبدو لي أن النقطة السابقة التي توقّفنا عندها (غنى التراث في المغرب) هي ثمرة نقطتنا الحالية ، فالمغاربة عُنُوا بالكتاب أيما عناية ؛ بل إنهم وصلوا به إلى مستوى التقديس ، وقد رصد د . بنبين مظاهر هذا التقديس في غير موطن من كتابه ، وساق له الشواهد و الوقائع التاريخية التي تدلُّ عليه وتؤكدّه :

في الباب الأول (التاريخي) عرض لألوان حرص المغاربة على الكتاب ، وهو يتحدث عن نشأة الخزائن المغربية ونموها وازدهارها .

و في الباب الثاني (الموضوعي الفني) توقّف عند نقطة خاصة بمحاولات إرجاع المخطوطات ، وهو ما يعكس مسألة الحرص و التقديس من زاوية أخرى .

إن هذا التقديس له أساس تاريخي ، فقد بدأ في صورة وَلَع ، استشهد له د . بنبين بطارق بن زياد (القائد المغربي المسلم) الذي فتح إسبانيا ، إذ كان لدى الرجل خزانة خاصة ، وكان معنياً بجمع الكتب من البلاد المفتوحة ، وأهدى مجموعة من اثنين وعشرين كتاباً إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق^(٢) .

وله أيضاً أساس نفسي (سيكولوجي) ، فقد كان المغاربة يحبون الآداب ، وحب الآداب يُفضي دائماً إلى حب الكتاب ، كما قال كاترمير . وهذا الحب لم يكن حِكْراً على فئة أو طبقة ، بل كان ظاهرة عامة لدى الخلفاء والأمراء والأعيان والعلماء والناس عامة .

(١) ص ٨١، ٨٢ .

(٢) ص ٢٩ .

وعلى أية حال فإن تقديس المغاربة للكتاب يتجلى فى :

أ - الحفاظ عليه من الوقوع فى أيدي غير المسلمين ، أو على حد التعبير الوارد فى الكتاب : « فى أيدي الكفار » .

ب - الاستئثار به ، بمعنى منع إفادة الآخرين منه .

ج - محاولة استرداد ما فقد منه ، مهما غلا المقابل ، وارتفع الثمن .

د - السعى للحصول عليه بأية طريقة كانت .

وثمة شواهد وحكايات كثيرة تدل على حرص المغاربة على أن لا تقع كتبهم فى أيدي اليهود و المسيحيين ، فقد حكى د . بنبين حكاية نيكولا كلينار الذى مكث خمسة عشر شهراً فى فاس ، وأذن له الملك المغربى أحمد الوطاسى بحمل بعض المخطوطات ، لكن أحد مسلمى الأندلس منعه . وهذا ما دفعه (أى كلينار) إلى أن يقول : « يمكن للمسيحيين أن يدخلوا إلى مكان المزاد ، إلا أنهم يتجشمون خطر الموت رجماً ، طالما أنهم يثيرون الشكوك فى أن المخطوطات قد تركت لأيد أجنبية عن الإسلام »^(١) .

وإذا كانت هذه الحكاية قديمة (على عهد الدولة الوطاسية) مما قد يوحي بأن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة تاريخية ، فإن الأمر لم يتغير فى مطلع القرن العشرين ، فالمستشرق الفرنسى ل . مرسى واجه كثيراً من الصعوبات فى الحصول على الكتب بسبب كونه مسيحياً^(٢) .

وقد أفاض د . بنبين فى التوقف عند مظاهر تقديس المغاربة للكتاب ، فى سياقات عدة ، فأشار إلى دفن الكتب والتعصب ضدها وإحراقها ، وأيضاً إلى الحرص عليها وشرائها بأى ثمن^(٣) .

٢-٤ : تقصيرهم تجاه تراثهم

فى مقابل «التقديس» يبرز التقصير ، مما يجعل من التراث فى المغرب إشكالية حقيقية عصية على الفهم ، أو القبول ، أيّاً كانت المسوّغات أو الزوايا التى يمكن أن يُنظر من خلالها إلى الأمر . وتتجاوز المسألة التقصير إلى التدمير ، مما يدفع بهذه الإشكالية إلى أبعد مدى .

(١) ص ٨٣ .

(٢) الموضع السابق .

(٣) انظر مثلاً : ص ٤٦ ، ٥٣ ، ١٥٠ .

وأظن أن هذين الأمرين (التقصير والتدمير) خرجا من عَيْبَةٍ ما أسماه د . بنين ب «اللامبالاة إزاء التاريخ»^(١) . وقد توقف غير مرة عند هذه الظاهرة التي لفتت انتباه كثير من الكتاب المغاربة المتأخرين ، أمثال الكتاني (صاحب سلوة الأنفاس) واليوسى (صاحب المحاضرات) ومحمد العربى الفاسى ، وأحمد بابا ، والمقري^(٢) ، وكانت وراء ضياع كثير من المخطوطات المهمة والأساسية فى جلاء صورة العطاء المغربى للحضارة العربية الإسلامية ، والإنسانية .

ويبدو لى أنهم (المغاربة) ليسوا بدعًا ، فالمشاركة أيضا قصّروا ودمّروا ، وأصحاب الحضارات الأخرى على امتداد التاريخ البشرى فعلوا مثل ذلك . إنه طبع الإنسان الذى كثيراً ما يخطئ ، ويخضع لنزواته ، وينساق وراء أهوائه ، فلا يميز بين الضارّ والنافع ، ويخلط بين الصواب والخطأ ، وربما جعل أحدهما مكان الآخر ، عمداً أو جهلاً .

ولذلك فإن إنجازات الإنسان كثيراً ما كانت ضحيته ، فالمرابطون مثلاً أحرقوا مؤلفات الغزالي ، لأنها مثل كتب الفلسفة عموماً «بدعة مشبوهة وحادثة دخيلة إلى الدين»^(٣) ، والموحدون أحرقوا كتب المذهب المالكي ، وانقلبوا على ابن رشد فأحرقوا أيضاً كتبه ، كما ألّبوا عليه غيرهم^(٤) . وبالإضافة إلى السياسة ، شاركت الطبيعة فى تدمير الكتب والمكتبات ، فكان لجنودها من الحشرات والقوارض دور يذك ، ساعد عليه ، وأسهم فيه إهمال الإنسان .

لقد عقد د . بنين فصلاً خاصاً أسماه : محنة المكتبة المغربية ، رصد فيه تأثير عوامل الطبيعة ، وفتن السياسة ، وجرائم السرقة والنهب . و الفتن والجرائم خالصة للإنسان طبعاً ، أما الطبيعة فالإنسان فيها شريك .

وثمة ظاهرة بشرية مذمومة وقبيحة ، هى الاستئثار بالكتب ، أو «غلو الكتب» . ومما يؤسف له أن العلماء هم أبطالها ، فكثيراً ما كانوا يقومون بذلك ، وقد ضرب د . بنين نماذج على ذلك ، ورأى فى هذه الظاهرة سبباً مهماً فى ضياع الكثير من المخطوطات النادرة .

ولا يمكن أن ننسى جرحاً آخر غائراً ، ذلك الذى كانت وراءه الحروب الداخلية ،

(١) ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) ص ٥٢ . وانظر أيضاً : ص ١٧٩ .

(٤) ص ١٨٠ .

والغزوات الأجنبية ، والاضطرابات السياسية . هذه المناخات هي التي أدت إلى نهب الكتب وسرقتها ، وهكذا آلت مثلاً خزانة الملوك السعديين إلى الإسكوريال بإسبانيا ، وأبيدت الخزانة الملكية الموحدية ، وشرع في نهب المخطوطات على أيدي البرتغاليين والإسبانيين ... إلخ .

- ٣ -

الأبواب

(مداخل للقراءة)

٣-١ : باب التاريخ

أول كلمة في عنوان الكتاب «تاريخ» ، والباب الأول في الكتاب - وهو نصيف الكتاب كله - عنوانه «خزائن الكتب في (التاريخ) الثقافي للمغرب» وهذا الباب عموده الفقري التاريخ ، فهو مقسوم إلى أربعة فصول ، في أولها يحكى قصة الخزائن (من القرن الأول الهجرى إلى الخامس) ، وفي ثانيها (من الخامس إلى السابع) ، وفي ثالثها (من السابع إلى الثالث عشر) ، وفي رابعها (من الثالث عشر حتى اليوم) كأن الكتاب يقوم بالتاريخ ويتحرك فيه . ولا شك أن د . بنين قد بذل جهداً كبيراً في تتبع النشاط الثقافي على امتداد هذه المساحة الزمنية الطويلة .

كان د . بنين واعياً بذلك ، فاستهلّ مقدمته بالإشارة صراحة إلى ارتباط البحث في تاريخ المكتبات بميدان أوسع هو تاريخ الثقافة . وإذا كان التاريخ الثقافي للمغرب قد وجد بعض العناية والاهتمام ، فإن تاريخ المؤسسات الثقافية (خزانات الكتب) لم يحظ بمثل ذلك^(١) .

كما تنبّه د . بنين إلى أن كتب التاريخ والمصادر التراثية العامة لا تكفى للوصول إلى بعض الملامح الخاصة بصورة الخزائن المغربية ، فلجأ إلى ما أسماه ضرورياً أخرى من «المؤلفات الببليوغرافية شبه التاريخية والأدبية مثل مؤلفات النوازل والفتاوى والفهارس وعقود التحبيس وكتب المناقب وغيرها»^(٢) .

(١) ص ٥ ، ١٥ .

(٢) ص ١٧ ، ١٨ .

واعترف صراحة بأن القرون الهجرية الخمسة الأولى «مظلمة» فى ما يتصل بتاريخ الخزانة المغربية^(١) ، فمن يتحمل المسؤولية ؟ الأمر - فيما يبدو - يرجع إلى انشغال الأمويين فى المغرب بالفتوحات ، ونشر الإسلام فى تلك الأصقاع البعيدة من أرض الله .

والقرون الخمسة هذه مساحة زمنية قامت على امتدادها فى المغرب عدة دول : الإدريسية ، والزناطية ، والمرابطية ، والموحدية ، بعضها متعاقبة ، وبعضها متجاورة ، أو متزامنة ، وبعضها كان تابعاً للأمويين فى الأندلس ، وبعضها كان بعيداً عنهم ، يتمتع بقدر كبير من الاستقلال ، وبين هذه الدول نفسها أحياناً فترات زمنية ، هى تلك الفترات التى تقع بين أفول نجم دولة ، وسطوع دولة أخرى واستقرارها .

هذه الفترات المعلقة فى فضاء الزمن ، تقع فيها بالتأكيد انتكاسات فى الحركة الثقافية ، وتوقّف فى نشاط رجالها ومؤسساتها ، إذ إن أولى الأمر يكونون فى حال من الصراع تشغل عما تحتاجه الثقافة من استقرار وتشجيع ومساندة مادية ومعنوية .

وعلى كل حال فإن الخزائن المغربية لم تتجاوز - فى رأى د . بنبين - فى هذه القرون مرحلة «النشأة» والمعلومات المتوافرة عنها قليلة نادرة ، فهى فترة مظلمة تماماً قبل الدولة الإدريسية ، وشبه مظلمة فى الإدريسية ، وشبه مظلمة أيضاً - ولكن بدرجة أقل - فى الزناطية . قبل الإدريسية لم يتمكن د . بنبين من أن يشير إلى أكثر من احتمال أن تكون فى المساجد حجرات أو زوايا تضم نسخاً من القرآن وبعض مصنفات الحديث^(٢) . وليست صورة الخزانة المغربية فى الدولة الإدريسية بأحسن حالاً ، فالأمر لا يعدو الاعتقاد بوجود خزانة خاصة لأحد خلفائها .

أما فى عهد الزناتيين فثمة نقطة مفصلية ، هى اشتهاار أمر جامعيّ القرويين والأندلس ، وتزويد خزائنيهما بالعديد من الكتب^(٣) . وبين الزناتيين والمرابطين فترة تمتد قرابة قرن ونصف القرن ، وعلى الرغم من الصراعات التى شهدتها فإن المصادر تشير إلى (٦٢) خزانة فى مدينة سبتة وحدها بشمالى المغرب .

ومع المرابطين والموحدين صار من الممكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الخزائن :

(١) ص ٢٨ .

(٢) ص ٢٩ .

(٣) ص ٣٣ .

الملكية ، والشخصية أو الخاصة ، والعمومية . وعرف التاريخ خزانة الخليفة المرابطي يوسف بن تاشفين ، والخليفة الموحدى عبد المؤمن ، كما عرف خزائن مجموعة من العلماء والأعيان ، وخزائن عامة أو عمومية .

ومع المرينيين ومن جاء بعدهم من الوطاسيين و السعديين والعلويين أصبحت الخزائن مؤسسات رسمية ، تحظى برعاية الدولة واهتمامها ، كما ظهرت خزائن المدارس والزوايا ، واستمرت فى الوقت نفسه الخزائن الملكية ، وزاد عدد الخزائن الخاصة التى تنتمى إلى مختلف فئات المجتمع وشرائحه .

ويبدو أن هذا الانتشار كان واضحاً لدرجة أن د . بنين قرّر أنه يتعذر حصرها . أما الخزائن العمومية فقد انتشرت انتشاراً كبيراً حتى كان كل مسجد كبير يحوى خزانة كبيرة . وهنا وقفة مهمة ، فالدكتور بنين يرى أن القرن الثامن الهجرى شهد ظهور أعيان العلماء وفحولهم ، ففيه اغتنت الخزانة المغربية بالمصادر الرئيسة لتاريخ المغرب . وهذا القرن - على حد تعبيره - هو قرن ابن أبى زرع صاحب «روض القرطاس» ، وابن خلدون صاحب «المقدمة والعبر» ، وابن البناء المراكشى الفلكى العبقري . وفيه ازدهر جنس الرحلة ، وظهر ابن بطوطة والعبدري وابن رشد^(١) .

وعلى العكس منه (أى القرن الثامن) كان تاليه (التاسع) ، فقد تراجع التأليف بسبب الركود والأزمات السياسية الخطيرة ، ولم نعد نجد مشهورين ؛ لا فى الأدب ولا فى التاريخ ولا فى الرحلة ولا فى الترجمة وكتابة المناقب . كذا نقل بنين عن د . محمد حجي ، الذى استثنى بعض المتصوفة و الفقهاء^(٢) . وبرز القرن العاشر ليصبح امتداداً للثامن ، ثم تعود دورة الركود مع غروب هذا القرن وأقول نجم السعديين ، ثم مرة أخرى ترجع الحياة إلى الخزائن المغربية مع ظهور العلويين .

ثم بدأت أوضاع هذه الخزانات تتدهور ، حتى وصلت مع مطلع القرن العشرين وغداة الحماية الفرنسية الإسبانية (١٩١٢ م) إلى حالة يرثى لها ، غير أن ما أنجزته القوتان - على حد تعبير د . بنين - فى ميدان الثقافة كان ذا أهمية لا نظير لها ، فقد قاموا بإعادة تنظيم الخزانات الموحدية ، وأعدوا لها القوائم والفهارس ، وأسسوا خزانات جديدة ، وظهر ما

(١) ص ٧٧ .

(٢) الموضع السابق .

عرف بالمكتبات العامة ، والمكتبات البلدية . وهذه الفترة فترة الحماية وما بعدها (المغرب المستقل) هي التي نقلت الخزانة المغربية من وضعها التقليدي إلى الوضع الحديث .

٢-٣ : باب الخزائن

ولدت الخزانة المغربية (شأنها في ذلك شأن شقيقتها المكتبة المشرقية) في حضان المسجد ؛ ففيه كانت تقام حجرات أو زوايا تضم نسخاً من القرآن الكريم ، وبعض مصنفات الحديث . ولعل طارق بن زياد هو أول مغربي مسلم امتلك خزانة خاصة ، كان قد اكتشفها في بلد الوليد التي فتحها ٧١١ م ، ثم أهداها إلى الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك^(١) . ولعل الخليفة الإدريسي يحيى الرابع هو أول من امتلك خزانة كتب كبيرة خاصة^(٢) ، ولا شك أن جامع القرويين (أسس ٢٤٥ هـ) والأندلس ، شهدا خزائنتي كتب على نحو ما ، فقد كانا موطن حركة علمية وتعليمية نشطة ، وهو ما أشار إليه د . بنين نقلاً عن صاحب «زهرة الأس» الذي وصف حالة التعليم فيهما . ومعلوم أن التعليم لا بد أن يترافق مع خزائن المكتبات .

وإلى جانب ذلك فإن الأمير الزناتي المثقف هامن بن المعز كانت له - على حسب اعتقاد بنين - خزانات كتب^(٣) . وانتشرت الخزائن في المغرب حتى بلغت العشرات ، وكان أصحابها من الأغنياء و الأعيان والعلماء ، ومن أشهرهم العالم ابن العجوز الذي أسس خزانة كتب كبيرة^(٤) .

وقد عرف المغرب ثلاثة أنواع من الخزانات : الملكية ، الشخصية أو الخاصة ، العمومية . فعلى صعيد الملكية أشرنا آنفاً إلى خزانة الإدريسي يحيى الرابع ، ثم ظهرت خزانة المرابطي ابن تاشفين التي تشتمت في مدينة سبتة بشمال المغرب ، ثم بُعثت من جديد على يد الموحّدي عبد المؤمن ، وازدهرت أيما ازدهار بوصول ابنه أبي يعقوب يوسف إلى الحكم .

ولا نعرف كثيراً عن الخزائن الملكية في العصر المريني ، لكن الذي لا شك فيه أن هذا النوع من الخزائن بلغ أوجه في عهد الخليفة أبي عنان ، الذي كانت له مكتبتان ؛

(١) ص ٢٩ .

(٢) ص ٣٣ .

(٣) ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) ص ٣٦ .

إحدهما فى القصر الملكى فى فاس ، و الأخرى هى مكتبته المتنقلة ، إنها نوع من المكتبات السيارة التى كان الخليفة يصحبها معه فى تنقلاته^(١) .

وتصبح الصورة أكثر وضوحاً عند السعديين ، فخزانة الشرفاء السعديين أسسها مؤسس الدولة محمد القيم ، وكانت نواتها كتب الخزانة الملكية الوطاسية . على أن الوقفة الطويلة ينبغى أن تكون عند الخزانة السعدية فى عهد المنصور الذهبى^(٢) .

أما الخزانة العلوية فتعود أيضاً إلى مؤسس الدولة العلوية الشريف مولاي رشيد ، ونواتها أيضاً من خزائن الدول السابقة والزوايا .

وأشهر الخزانات المغربية الخاصة خزانة ابن الصقر (ت ٥٦٩هـ) . وثمة خزانات أخرى عديدة ذكرتها كتب التاريخ^(٣) .

أما الخزانات العامة فإن أولها خزانة أبى الحسن الشارى (خزانة كتب العلوم)^(٤) ، ثم تلك التى أسسها الموحدون فى مراكش ، ولم تكن عامة بالمعنى الذى نعرفه اليوم ؛ بل كانت عامة بمعنى أنها للأمراء والأطفال من العائلة المالكة^(٥) .

٣-٣ : باب الجغرافيا

التاريخ والجغرافيا توأمان ، فالتاريخ لا يتحرك إلا فى حضن الجغرافيا ، والجغرافيا بدون حركة التاريخ مساحة ساكنة من الموت . و كتاب د . بنين كتاب تاريخ . وهذا صحيح ؛ لكنه تاريخ بقعة جغرافية بعينها ، هى المغرب . وإذا كان التاريخ قد بخل أو عمى علينا ما رغب د . بنين فى صيده من حياة الثقافة عمومًا ، وحياة مؤسساتها على وجه الخصوص ، فإنه بخل أو عمى بالدرجة نفسها المعلومات التى تتصل بالأرض والمدن ، لكن الرجل استطاع عبر عمليات تطواف واسعة وشاقة فى المصادر باختلاف أنواعها أن يرصد جغرافيًا أن الخزانة المغربية قد تكون بدأت بمجموعة كتب وردت عبر قنوات متعددة من إسبانيا (الأندلس) ولعل بعضها جاء من «بلد الوليد» ، ومن قرطبة ، وأيضاً من تهاارت (الجزائر) والقيروان (تونس) ، واستقرت فى فاس وأصيلا والبصرة وطنجة ، وخاصة

(١) ص ٨٨ .

(٢) ص ٧٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٣) ص ٦٠ - ٦٤ .

(٤) ص ٦٩ .

(٥) ص ٦٨ .

سبته ، هذه الأخيرة التى بلغ عدد المكتبات فيها - كما سبق - فى وقت مبكر (٦٢) مكتبة .
 ويمر وقت ليس قصيراً حتى تأخذ مراكش عاصمة المرابطين والموحدين مكانتها
 عاصمة سياسية وثقافية ، لتلتقى فى خزائنها الملكية مجموعات من كتب مختلف أقاليم
 إسبانيا (الأندلس) ، وتكتب لها خاصة ، وتُهدى إليها الكتب من أعلام العصر . وتشير
 المصادر إلى أن خزانة قاضى مراكش الكبير ابن الصقر (ت ٥٦٩هـ) قد تكوّنت مما حمله
 معه من المدينة الأندلسية بلنسية ، وقدّروه - بلغة القدماء - بخمسة أحمال من الكتب .
 ولم تكن الخزائن حكراً على مدن الشمال ، فثمة خزانات فى مدن الجنوب فى سوس ،
 وإلغ .

كما تشير المصادر إلى أن كتباً كانت تُشترى من القاهرة ومكة وإستانبول ، وتحمل إلى
 عاصمة السعديين ، بناء على تكليف مباشر من الخليفة المنصور الذهبي ، أو يسعى منه
 شخصياً عبر اتصالاته مع حكام وأمراء وعلماء فى تلك البلدان . وأكثر من ذلك فإن بعض
 الكتب الطبية والأناجيل و المصورات الجغرافية وردت إليه من هولندا وإيرلندا^(١) .

وفى عهد الدولة العلوية تجمّعت الكتب فى مكناس التى أصبحت العاصمة السياسية
 للملك إسماعيل ، وبلغ عدد مخطوطاتها (١٢) ألفاً . ولم تتوقف حركة الكتب ، فظل الملوك
 يأتون بها أو يؤتى بها إليهم من مصر و العراق وإستانبول وشبه الجزيرة العربية وليبيا .

ولا ننسى الرباط التى نُقلت إليها الخزانة الملكية من مراكش فى بداية العقد الثانى
 من القرن العشرين ، بعد أن أصبحت عاصمة المغرب ، كما لا ننسى السودان الغربى (مالى
 وتشاد) الذى فتحه السعديون فى النصف الثانى من القرن السادس عشر . وهنا لا بد من ذكر
 مدن تنبكت و تمكروت ودرعة وأسفى وطنجة ووزان وتطوان وسلا^(٢) . وكما بدأت الخزائن
 المغربية بكتب من إسبانيا - كما ذكرت - فإن خزانة القرويين المستقلة التى أسسها أبو عنان
 سنة ٧٥٠هـ ، زودت فى عهده بثلاثة عشر حملاً من الكتب أرسلت من إسبانيا .

(١) ص ٩٤ .

(٢) انظر ص : ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

- ٤ -

النوافذ

(نظرات نقدية)

هذه مجموعة نظرات نقدية . وليس النقد هنا بمعنى التوقف عند الهنات وتعداد المثالب ، ولكنه بمعناه السوي ، وهو وضع اليد على مواطن الإحسان والإساءة ، وما حالف المؤلف فيه التوفيق ، وما تخلّى عنه فيه .

١-٤ : نظرة فى المنهج

والحق أن مادة الكتاب ثرية ومتشابكة تشابكاً معقداً . وقد أشرت إلى ذلك من قبل . وعلى الرغم من ذلك فإن د . بنين تمكن من التعامل مع هذه المادة واستطاع أن ينظمها فى عقد متناسق لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً . وأول ملمح فى هذا العقد التوازن الشكلى والعلمى وما يرتبط به من قسمة عقلية منطقية صارمة .

صبّ المؤلف مادته فى بابين رئيسين : أولهما : تاريخى ، وثانيهما : موضوعى فنى ، منسجماً تماماً مع عنوان الكتاب «تاريخ خزائن الكتب فى المغرب» . وقد تحقق التوازن المحمود بين البابين ، فلم يطغ أحدهما على الآخر ، فقد وقع الأول فى ١٤٩ صفحة (٢٣ - ١٥٢) والثانى فى ١٣٣ صفحة (١٧٣ - ٢٨٢) . والبابان وقع كل منهما أيضاً فى أربعة فصول . قسمة هندسية تكشف عما وراءها من عقل منظم ومنطق محكم .

هذا التوافق الشكلى وازاه توافق فى المادة نفسها ، فالأول تناول الخزانة من وجهة نظر تاريخية : النشأة ، والنمو ، والازدهار ، والانتقال من التقليدية إلى العصرية . والثانى عرض للخزائن أيضاً ، ولكن فى بنيتها وما يتصل بها ، فكان الحديث عن المحنة التى تعرضت لها والمنحة التى رفدتها (الوقف) والأدوات التى ساعدت على ذلك (الوراقة والمطبعة) ، وأخيراً محتوياتها من مخطوطات نادرة ومنتسخة بخطوط مؤلفيها ، أو عن أصول نادرة وفريدة ، ومخطوطات المؤلفين اليونانيين واللاتين .

٢-٤ : نظرة فى المصادر

ذيل د . بنين كتابه «ببليوغرافيا» بالمصادر والمراجع التى اعتمدها أو أفاد منها ، وقد جعلها فى قسمين رئيسين : قسم باللغة العربية ، وآخر باللغات الأجنبية ، وكل من القسمين مقسوم إلى ثلاثة أقسام : مراجع (أى كتب) ، ومقالات ، وفهارس وقوائم ببليوغرافية . وهنا نعود إلى ذلك العنصر البارز فى منهج الكتاب الذى هو ثمرة عقل صاحبه .

وتكشف ببلوغرافيا المصادر والمراجع عن سعة معرفة د. بنين وانفتاحه على التراث العربى ، وعلى الكتابات العربية الحديثة فى ميدان تخصصه ، وعلى الثقافة العربية قديمها وحديثها . وهى مصادر ومراجع متنوعة تنوعاً شديداً : مخطوطات ومطبوعات وموسوعات وتاريخاً وتراجم وجغرافية وخطاً وصناعة مخطوطات واجتماعاً وأدباً وفهارس وببلوغرافيات .

٣-٤ : نظرة فى لغة الكتاب

هذه نظرة غير منصفة ، وذلك لأنها تتناول الكتاب فى ترجمته العربية ، والترجمة لم يقم بها صاحب الكتاب نفسه ، بل قام بها تلميذه (مصطفى طوبى) . نعم تمت تحت إشراف د. بنين ، لكنها ليست بقلمه . وعلى أية حال فإن لغة الكتاب أو صياغته هى نقطة الضعف الرئيسة فيه ، إذ لا شك أنها لم تتساق مع المادة ومستواها العلم ؛ غزارة ومعالجة . وقد تنوعت لتشمل ارتباكات فى الصياغة اللغوية تُحس معها بقلق العبارة وتكسرها ، وأخطاء لغوية متنوعة ، وأخرى فى الرسم ، وخللاً فى استخدام حروف الجر . ولدى شواهد كثيرة على ذلك كله ، لكننى أكتفى هنا بإشارات ، توخياً لعدم الإطالة .

ارتباك الصياغة

شكّل هذا الارتباك ظاهرة لا تخفى ، وكان السبب فى ضياع إشراق العبارة وفقدانها رونقها ، حتى لتشعر كأنك تقرأ كلاماً غير عربى بحروف عربية ، أو كأنك تطالع عبارات ساذجة كتلك التى يركبها أجنبى عن اللسان العربى ، أو مبتدئ فى تعلّم اللغة العربية . ومن الصعب تصنيف هذا الارتباك أو ضبطه ، ولذلك سأورد منه نماذج ، ثم أعيد صياغتها لجلاء الفرق ، أو أعلق عليها :

ص ٣٥ : إن العلماء والأدباء كانوا يحفون بزعماء بعض هاته الإمارات .. هدفاً فى خلق مجالس علمية رائعة ، وهى مثلاً حالة هامان بن المعز ...

التعليق : كلمة «هدفاً» هنا لا معنى لها ، وكذلك «هى» لا ندرى على ماذا تعود ؟ ولو كانت العبارة : إن العلماء .. حفوا بزعماء .. فشهدنا مجالس .. ومن الأمثلة مجلس هامان .. إلخ ، لكأن أئين .

ص ٣٨ : إن هذا الكتاب الضافى اليوم كان سيكون المصدر الهام لكل ... والعبارة بإشراقها : لقد فقدنا بهذا الكتاب مصدراً هاماً من مصادر ...

ص ٧١ : وبعد هذا فنحن نلاحظ . . تشابهاً . . فقد كانت تضم هاته المجموعات جميعها كتب التفسير و مجاميع الحديث . . فقد كانت المكتبات المغربية تحظى بأهمية خاصة ، فالكل كان يسهم في تزويدها بالكتب .

التعليق : انظر إلى توالى «فقد كانت» ، ثم إلى توالى الفاءات . وكأن العربية لا تملك سوى «الفاء» . .

ص ٨٥ : ونذكر أيضاً كُتُباً كبيراً من القرن ١٨م . . ويتعلق الأمر بأبي عبد الله محمد ابن عبد القادر الفاسي . .

التعليق : لا معنى لـ « ويتعلق الأمر » . كان يغنى : وهو أبو عبد الله . .

ص ٨٥ أيضاً : إن ما سيبذله المرابطون وخاصة الموحدون . . ولا داعي للتعليق !

ص ١٤٦ : فالمغاربة ، وبوجه خاص الملوك ، كانوا يجدون نخوة في أن يتوفروا على مخطوطات قيمة ، فلم يكونوا يتراجعون أمام أى محنة للحصول على مؤلف . . .

التعليق : لا معنى لكلمة «نخوة» فى السياق ، ويمكن أن نضع مكانها «متعة» كما أن «يتوفروا» قلقه ، ويمكن أن نستعوض عنها بـ «يجمعوا» ، وكذلك الأمر فى «يتراجعون» إذ الأنسب للسياق : يترددون فى دفع أى ثمن . وخير من «محنة» صعوبة أو عوائق مثلاً .

أخطاء لغوية ونحوية

انتشرت كلمة «يدخروا» فى غير موطن ، والمقصود «يدخروا» من الادخار ، والأولى من الذخر ، وفرق كبير بين الدالتين^(١) .

ومثلها «حذا»^(٢) والمراد : حذا بمعنى دفع . والأولى بمعنى اتبع ، يقال حذا حذوه ، فهل تفى بمعنى : دفع به ؟ ! .

ومثلها : «عشاء»^(٣) نعتاً لـ «حجرة» ، ومعلوم أن المراد : حجر عشرة .

ومن الأخطاء النحوية : انقسم المغرب إلى ثلاثة دول ، والصواب : ثلاث دول ، للمخالفة بين العدد والمعدود .

(١) ص ٣١ ، ٤٥ ، ٧١ .

(٢) ص ٣٣ .

(٣) ص ٣٥ .

ومنها : وبقي فيها ثمان سنوات^(١) .. والصواب ثمانى ..

ومنها : ولم يكن لها ته المكتبة فى ما يبدو طابعا عمومياً^(٢) .. وصحتها : طابع
عمومي .

ومن التجاوزات اللغوية : وتتمظهر هاته الحركة^(٣) .. ولا أحسب «تتمظهر» هذه كلمة
فصيحة .

ومنها : إلى اثنى عشرة ألف مخطوط^(٤) .. والصواب : عشر ، بدون التاء .

ومنها : وتعهد الحاميون الفرنسيون^(٥) .. والصحيح : الحامون ، كما نقول فى جمع
القاضى : القاضون ، ولا نقول : القاضيون .

ومنها : إن ما أنجزته هاتان القوتان ذا أهمية^(٦) . والصواب : ذو ..

استخدام حروف الجر

هذه نقطة تدخل فى باب الأخطاء اللغوية ، لكنى أفردتها لفشوؤها فى الكتاب . ومن
نماذجها تعدية « ترتب » بـ « عن »^(٧) ، وحقه أن يعدى بـ « على » ، ففى المعجم الوسيط
« يترتب عليه كذا : يستقر وينبنى ..

وتعدية « نقف » بالباء^(٨) ، وحقه التعدية بـ « على » أيضاً ، فلا نقول : « غالباً ما نقف
بلفظه خزانة فى مصادر .. بل : نقف على لفظة ...

الرسم :

ومن المفارقات أن يرد « الخط المنسوب »^(٩) ، وهو بداهة : الخط المنسوب .

(١) ص ٦٨ ، ٩١ .

(٢) ص ٦٨ .

(٣) ص ٧٥ .

(٤) ص ٩٥ .

(٥) ص ١٤٧ .

(٦) ص ١٥٢ .

(٧) ص ٢٣ ، ٣٢ .

(٨) ص ٢٨ ، ٣٧ .

(٩) ص ٢٦٢ .

٤-٤ : نظرات أخرى

سأكتفى بالتوقف عند نقطتين أدتا في تقديري إلى خلل منهجى ، وإزعاج للقارئ .

أ - التعبيرات والمصطلحات

من الغريب أن يعبر عن منطقة ما بين النهرين وسورية ومصر بـ «الشرق الأوسط» وعن تونس كذلك^(١) وبخاصة أنه ورد في سياق تاريخى عن المكتبات التى تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، لأن (الشرق الأوسط) مصطلح حديث .

وأكثر من ذلك أن يوصف الفتح الإسلامى لإسبانيا بأنه «الاحتلال العربى»^(٢) ! وكذلك التردد فى استخدام كلمة الأندلس مرة ، وإسبانيا مرة أخرى . وأحيانا يكون الاستخدام فى السياق نفسه^(٣) !

ب - التواريخ

لم يجر ذكر التواريخ على سُنَّة واحدة ، فمرة يُذكر الهجرى مفرداً ، وأخرى الميلادى مفرداً ، وثالثة يُقرَن بينهما^(٤) . مما يعد خللاً منهجياً ، وإرباكاً لا مسوغ له للقارئ . وبعد ، فهذه نماذج ، مجرد نماذج . أما التتبع فتلك قضية أخرى .

* * *

كانت هذه رحلة فى عقل د . بنين وجولة فى كتابه ، ولا أحسب أن الرحلة و الجولة إلا ومضات أضاءت ، لكن النور الذى خلّفته محكوم مساحة وزمناً .

أما الخير فلا يزال فى ضرع تلك السحابات المليئة بالماء والخضرة ، وما على الظمان المشتاق إلا أن يسعى إلى الكتاب نفسه ، ويمنحه وقتاً وصبراً .

(١) ص ٢٣ ، ٣٠ ، ١١١ .

(٢) ص ٣٠ .

(٣) ص ٤٠ .

(٤) ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ١٠٦ .



حسين نصار الأستاذ والجائزة

هذا الملف الخاص الذي تقدمه مجلة تراثيات ليس تحية
جائزة عظيمة مُنحت لعالم جليل فحسب ، وإنما هو قبل ذلك
تحية لأستاذ يفوق فضله وعلمه كل تقدير . . .
إنه حسين نصار في عيون أصدقائه وتلاميذه من علماء
العصر .

هيئة التحرير

أما قبله

بقلم: أ. د. محمد الستار اللواتي*

عهدي بالدكتور حسين نصار يرجع إلى ما يقرب من نصف قرن من الزمان . كنت يومها تلميذا صغيرا حصل على الثانوية العامة من شعبة العلوم ، ولكنني كنت أهوى اللغة والأدب وكنت مبهورا بكتابات طه حسين وأحاديثه الإذاعية ، ففكرت في أن ألتحق بكلية الآداب ، ولم تكن الكلية وقتها تسمح لطلاب الشعبة العلمية بالقبول إلا في أقسام ثلاثة هي : اللغة العربية والصحافة والمكتبات . ورفضت أن أدخل قسم الصحافة أو قسم المكتبات ودخلت قسم اللغة العربية . وفي أول فصل دراسي درست الأدب الجاهلي على يد أستاذين جليلين لم أكن قد سمعت بهما من قبل هما الدكتور شوقي ضيف والدكتور حسين نصار . كان الدكتور شوقي يدرس لنا الأدب وكان الدكتور نصار يدرس النصوص .

واستمرت تلمذتي للعالمين الجليلين خلال سنوات الدراسة الأربع ، فتلقيت عنهما تاريخ الأدب العربي ، ودرست على يديهما النحو في كتابي : «شذور الذهب» و«أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» . وأذكر أن الدكتور نصار كان أول من درس لنا النحو ، ودراسة النحو في كتب ابن هشام كانت شيئا عسيرا بالنسبة لأي طالب لم يسبق له الدراسة في المعاهد الأزهرية .

ولكنني أشهد أن الدكتور نصار استطاع ببراعة فائقة أن يقرب النحو إلى عقولنا وإلى نفوسنا أيضا ، فلم يكن يكتفى بأن يوصل لنا المعلومات ، وأن يشرح لنا القواعد ، وإنما كان يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك . كان يحاول جاهدا أن يزيل من نفوسنا الخوف من ذلك الشبح الرهيب الذي يسمى «النحو» ، وأن يجعلنا نقرب منه ونتعامل معه على أنه رياضة عقلية ، وعلى أنه ضرورة لاغنى عنها لفهم معنى أى نص من النصوص . وعلى يد الدكتور نصار بدأنا نألف النحو ونرى فيه علما قابلا للاستئناس إن صح هذا التعبير .

كان ذلك في منتصف خمسينيات القرن الماضي ، وكان قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وقتها يزخر بمجموعة من العمالقة : طه حسين وشوقي ضيف ومصطفى السقا وخليل نامى وسهير القلماوى ومحمد كامل حسين وشكري عياد وعبد الحميد يونس وحسين نصار ويوسف خليف وغيرهم .

(*) أستاذ المكتبات بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

وعلى أيدي هذه السلسلة الذهبية تعلم الجيل الذي أنتمى إليه ، واقتحم مجالات معرفية شتى أبلى فيها بلاء حسنا . وما زالت أسماء بعض طلاب تلك المرحلة تتألق في سماء الإعلام والصحافة والتربية ، فضلا عن مجالات اللغة والأدب والنقد .

كنا طلاب علم بمعنى الكلمة ، وكنا ننظر إلى أساتذتنا باحترام شديد يكاد يبلغ درجة التقديس . وكان لكل منهم أسلوبه ومذاقه الخاص ، وكنا نلمح في الدكتور شوقي ضيف والدكتور حسين نصار قدرا كبيرا من التشابه . فكلاهما كان بسيطا ومتواضعا وهادئا ورفيقا وخفيض الصوت ، مع عمق في الفكر وأصالة في الرأي . وكلاهما كان يبتعد عن الأضواء ، وعن وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون ، ويعيش راهباً متبتلا في محراب العلم . تسمعه في المحاضرة فتشعر أنك أمام أستاذ عادي لا يختلف عن كثير من الأساتذة ، فهو لا يتحدث إليك من برج عال وإنما يقترب منك حتى ليخيل إليك أنه يتحدث إلى نفسه . وهو لا يشعر بأنه يقول شيئا جديدا أو مهما ، وإنما يقول كلاما عاديا يمكن أن يقوله غيره كثيرون . ولكنك حين تقرأ له تدرك أنه يفجر قضايا فكرية في غاية الأهمية ، ويعرضها بسلسلة منقطعة النظير ، وتتعلم منه - في هدوء - كيف تفكر وكيف تكتب .

حينما نشرت الدكتورة بنت الشاطي - رحمها الله - «رسالة الغفران» لأبي العلاء أهدتها إلى من علمها كيف تقرأ ، وأنا بالأصالة عن نفسي ونيابة عن جيلي كله أحيي أستاذي الجليل الدكتور حسين نصار الذي تعلمت منه الأدب بكل معانيه ، وتعلمت منه كيف أحب النحو ، وهو علم من أصعب علوم العربية ، فجزاه الله عني وعن طلابه وعارفي فضله خير الجزاء .

وإذا كانت جائزة الملك فيصل العالمية هي نوبل العرب ، فإن حصول الدكتور حسين نصار عليها هذا العام يأتي تنويجا لعطاء علمي ثري استمر أكثر من خمسين عاما ، ويؤكد في الوقت نفسه أن العمل العلمي الأصيل لا بد أن يأتي يوم يحظى فيه بالتقدير مهما بعد هذا اليوم . وذلك درس ينبغي أن يستوعبه الباحثون الذين يتعجلون الشهرة ويلهثون وراء بريق الإعلام ، والذين يدفعون إلى المطابع أعمالا كثيرة كغشاء السيل لا أصالة فيها ولا إبداع .

ولعل خير ما يمكن أن أختتم به هذه المقدمة هو قول الحق سبحانه :

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ .

أ. ط. حسين نصار

سيرة ذاتية

- الميلاد : أسيوط ١٩٢٥ م .
- ليسانس من كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٤٧ م .
- دكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥٣ م .
- مدرس في كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥٤ م .
- أستاذ مساعد في ١٩٦١ م .
- أستاذ في ١٩٦٩ م .
- رئيس قسم اللغة العربية ٢٤/١٠/١٩٧١ م و ١٨/١٠/١٩٨٤ م .
- وكيل كلية الآداب للدراسات العليا ٢٨/٩/١٩٧٥ م .
- عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٥/٩/١٩٧٩ م .
- رئيس أكاديمية الفنون من ٩/٨/١٩٨٠ إلى ٣٠/٣/١٩٨٢ م .
- عضو ورئيس الجمعية اللغوية المصرية .
- عضو ورئيس الجمعية الأدبية المصرية .
- عضو الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية .
- عضو المجلس الأعلى للصحافة (سابقاً) .
- عضو لجنة الدراسات الأدبية واللغوية في المجلس الأعلى للثقافة .
- عضو مراسل في مجمعى بغداد ودمشق .
- مقرر المجلس القومى للثقافة والآداب والفنون والإعلام .
- جائزة الدولة التقديرية ١٩٨٦ م .
- جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب واللغة سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤ م .

الكتب المؤلفة :

- نشأة التدوين التاريخى عند العرب - مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٣ م .
- معجم آيات القرآن - مصطفى البابى الحلبي ، ١٩٥٤ م .
- نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٦ م .
- المعجم العربى : نشأته وتطوره ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٨ م .
- مصر العربية ، دار الثقافة العربية بمصر ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٨٠ م .
- المختار من كتاب الكامل للمبرد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ١٩٦٠ م .
- الشعر الشعبى العربى ، ١٩٦٢ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٢ م .

- الطبعة والشاعر العربى ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ م .
- الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية ، دار الكاتب العربى ، ١٩٧٣ م .
- ظافر الحداد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ م .
- دراسات حول طه حسين ، ١٩٧٦ م ، ١٩٨١ .
- القافية فى العروض والأدب ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٠ م ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- المعجم العربى ، وزارة الثقافة والإعلام بالعراق ، ١٩٨٠ م .
- دراسات لغوية ، دار الرائد العربى بلبنان ، ١٩٨١ م .
- معاجم على الموضوعات ، وزارة الإعلام بالكويت ، ١٩٨٥ م .
- يونس بن حبيب ، دار الكاتب العربى بمصر ، ١٩٨٦ م .
- أدب الرحلة ، لونجمان ، ١٩٩١ م .
- صفحات من القضاء الإسلامى ، مطابع المنار العربى بمصر ، ١٩٩٢ م .
- الإنباء بالغيب فى الإعجاز القرآنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ م .
- أمين الخولى ، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ، ١٩٩٦ م .
- الفواصل ، إعجاز القرآن ، مكتبة مصر ، ١٩٩٩ م .
- إعجاز القرآن (التحدى - العجز - الإعجاز) ، مكتبة مصر ، ١٩٩٩ م .
- إعجاز القرآن (الصرفة والإنباء بالغيب) ، مكتب مصر ، ٢٠٠٠ م .
- الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، دار الهلال ، ٢٠٠٠ م .
- فى النثر العربى ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ م .
- القسَم فى القرآن الكريم ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- فى الشعر العربى ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١ م .
- فى الأدب المصرى ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١ م .

الكتب المحققة :

- ديوان سراقه البارقى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٧ م ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١ م .
- ديوان ابن وكيع التنيسى ، مكتبة مصر ، ١٩٥٣ م .
- ديوان عبيد بن الأبرص ، مصطفى البابى الحلبي ، ١٩٥٧ م .
- ديوان جميل ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٧٩ م .
- المحكم لابن سيده ، الجزء الأول بالاشتراك ، ١٩٥٨ م .

- ولاية مصر للكندي ، دار صادر وبيروت بلبنان ، ١٩٦٠م .
- قيس ولبنى «ديوان قيس بن ذريح» ، مكتبة مصر ، ١٩٦٠ ، ١٩٧٩م .
- مختار الأغاني لابن منظور ، الجزء الثامن ، ١٩٦٦م .
- الوقف على كلا وبلى فى القرآن ، لمكى القيسى ، ١٩٦٧م .
- ديوان الخرتق بنت بدر بن هفان ، دارالكتب المصرية ، ١٩٦٩م .
- ديوان ظافر الحداد ، مكتبة مصر ، ١٩٦٩م .
- تاج العروس للزبيدي ، الجزآن السادس والثالث عشر ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٤م .
- النجوم الزهرة فى حلى حضرة القاهرة لابن سيدة ، دارالكتب المصرية ، ١٩٧٠م .
- معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية ، ستة أجزاء ، ١٩٧١ ، ١٩٧٨ ، ١٩٩٣ ، ٢٠٠٢م .

- ديوان ابن الرومى ، ستة أجزاء من ١٩٧٣ إلى ١٩٩٤م .
- العاقل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى ، ١٩٨١م .
- ديوان أبى الصوفى سعيد بن مسلم العماني ، ١٩٨٢م .
- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م .
- أخبار مصر للمسبحى ، ج ٤٠ ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٨٤م .

- رحلة ابن جبیر ، مكتبة مصر ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٥م .
- المختار من الموشحات لمصطفى السقا ، ١٩٩٧م .

الكتب المترجمة :

- المغازى الأولى ومؤلفوها لهوروفتس ، مصطفى البابى الحلبي ، ١٩٤٩م ، مكتبة الخانجي ، ٢٠٠٠م .
- الموسيقى والغناء فى ألف ليلة وليلة لفارمر ، ١٩٥٠ ، ١٩٨٠م .
- الديمقراطية لرلس وعمر جزلن ، مصطفى البابى الحلبي ، ١٩٥٣ .
- النظرية البلشفية لهانس كلسن ، مصطفى البابى الحلبي ، ١٩٥٤م .
- تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ، مكتبة مصر ، ١٩٥٦ ، ١٩٩٩م .
- مصادر الموسيقى العربية لفارمر ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧م .
- أرض السحرة لبرنارد لويس ، مكتبة مصر ، ١٩٥٨م .
- دراسات عن المؤرخين العرب لمرغوليوث ، لبنان ، ١٩٦٠م .
- ابن الرومى لجست ، ١٩٦١م .

الكتب المشتركة :

- حركة التجديد في الأدب العربي ، دار الثقافة بمصر ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ م .
- الأدب والنصوص للصف الثالث الثانوي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٨ م .
- دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ، مطبعة المدني بمصر ، ١٩٨٢ م .
- الأدب العربي : تعبيره عن الوحدة والتنوع ، مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ، ١٩٨٧ م .

البحوث والمقالات :

- نُشر له كثير من البحوث والمقالات في المجلات العلمية والثقافية التي تصدر في مصر والعالم العربي وهي :
- في مصر : مجلات : الثقافة ، والإذاعة ، والرسالة ، والرسالة الجديدة ، والكتاب ، والكتاب العربي ، وتراث الإنسانية ، والمجلة ، والشهر ، والقصة ، والهلال ، والبوليس ، والمصور ، ومنبر الإسلام ، وفصول ، والأهرام ، ومجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .
- في تونس : مجلة الفكر .
- في المغرب : مجلة تنسيق التعريب بالرباط ، واللسان العربي .
- في لبنان : مجلة الأديب ، ومجلة الفكر العربي .
- في سورية : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .
- في العراق : مجلة مجمع اللغة العربية ببغداد ، ومجلات الأقلام ، والأستاذ ، وبغداد ، والتراث الشعبي ، ومجلة كلية الشريعة ، ومجلة كلية الآداب .
- في الكويت : مجلة العربي .
- في السعودية : مجلات : العرب ، والمنهل ، والدارة ، والحرس الوطني ، والمعرفة ، والفيصل ، ومجلة البحث العلمي بمكة المكرمة ، ومجلة كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى .
- في قطر : الراية .
- في الإمارات : مجلة المنتدى ، ومجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية .

تكريم الدكتور حسين نصار

أسلوب يتقنه

د. ماهر شفيق فريد*

بمبادرة تعرف أقدار الرجال أقام الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم ، والعاملون معه وعلى رأسهم الروائي الشاعر الدكتور أحمد درة حفلا حضرته نخبة من المثقفين والمفكرين تكريما للأستاذ الدكتور حسين نصار - أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة القاهرة - وذلك بمناسبة فوزه بجائزة الملك فيصل للأدب العربى .

حصل حسين نصار على درجاته الجامعية الثلاث من قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة : الليسانس الممتازة عام ١٩٤٧ ، الماجستير بدرجة جيد جدا عام ١٩٤٩ برسالة موضوعها «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» ، الدكتوراه بتقدير ممتاز عام ١٩٥٣ برسالة عنوانها «المعجم العربى : نشأته وتطوره» .

وعلى امتداد مسيرته العلمية أخرج حسين نصار حصاداً علميا وفيرا تتوافر فيه شرائط البحث الأكاديمى والثقافى العام من أصالة وأمانة ودقة وإحاطة . إن له من الكتب المترجمة «المغازى الأولى ومؤلفوها» لهوروفتس (١٩٥٠) «تاريخ الموسيقى العربية» (١٩٥٦) «مصادر الموسيقى العربية» (١٩٥٧) «أرض السحرة» للويس (١٩٥٧) .

ومن الكتب التى حققها مع أبحاث : «ديوان سراقه البارقى» (١٩٤٧) «ديوان ابن وكيع التنيسى» (١٩٤٥) «رحلة ابن جبير» (١٩٥٥) «ديوان عبید بن الأبرص» (١٩٥٧) «ديوان جميل» (١٩٥٨) «المحكم فى اللغة» لابن سيده (١٩٥٨) ، الجزء الأول بالمشاركة مع الأستاذ مصطفى السقا) ، «معجم آيات القرآن» (١٩٥٤) كما صدرت أطروحته للماجستير والدكتوراه فى كتب تحمل عنوانى «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» (١٩٤٥) و«المعجم العربى» (١٩٥٦) على التوالى .

لن أتوقف عند هذه الأسفار الجليلة التى يعرفها المتخصصون وأقران نصار وتلاميذه من أساتذة الجامعات وباحثيها وطلاب الدراسات العليا فيها . وثمة غيرها لم أذكرها فما إلى الاستقصاء أردت ، وإنما هى أمثلة أضربها . سأتوقف وقفة قصيرة عند ثلاثة أعمال له أقرب متناولا وأدنى إلى فهم غير المتخصص مثلى ومثل كثيرين غيرى هى كتاب «مصر العربية» وكتاب «الشعر الشعبى العربى» ومختاراته من كتاب «الكامل» للمبرد .

(*) أستاذ الأدب الإنجليزى - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

«مصر العربية» طبعة ثانية مزیدة ومنقحة ، دار الثقافة العربية نوفمبر ١٩٦١ (وكانت الطبعة الأولى قد صدرت فی فبراير ١٩٦٠) مجموعة أبحاث تلم بأطراف من حالات مصر الأدبية والثقافية ، سعى فیها المؤلف - كما یقول فی مقدمة الطبعة الأولى - إلى أن یقدم نتائج علمية جديدة وحقائق أدبية وصفحات غیر معروفة من أدب مصر وتاریخها فیضع مصر فی وضعها الحق بین أخواتها العربیات .

تحمل فصول الكتاب العنوانات الآتية :

«دولة مهملة : أو دولة السرویین ، وهی إمارة مصرية قامت فی العصر العباسی الأول ، وخلافة بغداد فی أوج مجدها ، وكانت علی قسط من الاستقلال الذاتی .

مملكة الساحل : أو إمارة الجرویین ، وهی مملكة كانت تمتد علی ساحل مصر علی بحر الروم (البحر المتوسط) فی زمن النزاع بین الأمين والمأمون ، ودامت حوالی اثنتی عشرة سنة (١٩٩هـ - ٢١٠هـ) .

الخلافة المصرية الأولى : (وهی خلافة أموية مروانية أقامها مصري خالص المصرية ، وذلك حین نصب مروان بن الحكم ، بعد دخوله مصر أيام النزاع بینة و بین الزبیریین ، ابنه عبد العزیز بن مروان والیا علیها وجعله الخليفة بعد عبد الملك بن مروان .

المقاومة القولية : ویقصد بها مقاومة المصريين ، شعرا ونثرا ، لمن لم یرضوا عنه من خلفاء وأمراء .

بنو هذیل : وهم قبيلة عربية كبيرة من مُصر كانت تعيش فی المنطقة الممتدة بین المدینة ومكة والطائف نبغ منها شعراء .

آل العاص : وأهمهم عمرو بن العاص فاتح مصر الذی كان - بالإضافة إلى قدراته العسكرية ودهائه - شاعرا مُحسنا مجیدا وخطیبا مصقعا ، وأكبر أبنائه عبد الله ، وزوجة عمرو عاتكة بنت زید .

الأکدر بن محمام اللخمي : وهو شاعر عاش فی مصر ، وكان هواه مع العلویین .

أبو أيوب الأنصاری : وهو صحابی له مقطوعة فی وقعة صفین .

شاعر الحیاد العربی : وهو أیمن بن خزیم الأسدی ، وقد اتخذ موقف الحیاد من الفتن التی أغرقت العالم الإسلامی فی المنازعات والخصومات والقتال ، واعتزل علیا ومعاوية وإن كان هواه أقرب إلى الأول .

أبو تمام فی مصر فی الفترة ما بین (٢١١ - ٢١٤هـ) وقد اختلفت الآراء فی تاریخ نزوله بها ، وناقش نصار آراء لمرجولیوث وشوقی ضیف ونجیب البهبیتی فی هذا الصدد ، مرجحا أنه نزل بها فی زمن مبكر ودرس الأدب فیها ، وأول شعر شدا به كان فیها .

البحتري ومصر : حيث أوضح صلاته ، قوة وضعفا ، بمصر وخاصة فى عهد الدولة الطولونية .

والمحطة الثانية التي أتوقف عندها هى كتيب حسين نصار «الشعر الشعبى العربى» (سلسلة المكتبة الثقافية ، أول مايو ١٩٦٢) وفيه يبين أثر الظروف الاجتماعية فى شعر العصور الجاهلية والأموية والعباسية . ويعرّف المؤلف الأدب الشعبى بأنه «الأدب الذى يصدره الشعب فيعبر عن وجدانه ، ويمثل تفكيره ، ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية ، ويوجه اهتماما خاصا إلى الرجز ، وأغاني الأفراح ، وأغاني الطفولة أو ترقيص الصبيان ، وأغاني الآبار ، وأغاني البناء ، والحداء ، وأناشيد الحروب والنواح ، وأدعية المتسولين ، واللغة العامية والزجل والمواليا .

ويتكامل هذا الكتيب وكتاب شوقى ضيف «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور» كما يتكامل وجهود دارسى الأدب الشعبى من مختلف الأجيال مثل أحمد تيمور وأحمد أمين وأحمد رشدى صالح وعبد الحميد يونس ، وأحمد مرسى ، وشمس الدين الحجاجى ، وسعد الخارم وفاروق خورشيد ومحمد إبراهيم أبو سنة وصفوت كمال وغيرهم .

وآخذ على هذين الكتابين - إن كان لى أن أفعل - أنهما يخلوان من الهوامش التى تشرح المفردات العربية الصعبة أو غير المألوفة . وقد يحتج المؤلف بأن ثانى الكتابين على الأقل ، لم يتسع لمثل هذا مراعاة لاعتبارات الحيز وطبيعة السلسلة الثقافية المبسطة التى صدر فيها . ولكن أى جدوى من إيراد أبيات شعر أو قطع نثر غير مشكولة لا يفهم القارئ معناها أو لا يفهمها إلا جزئيا ، وقد يكون العلم الناقص ، فى بعض الحالات ، أسوأ مغبة من الجهل الصريح .

والكتاب الثالث هو «المختار من كتاب الكامل» للمبرد المتوفى فى القرن الثالث الهجرى ، مع مقدمة ، والكتاب صادر بمراجعة الأستاذ مصطفى السقا عن وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ولا يحمل تاريخا وإن كانت مقدمة الدكتور نصار مؤرخة فى منتصف يناير ١٩٦٠ . كان المبرد عالما غزير التواليف ، ألف فى النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب وغيرها ، وكتابه «الكامل» يلقى أضواء غامرة على تاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وفى حياتهم السياسية والثقافية والأدبية ، أو على حد قول المبرد : «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منشور وشعر مرصوف ومثل سائر وعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ، مع تفسير الكلام ومستغلق المعانى ، وشرح ما يعرض من الإعراب شرحا وافيا» . ويكفى للدلالة على قيمة الكتاب فى تاريخ الأدب العربى أن العلامة ابن خلدون يروى أنه سمع من شيوخه فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة

دواوين هي «أدب الكاتب» لابن قتيبة ، وكتاب «الكامل» للمبرد ، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ ، وكتاب «النوادر» لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها .

يستوقف المرء في مسيرة الدكتور حسين نصار أمران - أو بالأحرى درسان - أحدهما علمي والآخر أخلاقي ، وإن ذابت الحدود بينهما وتداخلت . أما الدرس العلمي فهو أن كتاباته قد خلت من عيب يعتور الكثير من أبحاث أساتذة الأدب العربي لدينا إلا من عصم ربك : أعنى آفة الإطناب اللفظي ، والتزيد في اللفظ ، والجري وراء غواية الكلمة والصورة . ففي أبحاث حسين نصار منطق صارم ، والكلمة تلائم المعنى ملاءمة القفاز لليد ، وكل شيء لديه تحكمه وظيفية صارمة : فلا جملة زائدة عن الحاجة ، ولا أنت بقادر على أن تحذف منه - وإن أمكن أن تضيف إليه - شيئاً .

هذا درس يحسن بشباب الباحثين أن يتلقوه عنه ، فإنما انضباط التعبير مرآة لانضباط الفكر ، وكم دعا أديبنا الكبير يحيى حقى إلى أن يتعلم كتابنا وباحثونا فضائل الدقة والتحديد والإيجاز .

وأما الدرس الأخلاقي فهو أن هذا العالم الجليل قد عكف منذ مطلع شبابه على تحصيل العلم والنهل من حياضه في صمت وتبتل ، لم تفتنه أضواء الشهرة ولا كاميرات المصورين ولا كلمات المتملقين ، وإنما مضى على دربه الشاق المستوحش ، يضيف إلى العلم جديداً ، ويخرج جيلاً بعد جيل من باحثين أصبح بعضهم الآن أساتذة كباراً يدينون له بالفضل ، وهو في ذلك قرين جيل عظيم من أساتذة اللغة العربية وآدابها : د . سهير القلماوي ود . عبد العزيز الأهواني ود شوقي ضيف ، ود . يوسف خليف ود . نبيلة إبراهيم ود . محمود فهي حجازي ود . محمود علي مكي ، ود . عبد الحميد يونس وأضرابهم .

كان شعاره في الحياة هو شعار أستاذه - وأستاذنا - أمين الخولي رائد جماعة الأمناء الذي وضع عنه نصار كتاباً جميلاً . لم يسع حسين نصار قط إلى جائزة أو منصب ، وإنما أتنه الجوائز والمناصب (ومنها عمادة كلية الآداب بجامعة القاهرة ورئاسة أكاديمية الفنون بالهرم) منقادة إليه تجرر أذيالها ، ولم يقف بباب مسئول كبير ولا صاحب منصب خطير راجياً أو خاطباً ودّاً ، فقد كان يعرف - شأن فقهاءنا وعلمائنا القدامى العظماء - أن العالم لا يسعى لأحد وإنما يُسعى إليه ، ويخطب وده الخلفاء والأمراء . وهذا درس آخر ما أحوج الأجيال الجديدة - وبعض القديمة أيضاً - إلى أن تتعلمه منه .

جهود الدكتور حسين نصار فتح الدراسات المعجمية

أ.د. وفاء مجاهد فايز *

انصرفت همه أستاذنا - فى مطلع شبابه - إلى دراسة ميدان لغوى بكر ، هو مجال الدراسات المعجمية . وكانت رسالته للدكتوراه أول بحث من نوعه يتصدى لتأريخ المعجم العربى فى نشأته وتطوره تأريخا شاملا مفصلا ، على منهج علمى دقيق .

وفى هذه الدراسة بيّن أن اللغة العربية من أغنى اللغات الإنسانية فى ثروتها اللفظية ، التى تستوعب الحاجات الحسية والمعنوية للأمة ، كما بيّن أن العربية من أقدم اللغات حرصا على تأليف المعاجم اللغوية المختلفة .

وقد ضم كتابه «المعجم العربى» - الذى صدر منذ ما يقرب من نصف قرن - أشمل دراسة للمعاجم العربية ، وقد تمكن بدقته ونفاذ بصيرته من استنباط المدارس التى احتوى عليها هذا العلم ، والتى لم يزد عليها أحد من الدارسين مدرسة إلى اليوم .

وتابع جهوده فى التعريف بالمعاجم ، وعرضها ودراستها ، حين استطاع أن يطلع على مخطوط «كتاب الجيم» لأبى عمرو إسحق الشيبانى (ت ٢٠٦هـ) ، فاعتمد على نسخة من هذا المخطوط فى دراسة ألفت الضوء على هذا المعجم ، الذى كاد يضيع دون أن يرويه أحد ، أو يقتبس منه لغوى .

استهل أستاذنا بحثه بعنوان الكتاب هادفا أن يعرف معناه وسبب تسميته ، فذكر رأيين : أحدهما أن كلمة الجيم تعنى الديباج ، فكتاب الجيم سُمى بهذا الاسم تشبيها له بالديباج فى حسنه . أما رأى الثانى فقد ذهب إلى أن حرف الجيم يكثر فيه الغريب ، وكتاب الجيم للشيبانى معنى أكبر العناية بالغريب والحوشى ؛ فلعل الشيبانى كان يرى فى عبارة (لغة الجيم) دلالة على الغريب والنادر من اللغة العربية .

وانتقل إلى غرض الشيبانى من تأليف كتابه ، فرأى أنه لم يقصد إلى حصر أبنية اللغة ، أو استنباط قواعدها الصوتية ، وإنما كان هدفه تدوين الكلمات الغريبة والنادرة من لغات القبائل .

ثم حدد منهج الشيبانى فى الترتيب ، فبيّن أن الكتاب مقسم إلى أبواب ، يختص كل منها بحرف من حروف الهجاء . ولم يراع مؤلفه التقسيم الداخلى للأبواب ، ولا ترتيب

(*) أستاذ اللغويات - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

الصيغ ، فلم يصل إلى معالجة المفردات اللغوية مرتبة على أصولها الصرفية أو موادها اللغوية ؛ بل كان يتبع طريقة الترتيب العشوائية التي اتبعتها كتب النوادر .

وانتقد الدكتور نصار هذا الترتيب ذاكرًا أن من نتائجه تشتت الألفاظ التي ترجع إلى أصل واحد بين صفحات الباب كله ، وتكرير تفسير بعض الألفاظ . وعقد مقارنة بين كتابي «العين» للخليل و«الجيم» للشيباني استدلل منها على أن الأخير ألف كتابه بمنأى عن كتاب «العين» . وحدد أهم الظواهر في «الجيم» ، وتمثل في :

١ - تحريه النادر من الألفاظ والغريب من التفسير .
٢ - عنايته باللهجات ، حتى إنه يفوق - من هذا الجانب - جميع المعاجم التي بين أيدينا .

٣ - إيراده للألفاظ الغريبة في سياقها ؛ مما يتمم تفسيرها ، ويوضح طريقة استعمالها في لغاتها ، ويجعلنا على صلة مباشرة بالتعبير العربي الصميم .

٤ - عنايته الكبيرة بالشواهد الشعرية ، وإيراده لكثير من الأخبار والقصص القصير .
٥ - تأثره بالرسائل اللغوية على الموضوعات : فكان يتتبع ما يتحدث عنه ، في أحواله المختلفة ، دون أن يلتزم بوضع كل كلمة في موضعها تبعاً لحروفها .

٦ - ميله إلى إيراد المترادف من الألفاظ والعبارات .

٧ - ندرة الأعلام ، والشواهد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف .

ولحظ أستاذنا على كتاب الجيم وقوع خلل في وضع بعض الشواهد الشعرية ، إلى جانب اضطراب التفسير . واستكمل عرضه للكتاب بوصف نسخة المخطوط التي اعتمد عليها .

أما دراسته لكتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي فقد حاول فيها أن يلقي الضوء على أقدم نسخة منه ببغداد ، وهي الموجودة بمكتبة حجة الإسلام السيد حسن الصدر .

وبدأ بالتحقق من السند الذي وصل الكتاب عن طريقه . وقد كتب في مستهل النسخة أنه لم يتعد رواية واحداً أخذ عن الليث مباشرة . ولكن الدكتور نصار - عند فحص الكتاب - وجدته يعتمد على عدة نسخ سابقة عليه ، اختار الكاتب منها واحدة التزمها وجعلها النسخة الأم ، وحين خرج عليها نبه إلى ذلك ، ونقل من هذه النسخ أحياناً تصحيحاً لبعض الألفاظ الواردة في تفسير المواد التي يعالجها . ووصل إلى أن الكاتب كان بين يديه ست نسخ - على الأقل - يردد نظره فيها وينقل عنها . وأكثر ما يشير منها إلى نسخة (الحاتمي) .

ومن فحص الباحث للمتن قرر أنه من المحال أن تكون هذه النسخة من كتاب «العين» قريبة العهد بالليث بن المظفر، وأن الراوية المذكور في مستهلها ليس آخر روايتها، وأكد أن كاتبها كان يعيش في أواخر القرن الخامس أو ما بعده.

وفي نظرة موسوعية شاملة عرض الدكتور نصار صورة شاملة للمعاجم العربية القديمة موضحا خصائصها، وطرق ترتيبها. فبدأ بمعجم «العين» موضحا الأسس التي بني عليها، والنقائص والصعوبات التي واجهها. فذكر ترتيب مواده وفقا للمخارج الصوتية، ثم التزامه نظامى الأبنية والتقاليب. وتابع المعاجم التالية له موضحا مدى التزامها بالأسس التي سار عليها الخليل في معجمه، ومبينا المعاجم التي عدلت عن هذه الأسس، وسبب هذا العدول، ثم المنهج الذي سارت عليه حتى تخلص من مصاعب ترتيب الألفاظ في المعجم.

ثم عقد مقارنة بين المعاجم القديمة والحديثة في جانبين، الأول: ترتيب الصيغ والمعانى داخل المادة اللغوية الواحدة، والثانى: عدم الدقة - عند الخليل خاصة - فى ضبط المواد والصيغ بالشكل؛ مما جعلها عرضة للتحريف والخطأ. وأشار إلى أن المعاجم الحديثة تفادت هذين الأمرين فالتزمت ترتيبا خاصا بكل صيغة يضعها فى موضع محدد، كما التزمت موضعا واحدا لكل معنى، إلى جانب التزامها بالضبط التام.

- ووضع الخطوط العريضة التى تبين الصورة المثلى للمعجم عند العرب كما يلى :
- الالتزام بالترتيب الألفبائى للحروف الأصلية للكلمة ، بدءا من الحرف الأول .
- الفصل بين المعانى المختلفة لكل مادة .
- ايراد الصيغ فى مواضع محددة لاتتجاوزها .
- الالتزام بالضبط .

ثم انتقل إلى المعجم العام الشامل لجميع ما تحتوى عليه العربية، فرأى أنه يجب أن يبدأ بجمع ما بقى عندنا من المعاجم القديمة والرسائل اللغوية، واستخلاص ما تتضمنه من صيغ ومعان. يلى ذلك جمع ما بقى عندنا من التراث العربى كله دون استثناء، فى كل علم وفن ومنحى، ثم تصنيف التراث - حسب مايشتمل عليه من موضوعات - تصنيفا دقيقا وفقا لأنواع النشاط الفكرى البشرى، وتقسيم كل صنف منها تبعا للقطر الذى أصدره، مهما كان موقعه من العالم، ثم ترتيب هذه الأصناف ترتيبا تاريخيا من الأقدم إلى الأحدث.

وتتم تغذية الحاسوب بهذا التراث؛ لكى تتمكن من معرفة الكلمة فى استخداماتها كلها، مصنفة على الأقطار ومرتبة على السنوات. فنتمكن من تتبع معانيها فى هذه

الاستعمالات إن تعددت ، ومن تبين الاختلاف بينها إن تغايرت ، واستنباط أسباب التباين ؛ فيمكننا أن نؤرخ للكلمة ، وحين نؤرخ لكل كلمة من كلمات اللغة نكون أُرْخنا للغتنا وللفكر العربى .

وتصور الباحث أن تحتشد لهذا العمل الكبير جهود هيئات وأجيال وأقطار متضافرة ، ترصد له المال ، وتقسم العمل المتكامل ، وتهيئ له الوسائل المعينة عليه . وضرب مثالا بمعجم أكسفورد الكبير فى اللغة الإنجليزية الذى استغرق العمل فيه ما يزيد على سبعين عاما ، واعتمد على الجهد البشرى وحده ، فكانت معاناتهم فى إخراجه أعظم مما علينا أن نعانيه لإنجاز معجم مثله فى العربية .

وانتقل إلى المعاجم الخاصة بالأدباء ، فذكر أن لكل أديب نهجه الخاص فى التعبير ، سواء فى معانى الكلمات التى يستخدمها أو فى الطريقة التى تتراكب بها الألفاظ عنده . ولن يوضح ذلك سوى معجم خاص بهذا الأديب ، يضم كل ما استعمله من ألفاظ مفردة ومركبة .

وأشار إلى معجم شيكسبير فى الإنجليزية ، وإلى جهد عبد الرحمن الحاج صالح فى الجزائر ، ثم إلى جهد قسم اللغة العربية فى كلية الآداب من جامعة القاهرة لتنفيذ الفكرة حين كلف عددا من طلاب الدراسات العليا بصنع هذه المعاجم ، مع التزام طريقة خاصة فيها .

فإذا أنجزنا معاجم شعراء عصر معين وأدبائه ، استطعنا أن نعرف اللغة العربية فى هذا العصر معرفة دقيقة وشاملة . وإذا فرغنا من سائر الدواوين والآثار استطعنا أن نتعرف على لغتنا الأدبية ، وأن نؤرخ لها من عصر إلى عصر .

ثم انتقل إلى رسم صورة للمعجم الاشتقاقى ، الذى يقسم الكلمات التى يعالجها إلى ثلاثة أنواع : العربى الأصيل ، والمشارك بين العربية واللغات السامية الأخرى ، والدخيل الذى أخذته العربية من غير الساميات ، ونبه إلى أن الأسس المهمة فى المعاجم اللغوية ، وهى ما يجب اتباعه عند وضعها ، هى :

١ - تحديد سبب تأليف المعجم ، والغاية التى يهدف إليها ؛ لكى يتلمس الطرق إلى بلوغها .

٢ - تمحيص المادة التى يتألف منها ، تبعا للهدف منه .

٣ - وضع نظام صارم لترتيبه الهجائى ، يخضع له كل من المفردات ، والصيغ داخل

المادة ، وكذلك المعانى . وإذا تعددت المعانى الأساسية فى المادة الواحدة تقسم وفقا للمعانى ، وتوضع الصيغة الموافقة لكل معنى تحته على نظامها ، وتقدم المعانى الأكثر شيوعا على غيرها ، وتؤخر المصطلحات .

٤ - تمحيص طرق تفسير المعانى ، والإكثار من الصور عند الحاجة ، ووضع الكلمة فى سياقها .

٥ - الدقة فى طباعة المعاجم .

وهكذا أعطانا شيخنا - قبل عشرين عاما - صورة واضحة متكاملة مفصلة للمعاجم التى ما زالت العربية فى حاجة إليها حتى اليوم . كما اهتم بمعالجة الظواهر اللغوية التى تدرج فى إطار المعاجم ، فأفرد بحثا مستفيضا عالج فيه ظاهرة (الأضداد فى اللغة)^(١) وطبع فى كتاب بعنوان : «مدخل تعريف الأضداد» ، كما خصص فصلا لمعالجة ظاهرة (الإتباع فى العربية)^(٢) .

وفى بحثه عن (الأضداد) عرف الظاهرة ، وأورد آراء علماء اللغة القدامى فيها ، واختلافهم حول وجودها فى اللغة ، ثم انتقل إلى آراء المحدثين حولها ، وأجمل الأدلة التى اعتمد عليها المستشرقون فى إنكار الأضداد . ثم انتقل إلى الحديث عن أصل الأضداد ، وأسباب نشأتها فى العربية . كما ذكر شروط الأضداد وأنواعها . وتناول أسباب تدوين الأضداد وظهور كتبها ، كما أشار إلى بواكير جمع الأضداد ، ورصد أسماء ثلاثة وعشرين كتابا من كتب الأضداد ، مرتبة وفقا لتواريخ وفاة مؤلفيها .

واهتم بإبراز الظواهر التى سادت كتب الأضداد التى وصلت إلينا ، وتوضيح طرق تناول مؤلفيها للأضداد . فعل ذلك فى كل من «أضداد» قطرب وأبى عبيدة والأصمعى والتوزى وابن السكيت والسجستاني وأبى بكر بن الأنبارى وأبى الطيب اللغوى وابن الدهان والصغانى ، وغيرهم ممن كتبوا رسائل فى الأضداد ، بالإضافة إلى المؤلفين الذين ضمت كتبهم أبوابا أو فصولا للأضداد ، وهم أبو عبيد القاسم بن سلام ، وابن قتيبة ، والثعالبي ، وابن سيده ، والسيوطى .

(١) نشر فى مجلة اللسان العربى ، الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب بالرباط : المجلد ٨ - ج ١ يناير ١٩٧١ / المجلد ٩

- ج ١ يناير ١٩٧٢ / المجلد ١٠ - ج ١ ، يناير ١٩٧٣ .

(٢) فى كتابه «دراسات لغوية» ، ص ٤٧ - ٦٤ ، ط ٢ . بيروت : دار الرائد العربى ، ١٩٨٦ .

وأنتهى بحثه بنظرة شاملة تحلل موقف كل من المنكرين للأضداد والمؤيدين لها ، ثم حدد المعيار الذى يجب أن تقاس به الأضداد ، ورسم الصورة الصحيحة لكلمات هذه الظاهرة .

وفى بحثه عن (الإتباع) رصد اختلاف العلماء فى تصورهم لهذه الظاهرة ، وعالجها من جوانب أربعة ، على النحو التالى :

١ - من حيث المعنى :

رصد آراء المتقدمين التى تتمثل فى اتجاهين : الأول أن اللفظ التابع لامعنى له ، والثانى أن التابع قد يكون له معنى .

٢ - من حيث الصورة :

استحسن تعريف ابن فارس وهو أن الإتباع أن تلى الكلمة كلمة على وزنها أو رويها إشباعاً وتوكيداً .

٣ - من حيث التعبير : وضع الإجماع على أن اللفظ التابع لا ينفصل عن المتبوع ، سواء له معنى أو لم يكن .

٤ - من حيث الغرض :

رأى أن الإتباع يراد منه التوكيد .

ثم رصد تقسيم عز الدين التنوخى للإتباع ، وقد عده أشمل تقسيم للظاهرة .

وانتقل إلى عرض ألوان أخرى من الإتباع لا تندرج تحت المفهوم الاصطلاحي للظاهرة ، ولكنها تندرج ضمن ألوان من الإتباع فى المفردات وفى المركبات اللغوية ، فقد خضعت المفردات لنوعين من الإتباع : نوع جرى فى حركاتها ، وآخر فى حروفها ؛ وكلاهما يضم المطرد وغير المطرد ، كما تخضع المركبات لإتباع يجرى فى الحروف . وخلص إلى القول إن الإتباع ظاهرة لغوية جمالية ، تدل على ما يعانىها المتكلم من انفعال ، وتمنح المستمع متعة فنية ؛ فالمتحدث بها لا يقصد إلى الإخبار المجرد ، بل يرمى معه إلى المشاركة الوجدانية .

وفى إطار المعاجم المتخصصة تناول كلا من كتب النبات والإبل والتراث الجغرافى اللغوى عند العرب بالدراسة التفصيلية فى كتابه : «دراسات لغوية» . كما أشار إلى معاجم المعانى حين درس كتب الفروق اللغوية .

وعندما تناول كتب النبات ذكر أن اللغويين العرب تعرضوا للنبات فى كتب خاصة به ، وفى أبواب من كتب عالجت النبات وغيره من الموضوعات التى تعرضت لها الرسائل اللغوية ؛ وحكم بأن الذين خصوا النبات بأبواب من كتبهم لم يوفوه حقه ، فكانت أبوابهم قصيرة لا قيمة لها ، ما عدا المخصص لابن سيده . وكانوا يحاولون شيئاً من الترتيب الزمنى خاصة عندما يتيسر لهم ذلك . ووصل الأصمعى وابن خالويه إلى تقسيم محكم للشجر الذى عالجاه فى كتابيهما ، ثم التزم أبو حنيفة الدينورى الترتيب على الحروف ، ولكنه كان ترتيباً قاصراً ، ونضج الترتيب عند أحمد عيسى والأمير مصطفى الشهابى ، ولكنه كان ترتيباً أجنبياً ، وظهر لون من الترتيب عند صاحبى «الإفصاح» .

ويمكن القول إن أكثر القدماء اتفقوا فى علاجهم لموادهم على منهج يقوم على الإشارة إلى المفرد والجمع والمشتقات وإيراد الشواهد ، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك كثيراً .

وفى كتب الإبل ذكر أن العرب تنبهوا إلى معالجة الإبل فى النصف الثانى من القرن الثانى ، ثم توالى الكتابة عن الإبل ، ولم يصل إلينا من الكتب الخاصة بها غير كتاب الأصمعى ، الذى كان ذا أثر كبير فى بقية الكتب اللغوية التى تعرضت لهذا الموضوع بعده ، فقد صار هذا الكتاب القدوة التى يحتذى بها ، فى المادة وفى النواحي التى يجب تناولها ، وفى الترتيب .

وتناول التراث الجغرافى اللغوى عند العرب فاخص الذين عالجوا أسماء الأماكن معالجة لغوية أدبية ، فأورد كتبهم ، وأشار إلى أنها جميعاً كانت تهتم بالاسم أكثر من المسمى ، باعتبار الاسم من المادة اللغوية التى تعالجها ، واعتمدت على الشعر والأخبار الغريبة فى استخلاص هذه الأماكن وتحديد مواقعها ، كما يعتمد عليه اللغويون فى تفسير الألفاظ ، وأقامت تحديدها للمواقع على ذكر الأماكن المجاورة وأبعادها عنها بالمراحل والأيام والأميال . وكان أدقهم ياقوت الذى اعتمد على معلوماته الجغرافية ، حتى كان يحدد المواضع بخطوط الطول والعرض .

وكانت الجزيرة العربية وما تآخمها من أقطار عربية هى موضع دراسة المؤلفين الأولين ، ولم يشذ عنهم غير الجاحظ الذى تناول بلاداً غير عربية ، وبقي الأمر كذلك حتى القرن السادس ، فتناول المؤلفون المدن الإسلامية الأخرى ، ثم توسع العمرانى وياقوت إلى بقية أنحاء العالم القديم ، واختلفوا فى ترتيب الكتب ، إلى أن بلغ الترتيب كماله عند ياقوت الذى راعى حروف الكلمة كلها أصلية كانت أو مزيدة .

واتفق البكرى وياقوت على ضبط الأسماء بالعبارة ، وإبانة حقيقة حروفها والحركات عليها ، والإشارة إلى اشتقاقها ، وأفادا من المعاجم اللغوية : فاستقى البكرى كثيرا من رسومه من «جمهرة» ابن دريد ، وأكثر ياقوت من الرجوع إليه وإلى الأزهرى والجوهري ، فتبادل هذا النوعان من المعاجم التأثير والتأثر .

وذهب إلى أن «معجم البلدان» لياقوت يمثل القمة التى وصل إليها هذا النوع من التأليف ؛ فقد مزج فيه صاحبه جميع ألوان الثقافة الإسلامية المتصلة به .

وأشار إلى معاجم المعانى حين درس كتب الفروق اللغوية وهى الكتب التى تعالج الألفاظ التى تطلق على أعضاء تشترك فيها أنواع الحيوان ، وتأخذ فى كل نوع لفظا خاصا . فبدأ بكتاب قطرب ، وذكر أنه تناول الفروق فى ثلاثة أمور فحسب ، هى أسماء الحيوان وأولاده ، وجماعاته ، وأصواته ، وأفرد كل حيوان من شاء الوحش ، وذوات البرثن ، وذوات الجناح ، وراعى فى التعرض لها ترتيبا معيننا التزم به .

وذكر أسماء العلماء الذين ألفوا فى الفروق موضحا أن كتبهم ضاعت كلها إلا واحدا .

وانتقل إلى كتاب الأصمعى فعقد مقارنة بين الموضوعات التى تناولها الأصمعى وقطرب ، وبين أن الأصمعى اكتفى بوضع الأمور المتقاربة متعاقبة ، ولم يراع أى ترتيب . وانفرد ثعلب - بين أصحاب الموسوعات اللغوية المرتبة على الموضوعات - بتخصيص الباب الأخير من كتاب «الفصيح» للفروق ، وضبط كلماته .

ولا أستطيع فى هذا المجال إغفال تحقيق أستاذى لمعجمين من معاجم العربية : أولهما الجزء السادس من «تاج العروس» للزبيدى ، الذى نشر ضمن سلسلة التراث العربى فى الكويت ، ١٩٦٩ : والثانى هو «معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية» الذى نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بالقاهرة ، ١٩٧١ ، وطبعته دار الكتب فى ستة مجلدات عام ٢٠٠٢ .

وبعد فقد كانت هذه محاولة لتسجيل جهود أستاذنا العلامة فى الدراسات المعجمية ، تتبعنا فيها محاولاته الدؤوب - طيلة نصف قرن - فى عرض المعاجم وتحقيقها ودراساتها ، ورسم منهجها ، وتبين الثغرات التى يجب علينا ملؤها لنستكمل النقص فى معاجمنا ، ونصل بها إلى مستوى المعاجم المتقدمة ، التى تأخذ بالتقنيات المعجمية الحديثة .

المختار من نصارى الصناعة المعجمية

أ. ط/ صلاح الدين حسنين*

يميز اللغويون بين مصطلحين : علم المفردات (الثروة المعجمية) Lexicology ،
والصناعة المعجمية Lexicography .

١ - علم المفردات .

يهتم هذا العلم بالثروة اللغوية ، والمقولة النحوية للكلمة والمعلومات الوظيفية الخاصة
بها ، ومعنى الكلمة ، والتوليد .

الثروة اللغوية : تُقسَّم الثروة اللغوية إلى كلمات أصلية ، وكلمات أجنبية مقترضة ،
دخلت اللغة بسبب احتكاك اللغة مع غيرها من اللغات ، وكلمات مولدة .

الكلمات الأصلية : تركز الدراسة هنا على وسائل نمو الثروة اللغوية ، ولها ثلاث
وسائل هى الاشتقاق - النحت - التركيب .

الاشتقاق : هو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية ، وهيئة تركيب
لها ؛ ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة^(١) .

ويساعدنا الاشتقاق على التمييز بين الأصل والمشتق ، يمثل الأصل الجذر ؛ أى
مجرد الصوامت ، والوزن ، وهو يشمل الحركات ، أو الحركات والتشديد أو الحركات
والزوائد ، أو الحركات والتشديد والزوائد ؛ نحو : فَعَلَ وفَعَّلَ وأَفْعَلَ وتَفَعَّلَ ... إلخ ،
والصيغة ؛ وتشمل الأصل مضافاً إليه الوزن ؛ نحو : كتب وكَسَّرَ ، وأَكْرَمَ ، وتَفَهَّم ... إلخ .

النحت : يقصد به تكوين كلمة جديدة مركبة من كلمتين أو أكثر للدلالة على معنى
مركب من معانى الألفاظ المتكونة منها ؛ وهو نوع من الاختصار لجأ إليه المتكلمون باللغة
العربية ، والداعى إليه كما قال أحد العلماء : عدم جواز اشتقاق كلمة من كلمتين فى أقيسة
التصريف^(٢) .

(*) أستاذ اللغويات بكلية الآداب جامعة القاهرة فرع بنى سويف .

(١) انظر : السيوطى ، المزهرفى علوم اللغة وأنواعها ، (٣٤٦/١) ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، ومحمد أبو الفضل

إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبي ، ١٣٧٨هـ / ١٩٦٨م .

(٢) انظر : حلمى خليل : المولد ، ص ١٠٢ . الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨م .

٢ - الصناعة المعجمية :

المعجم وأصنافه : المعجم وعاءٌ تُحفظ فيه اللغة ، وهو بهذه المثابة مفروض فيه أن ينبه الباحث إلى الثمين والغث من محتوياته ، إلى المفيد والأقل فائدة ، إلى الضروري وما لا لزوم له ، إلى الثابت الأصيل والمشكوك فيه أو المزيف ، وهو مطالب بأن يتكيف حسب حاجة المستعين به ؛ بحيث تكون هناك ألوان شتى من المعاجم ، وهو مسئول عن حفظ اللغة ، وعن تطويرها أيضاً .

والمعاجم اللغوية ثلاثة أصناف :

أ - معاجم الترجمة أو المعاجم ثنائية اللغة التى تحدد المفاهيم بين ألفاظ اللغة القومية ولغة أجنبية .

ب - المعاجم اللغوية : وهى التى تشرح ألفاظ اللغة ؛ حتى يستعين بها الباحث على معرفة معنى ما يصادفه من الغريب .

ج - المعاجم الموضوعية ، أو معاجم المعانى : وهى التى ترتب الثروة اللغوية فى مجموعات من الألفاظ تندرج تحت فكرة واحدة ؛ فمثلاً يجد الباحث فيها فى مادة أسرة جميع الألفاظ الدالة على الأبوين والأقارب بحسب درجاتهم فى القرابة ، سلفاً كانوا أم أنداداً أم خلفاً ، وإذا احتاج إلى لفظ دقيق يدل على لون يراه مثلاً ؛ فإنه يجد فى مادة لون كل ما تضمه اللغة من أسماء الألوان بدرجاتها المختلفة .

ومن المعاجم اللغوية تفرعت فروع حديثة فى فن تأليف المعاجم ، أهمها :

- ١ - المعاجم الاشتقاقية أو التأصيلية ؛ وهى التى تبحث فى أصول ألفاظ اللغة .
- ٢ - المعاجم التاريخية ؛ وهى معاجم تهتم بأصل المعنى بعكس سابقتها التى تهتم بأصل اللفظ ، وهى تتبع استعمال اللفظ عبر العصور والنصوص ، وما طرأ على معناه من تطور ، فتثبت ذلك ، وتؤرخ له .

٣ - المعاجم الموسوعات ؛ وهى سجلات ألفبائية لمعارف البشر عامة ، أو فى فرع من الفروع ، يُستوفى شرحه من الناحية العلمية . وباختصار هو (دائرة معارف) .

٤ - معاجم المصطلحات ؛ وهى التى تهتم بحصر مصطلحات علم معين ، أو قائم بذاته ، وتشرح مدلول كل مصطلح حسب استعمال أهله والمختصين به^(١) .

(١) انظر : حسين ظاظا : كلام العرب ج ٢ / ١٠٠ - ١٠٤ ، دمشق ، ١٩٩٥ م .

حسين نصار والصناعة المعجمية :

وقد عنى حسين نصار بموضوع الصناعة المعجمية عند أصحاب المعاجم العربية ويتضح هذا من نواح كثيرة فى كتابه : «المعجم العربى ، نشأته وتطوره» .

فقد تعرض لهذه الأسس عند تحليله لكل معجم تعرض له ، وعند تناوله لخصائص المدرسة التى ينتمى المعجم إليها ، أضاف إلى هذا أنه خصص الجزء الثالث من كتابه للحديث عن المعاجم التى نحتاج إليها ، وقَسَمَ هذا الجزء إلى فصلين ؛ تحدث فى الأول منهما عن عيوب المعاجم القديمة ، وتحدث فى الثانى عن خصائص المعاجم التى نحتاج إليها . وسأعرض فيما يلى لكل ذلك فى ضوء الترتيب الذى أوضحته عندما تناولت الصناعة المعجمية .

١ - المعاجم العربية والتصنيف المعجمى :

يرى حسين نصار أن المعلومات التى تحتوى عليها سائر المعاجم العربية تجعل من الصعب تصنيف هذه المعاجم ؛ فهى تجمع بين ما يمكن أن نطلق عليه حالياً دوائر المعارف ، والمعاجم اللغوية ، يقول فى هذا : «لم يتمثل أصحاب المعاجم الغرض منها ؛ فهم جميعاً ، سواء من أطال ومن اختصر ، يريدون أن يجمعوا اللغة بواضحها وغريبها ، ونادرها ولغاتها ، وأن يجمعوا معها معارف العرب ، أو النواحي المختلفة من الثقافة العربية ، حتى أصبحت معاجمنا كبرج بابل ، يحوى من كل صنف ، وتختلط فيه الأصناف اختلاطاً عجيباً ، فهذا ابن دريد يريد أن يجمع جمهور الكلام فيأتى بما لم يعرفه عرب الشمال إلا من أبعد منهم فى الجنوب قاصداً بتجارته اليمن ، وأتى بما لا يدور على ألسنة عرب الشمال إلا قليلاً أو على ألسنة قبائل متفرقة منهم ، فكان من النادر ، وهذا ابن فارس يؤلف «المجمل» فيحشوه بما يزخر به كتابه الأكبر (المقاييس) ، ويملؤه بما أتى به الخليل الذى قصد إلى الواضح والغريب فى معجمه ، وبما أتى به ابن دريد ، وقد مضى ذكر ما أولع به من لغات يمنية وغيرها .

أما من أطالوا فحشوا كتبهم بالأعلام العربية ، والأعجمية ، وأسماء الأماكن والقصص والخرافات ، والمفردات الطبية ، والاصطلاحات الغريبة ، حتى مصطلحات ضرب الرمل والأمور الأجنبية من الإسرائيليات ، والروميات ، والهنديات ، والمشتقات القياسية ، وما يمكن الاستغناء عنه ، ودفع حب الغريب بعضهم إلى تأويل الواضح والإبعاد فى معناه . وليتهم ساروا فى هذه الأمور على وتيرة واحدة ، وعمدوا فيها إلى الاستقصاء ، ولكنهم كانوا يعنون بالأعلام ، فيأتون ببعضهم ، ويهملون آخرين ، لعلمهم أشهر ممن ذكروهم .

ويُعنون ببعض المصطلحات ، فيذكرونها ويهملون أخرى لعلها أكثر منها شهرة ودوراً على الأُسنة ، وليتهم عُنوا بالدقة والتحديد فيما ذكروه حتى يُعطوا صورة واضحة منه ، فلو فعلوا ذلك لا اعتبرنا معاجمهم دوائر معارف . . . والرأى عندى أن تبتز جميع هذه الفنون من المعاجم ، ولا تُبقى إلا الألقاب التى لها دلالة خاصة والمصطلحات الشائعة»^(١) .

وقد أكد حسين نصار على ضرورة التمييز بين المعجم اللغوى ودائرة المعارف ، حيث يقول : «المعجمات لتفسير الألفاظ ، ودوائر المعارف لوصف الأشياء ، ولا يصف المعجم من الأشياء إلا ما لا بُدَّ منه ؛ إبرازاً لدلالة اللفظ ، واستعمالاته ، ولا يُعنى بهذا الوصف إلا بالقدر اللازم لهدفه هذا . كذلك لا تشترك مفردات النوعين ، فالمعجمات تحتوى على أصناف الكلام جميعها من أسماء وأفعال وحروف ، ولا تُعنى من الكلام إلا بما ينتمى إلى اللغة التى تؤلف منها ؛ فالمعجم يُعنى باللفظ العربى ، أو ما يتكلم به العرب . . . أما دوائر المعارف ؛ فتعنى بالأسماء الخاصة وحدها ، أى أسماء الأشياء والأعمال دون أن تتقيد بلغة معينة» .

فى ضوء كل ذلك دعا حسين نصار إلى ضرورة الاهتمام بالتصنيف المعجمى فى ضوء الهدف المحدد للمعجم ، كمعاجم المصطلحات ، وأوضح أن مجمع اللغة العربية أنجز كثيراً من مصطلحات العلوم والفنون ونشرها تباعاً فى مجلته ، والمعجم التاريخى . كما دعا إلى وضع معاجم مختلفة الحجم : المعجم الكبير ، والمعجم الوسيط ، والمعجم الوجيز ، ومعجم الجيب ، وأوضح أن مجمع اللغة العربية نشر المعجمين الوسيط والوجيز ، وأنه فى سبيل إنجاز المعجم الكبير ، أما معجم الجيب ، فلم ينجز حتى الآن ، وينقصنا مثل هذا النوع من المعاجم .

٢ - المادة اللغوية التى تحتوى عليها المعاجم العربية :

حدد أصحاب المعاجم هدفهم من معاجمهم بأنه جمع اللغة ، ويرى حسين نصار أن هذه المعاجم لم تحقق هذا الهدف ، ومن ثم تعد قاصرة ، ويرجع هذا القصور إلى عدة أسباب ، من بينها أن أصحاب المعاجم اقتصروا على جمع الفصيح الصحيح ، وهنا يقول محمد أبو الفرج : إن الفصيح عند أصحاب المعاجم هو الكلمة التى يكثر استعمالها على ألسنة العرب ، أما الفصيح الصحيح ؛ فهو الكلمة التى يكثر استعمالها عند قبائل محددة ، وليست كل القبائل . وهذا التعريف لا يكفى ، بل هى الكلمة الشائعة عند الخاصة من هذه القبائل ، وليس عند العامة ؛ لذا نجدهم يهتمون بالكلمات التى مصدرها القرآن الكريم

(١) انظر : حسين نصار : المعجم العربى ؛ نشأته وتطوره ، (٧٤٩/٢ ، ٧٥٠) ، ط ٢ . دار مصر للطباعة ، ١٩٦٨ م .

أو الشعر أو الكلمات نادرة الاستخدام (الغريبة) الشائعة على ألسنة الخاصة من القبائل المحددة ، ومن اشترطوا في مثل هذا النوع من الكلمات ألا تكون وحشية ؛ أى لا ينفر السامع عنها ، أضف إلى هذا أن الكلمات التى يعترف بها هى تلك التى ترجع إلى عصور الاحتجاج .

وكان من نتائج ذلك أن أصحاب المعاجم أهملوا الألفاظ المولدة ، يقول حسين نصار : إن ذلك أضاع علينا كثيراً من الألفاظ التى ابتكرها العباسيون للمظاهر والحضارة الجديدة التى عاشوا فيها ، وجعلوا اللغة لا تسير ركب الحياة ، فاتهمت بالتحجر ، ويرى أنه لمعالجة مثل هذا القصور يجب أن نتدارك ما أهمله أصحاب المعاجم من ألفاظ الأدباء والعرب الذين يُستشهد بكلامهم فى عرفهم ، وأنا نستطيع أن نجمع قدراً كبيراً منه حين نحقق دواوين الشعر ومجاميع الأدب ، ونبرزها فى صورة علمية معتمدة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا بالتخلص من إشكال الألفاظ المولدة والمحدثه نستطيع أن نؤلف أصنافاً من المعاجم ، منها ما يختص بالألفاظ الفصيحة وحدها ، ونسميه معاجم العربية الفصحى ، ومنها ما يختص بالألفاظ جميعاً ونسميه معاجم العربية العامة .

٣ - ترتيب المعجمات :

أولاً : الترتيب الخارجى للمداخل : ترتيب المواد

أ - إن تحديد المادة يرتبط بشكل مباشر بفكرة الاشتقاق ؛ ذلك أن المادة أو الجذر تمثل الأصل ، والصيغ تمثل الفروع المشتقة من الأصل . وهذا يعنى أن تحديد الجذر مهم جداً للترتيب المعجمى . وفى ذلك يقول حسين نصار : إن الصرفيين اختلفوا فى تحديد الجذر (الأصل) ، ومن أمثلة هذا الاختلاف ما يلى :

١ - الفعل الرباعى المضاعف : يرى الكوفيون أنه مشتق من الثلاثى ، ويرى البصريون أنه أصل بذاته . وقد انعكس هذا الخلاف على أصحاب المعاجم ؛ فالمعجمى الكوفى سيراغى المذهب الكوفى ، والمعجمى البصرى سيراغى المذهب البصرى ، وهكذا نجد اختلافاً فى ترتيب المواد ، فالبعض سيفرد مدخلاً خاصاً للفعل حسب المنهج البصرى ، والبعض الآخر سيضع الفعل ضمن مشتقات المادة الثلاثية .

٢ - المواد التى تحتوى على الهمزة ، وحرفى العلة الواو والياء ، والنون :

من المعروف أن الصيغ المعتلة بالواو أو بالياء تتعرض للقلب والإبدال ؛ فقد قلب الهمزة واواً أو ياءً فى بعض الصيغ ، والعكس صحيح ، فإن الهمزة قد تبدل واواً أو ياءً عند تسهيلها . وإزاء ذلك نجد من المعجمين من يعتد بالواو أو الياء للصيغ المهموزة ، ونجد

منهم من لا يعتد بذلك . وعلى النقيض من ذلك نجد منهم من يعتد بأصالة الهمزة للصيغ المعتلة . وقد انعكس ذلك على ترتيب مثل هذه المواد ، بل الأكثر من ذلك لم يستطع المعجميون في جميع الأحوال فصل المعتل الواوى عن المعتل اليائى ، وهذا انعكس هو الآخر على الترتيب المعجمى . أما الكلمات المحتوية على النون فقد اختلطت على أصحاب المعجم ؛ خاصة إذا كانت الكلمة معربة ، فهل النون فيها أصلية أم لا؟ نحو نرجس^(١) .

ب - قسم حسين نصار المعاجم حسب ترتيب مداخلها الخارجية إلى أربع مدارس هي :

المدرسة الأولى : وتعرف بمدرسة الترتيب الصوتى ، ويعتمد ترتيب هذه المدرسة على الأسس الآتية :

١ - رتب المعجم حسب ترتيب مخارج الحروف ابتداءً من حروف الحلق ، حتى الحروف الشفهية ؛ وهذا يعنى أن المعجم نفسه ينقسم إلى كتب يتناول كل كتاب حرفاً من الحروف ، ويبدأ الكتاب الأول بالعين ، والثانى بما يلى العين من المخارج وهو الحاء ، وهكذا حتى يتم الوصول إلى الباء .

٢ - قسم المعجم أبواباً ؛ كل كتاب حسب الأبنية ، فخصّص باباً للثنائى ؛ ثم باباً للثلاثى ، فالرباعى ، فالخماسى .

٣ - ثم قسم المعجم كل باب إلى فصول حسب تنقل كل حرف من نظامه فى كل بناء من الأبنية السابقة ، فرئى أن الحرف المعقود له الكتاب يغير من موضعه فى البناء الثنائى مرتين ، وفى البناء الثلاثى ثلاث مرات وتعرف هذه الطريقة بالتقاليب ، وكان يعتبر فى عنوان كل فصل من هذه الأبنية المستعمل والمهمل .

المدرسة الثانية : وتعرف بمدرسة الترتيب الألف بائى ، ولهذه المدرسة اتجاهان ؛ اتجاه يُعزى إلى ابن دريد ، واتجاه يُعزى إلى ابن فارس .

الاتجاه الذى يعزى لابن دريد يعتمد على الأسس الآتية :

١ - الأساس الأول هو الأبنية : الأبنية عند ابن دريد هي :

(أ) الثنائى المضاعف ، وألحق به بابان : الرباعى المكرر (الرباعى المضاعف) ، والثنائى المعتل (اللفيف) .

(ب) الثلاثى الصحيح ، وألحق به ثلاثة أبواب : المضاعف دون إدغام (كعك) ، والمعتل العين واللام ، والنوادر فى الهمز .

(١) انظر : حسين نصار : (٧٥٥/٢) .

(ج) الرباعى الصحيح ، وتلحق به عدة أبواب .

(د) الخماسى الصحيح ، وتلحق به عدة أبواب .

٢ - الأساس الثانى :

ينقسم كل نوع مما سبق إلى أبواب وفقاً للحروف ، فأولها باب الهمزة .

٣ - الأساس الثالث :

افتتح كل باب بالحرف المخصص له مع الحرف الذى يليه فى الترتيب ، فما بعده .

٤ - الأساس الرابع : أتى بكل كلمة مع تقاليبها .

والاتجاه الذى يعزى إلى ابن فارس يعتمد على الأسس الآتية :

الأساس الأول : قُسم المعجم إلى كتب ، اختص كل كتاب بحرف من حروف الألف باء ؛ فجعل الكتاب الأول للهمزة ، والثانى للباء ... إلخ .

الأساس الثانى : قُسم كل كتاب إلى ثلاثة أبواب بحسب الأبنية ، أى باب الثنائى المضاعف ، فباب الثلاثى ، وأخيراً ما زاد على الثلاثى المجرد .

الأساس الثالث : رُتبَت الكلمات فى باب الثنائى والثلاثى بحسب الحرف الثانى منها ؛ لاتفاق الحرف الأول منها دوماً ؛ لأنه الحرف المعقود له الكتاب ، فالثنائى من باب الهمزة مثلاً يستهل بالهمزة مع الباء ، فالهمزة مع التاء ... إلخ .

وروعى فى الثلاثى ترتيب حرفه الثالث ، فيستهل كتاب الهمزة مثلاً بـ (أبت) ، فـ (أبج) حتى تنتهى الحروف جميعاً ؛ وهذا يعنى أن ابن فارس يستهل الفصل بالحرف المعقود له الباب مع ما يليه ، فيستهل باب الباء مثلاً بها مع التاء .

الأساس الرابع : وجد ابن فارس بعد أن وصل إلى حرف الياء من كل مادة أنه لا يزال أمامه الكلمات المؤلفة من الحرف والحرف السابق عليه ؛ فوضعها فى آخر الباب بعد حرف الياء ، ورتبها الترتيب المألوف ؛ أى مبتدئاً بالألف ، فالباء ، فالتاء ؛ حتى ينتهى عند الحرف السابق مباشرة لحرف الباب ، أو حرف الباب نفسه .

المدرسة الثالثة : وهى مدرسة الصحاح ، للجوهرى . يقوم الترتيب عند الجوهرى على الأسس الآتية :

الأساس الأول : عد أواخر الكلمات فى ترتيبها على الألف باء بدلاً من أوائلها ، وقسم المعجم إلى ٢٨ باباً ، كل منها يتناول الألفاظ المتحدة الحرف الأخير ، فباب لما آخره الهمزة ، بعده باب لما آخره الباء ، غير أنه جمع بين ما آخره الواو والياء فى باب واحد ، وأخّر الألف اللينة غير المهموزة ولا المنقلبة عن واو أو ياء فى باب بعد الواو والياء .

الأساس الثانى : قَسَمَ كل باب من هذه الأبواب إلى فصول تبعًا للحرف الأول من اللفظ على الألف باء أيضًا فباب الهمزة مثلاً يحتوى على فصل الهمزة ، ففصل الباء ، فالتاء ، فالثاء ، وخالف فى الفصول ما اتبعه فى الأبواب بإزاء الواو ، فلم يجمع بينها وبين الياء ، ولكنه أراد أن يفصل بينهما ، ولذلك قدم الواو على الهاء ، وأعقبها بالهاء فالياء .

الأساس الثالث : راعى فى ترتيب الألفاظ فى داخل الفصول الحرف الثانى أيضًا وجعله على ترتيب الألف باء مع تقديم الواو على الهاء هنا للمرة الثانية للفصل بين الواوى واليائى . وذكر فى هذه الفصول جميع الألفاظ ، ثنائية البنية كانت أو ثلاثية أو رباعية ، فلا مراعاة لذلك عنده ، وكان يعتمد على الحروف الأصلية وحدها ، ويهمل الزائدة ؛ فإذا كان اللفظ رباعيًا أو خماسيًا ، لم يكتف بترتيب آخره ، فأوله وثانيه ، بل وثالثه ورابعه أيضًا ؛ أى أنه التزم بترتيب الوسط كذلك .

المدرسة الرابعة : وهى مدرسة الزمخشري : تعتمد على أساسين فقط هما ما يلى :
الأساس الأول : رتب المعجم حسب الترتيب الألف بائى ، ورتب وفقًا له الألفاظ من أولها إلى آخرها بحسب حروفها الأصول وحدها ، وكان ذلك للمرة الأولى فى تاريخ المعاجم العربية .

الأساس الثانى : كان يقسم مواده إلى قسمين : الأول للمعانى الحقيقية ، والثانى للمعانى المجازية^(١) .

ملاحظات :

١ - يلاحظ أن معاجم المدرستين الأولى والثانية التزمت نظامًا معقدًا من الترتيب ؛ لأنها ربطت بين ترتيب الحروف ؛ سواء أكان مخرجيًا ، أو ألفبائيًا ، وبين الأبنية ، وإذا أضيف إلى ذلك اختلاف المعجمين فى تحديد المواد ؛ فإن ذلك أضاف إلى تعقیده كثيرًا من الاضطراب .

٢ - أما معاجم المدرستين الثالثة والرابعة ؛ فإنها تخلصت من مشكلة الأبنية ، وبذلك ركزت على ترتيب المواد ، واستعاضت عن الأبنية بمراعاة ترتيب وسط الكلمة ، غير أن ترتيب المدرسة الرابعة يعد أسهل ترتيب عرفتة المعاجم العربية ، وهو الذى ينادى المعجميون المعاصرون باتباعه الآن .

(١) راجع فى كل ما سبق : المعجم العربى .

ثانيا : الترتيب الداخلى للمداخل : ويقصد بذلك ترتيب المشتقات .

يقول حسين نصار : إن ترتيب المشتقات داخل المواد ترتيب مضطرب إلى حد كبير ، بل إنه لمما يزيد من هذا الاضطراب أن الصيغة الواحدة قد تتكرر فى أكثر من موضع ، وفى كل موضع تفسر تفسيرا محددًا ، وقد لا تفسر تفسيرا واحداً لاختلاف المصدر الذى استقى المعجمى منه مادته ، ورأيت للوقوف على هذا الاضطراب أن التزم بالترتيب الذى وضعته لجنة تأليف المعجم الوسيط فى مجمع اللغة العربية ، ثم أقارنه بالترتيب الذى جاءت عليه هذه الصيغ فى المعاجم الآتية : العين - الجمهرة - مقاييس اللغة - الصحاح - القاموس المحيط .

والجدول الآتى يوضح ذلك ، وسأتعرض هنا للمادة التى حللها حسين نصار فى معجمه فى هذه المعاجم ، وهى مادة عَقَّ :

الترتيب الأمثل (المعجم الوسيط)	الترتيب	الجمهرة	مقاييس اللغة	الصحاح	القاموس
١ - عَقَّتْ الأنثى الحيوان - عَقَقًا وَعَقَقًا : حملت ٢ - عَقَّ البرق - عَقًا : انشقَّ	١١				
٣ - عَقَّ فلان : حَلَقَ عقيقة مولوده					
٤ - عَقَّ القوم بسهم : رَمَوْا به نحو السماء إشعارًا بقبول الدية عوضًا عن الدم				٨	٩
٥ - عَقَّ عن ولده : ذبح ذبيحة يوم سبوعه .	١	١٠	٢	٩	٨
٦ - عَقَّ الأرض والثوب : شَقَّه .		١	١		٧
٧ - عَقَّ الريح السحاب أو المزنه : استحلبته ؛ كأنها شَقَّتْهُ . ٨ - عَقَّ أباه عَقًا وَعُقُوقًا وَمَعَقَّةً : عصاه وترك الإحسان إليه فهو عَاقٌ وَعُقُوقٌ	١٢	٣	١٠	١٠	١٠
٩ - عَقَّ رحمَه : قطعها . عَققت وبر الشاة : جززته .			٦		
١٠ - أَعَقَّت النخلة : أخرجت العِقَان .					
١١ - أَعَقَّ فلان : جاء بالعُقُوق والعصيان				١٢	
١٢ - أَعَقَّت الناقة : إذا كثر صوفها			٥		١٨

الترتيب الأمثل (المعجم الوسيط)	العين	الجمهرة	اللغة مفاتيح	الصحاح	القاموس
١٣ - أعَقَّت المرأة : نبتت عقيقة ولدها في بطنها ، فهي مُعِقٌ وَعَقُوقٌ .	٥		١٤	١٣	
١٤ - أعَقَّ الماء : جعله مُرًا .					١٣
١٥ - عَاقَهُ : خالفه .					
١٦ - اعتَقَّ السحاب : انشَقَّ .					
١٧ - فلان السيف : استَلَّه					١٩
١٨ - انْعَقَّ الثوبُ والغبار والسَّحاب : انْشَقَّ			١٢	٥	٢٠
١٩ - البرقُ : انتشر شعاعه ، في السحاب .	٩		٩		٢١
٢٠ - الغبار : سطع .	١٠				
٢١ - الوادي : عمق .					
٢٢ - العُقَاق من الماء : الشديد المرارة .	٨			١٤	
٢٣ - العُقَاقَة : السحابة تنشق بالبرق .		١٢			
٢٤ - العَقُّ : العاقُّ .:					
٢٥ - كل خرق في الرمل وغيره - حَفَرٌ مستطيل في الأرض .				٤	
- المُرُّ من الماء		٧		١٥	١١
٢٦ - عِقٌ		٣			
٢٧ - وَعَقٌ		٤			
٢٨ - العُقَقُ : البرق في وسط السحاب ، كأنه سيف مسلول		١١	٨		
٢٩ - _____ : الولد العاق .	١٣			١١	
٣٠ - العِقَانُ : عِقَان الكروم والنخيل : يخرج من أصولهما					١٧

الترتيب الأمثل (المعجم الوسيط)	العين	الجمهرة	اللغة	مقاييس	الصحاح	القاموس
٣١ - العَقَّةُ : حُفْرَةٌ عميقة في الأرض .		٥	١٦			١٦
٣٢ - _____ : البرقة المستطيلة في السماء .		٧				١٥
وعَقَّةٌ : الشاة .	٣					١٢
٣٣ - العُقُوق من البهائم : الحامل ؛ وجمعها عُقُق .	٦					١٢
٣٤ - نوى العُقُوق : نوى هش لين رخو	٧		١٥	١٤	١٤	١٤
٣٥ - الأبلق والعُقُوق : مثل لما لا يكون . ج : عُقُق وعقاق						١٣
٣٦ - العُقُق : البُعْدَاء من الأعداء .						
٣٧ - _____ : قاطعوا الأرحام .	١٠					
٣٨ - العقيق : حجر كريم أحمر ، واحدته عقيقة .	١٤				٦	١
٣٩ - _____ : الوادى الذى شَقَّه السيل قديماً ، فأنهره . ج : أَعَقَّة .	١٥	٢	١٤	٧	٢	
٤٠ - _____ : شعر كل مولود من الناس ، والبهائم ينبت ، وهو فى بطن أمه .						٣
٤١ - العقيقة : شعر كل مولود من الناس ، والبهائم ينبت وهو فى بطن أمه . ج : عَقَائِق وعُقُق .	٤	٩	٤	١		٤
٤٢ - الذبيحة التى تُذْبَح عن المولود يوم سبوعه عند خلق شعره	٢		٣	٢		٥
٤٣ - من البرق : ما يبقى فى السحاب من شعاعه . ج : عقائِق .	٨	٦	١١	٣		٦
٤٤ - حفرة مستطيلة فى الأرض . ج : عقائِق .	١					
٤٥ - عقيقة الأرض : نبت الأرض الأول .			٧			
٤٦ - عقيقة : ج : العقائِق : السيوف تلمع كالبرق .			١٣			

ملاحظات :

١ - اشتركت هذه المعاجم فى خمس صيغ ، ولكن ترتيبها اختلف فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين الترتيب الذى خطط له مجمع اللغة العربية ، وفيما يلى بيان بذلك .

أ - الصيغة (٥) فى ترتيب المعجم الوسيط جاءت فى العين رقم (١) ، وفى الجمهرة رقم (١٠) ، وفى المقاييس رقم (٤) ، وفى الصحاح رقم (٩) ، وفى القاموس رقم (٨) .

ب - الصيغة (٣٦) فى ترتيب المعجم الوسيط جاءت فى العين رقم (١٥) ، والجمهرة (٢) ، والمقاييس (١٤) ، والصحاح (٧) ، والقاموس (٢) .

ج - الصيغة ٣٨ جاءت فى العين (٤) ، والجمهرة (٩) ، والمقاييس (٤) ، والصحاح (١) ، والقاموس (٤) .

د - الصيغة (٤٠) جاءت فى العين (٨) ، والجمهرة (٦) ، والمقاييس (١١) ، والصحاح (٣) .

٢ - إن دلّ هذا فإنه يدل على مدى الاضطراب ؛ كما قال حسين نصار فى ترتيب المشتقات .

٤ - ضبط الصيغ ومقولاتها التركيبية والوظيفية :

لم يهتم أصحاب المعاجم المتقدمون بضبط الصيغ ، نلاحظ ذلك عند الخليل ، وابن دريد ، وابن فارس ، ولكن اهتم به القالى والجوهري والفيروزآبادى . ولم يلتزم أصحاب المعاجم بإيضاح المقولات النحوية بشكل مفرد .

٥ - المعانى وشرحها :

يقول الدكتور حسين نصار : إن أصحاب المعاجم خلطوا المعانى المجازية بالحقيقية ، وخلطوا المعانى المتقدمة فى الزمن بالمتأخرة ، وقد يوردون فى تفسير الصيغة أكثر من قول ، ولكنها ذات دلالة واحدة ، وأوضح أن التفسير فى كثير من الأحيان قد يكون غامضاً .

نشأة الكتابة الفنية والتفسير المضارع لظهور النوع الأدبي

أ. د / عبد المجيد راضى

(١)

كان لا بد لى ، حين سنحت الفرصة لتقديم عرض لكتاب أستاذنا حسين نصار «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» . . . كان لا بد لى من إعادة قراءته . وحين هممت بالقراءة لفتنى عنوان الكتاب ، أو - بالأحرى - لفتتنى الكلمة الأولى منه ، كلمة (نشأة) ، لقد ذكرتنى ببعض عناوين أخرى لمؤلفات خطها قلم أستاذنا تضم هذه الكلمة ، أو ما هو قريب منها . ذكرتنى بعنوان كتابه «المعجم العربى : نشأته وتطوره» ، وذكرتنى بدراسة مطوّلة له نشرت بمجلة (الأقلام) العراقية سنة ١٩٨٠ عنوانها : (عمود الشعر : منشؤه وتطوره) . بل ذكرتنى - عن طريق تداعى المفاهيم التى قد تبدو متباعدة فى الظاهر - بدراسة له بمجلة (المجلة) القاهرية سنة ١٩٥٧ عنوانها (دولة مهمة فى تاريخ مصر الإسلامية) ، وبدراسة أخرى بالمجلة نفسها سنة ١٩٦٠ عنوانها (شاعر فى مصر لم يؤرّخ له أحد) .

قد يتساءل القارئ - وهذا حقّه - عن العامل الجامع بين هذه العناوين - خاصة ما لا يضم مادة (نشأ) - وأجيب على الفور : إن ثمة دلالة لا يخطئها المتأمل ، على اتجاه صاحب هذه الأعمال إلى البحث ، بل إلى التنقيب عن البدايات ، وكذلك البحث عن المجهول والمهمّل . والجامع بين هذه المفاهيم كلها هو صعوبة المنال ، والحاجة إلى العمل المضاعف فى سبيل تصوّر الموضوع أولاً ، ثم الإحاطة به والتمكن من دراسته . فالبداية عادة غامضة ، والمجهول لا يختلف كثيراً عنها ، إن لم يفقها غموضاً ، أما المهمّل فيمكن القول بوقوعه بينها .

(٢)

نحن - إذن - أمام مؤلف ذى عقلية مغرمة بالمشكلات والتصدى للمصاعب ، وشاهدنا على هذه الدعوى عناوين أعماله التى سبق ذكرها ، وإن كان أكبرها دلالة على دعوانا هو هذا الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه ، أعنى «نشأة الكتابة الفنية» ، الذى يحمل عنوانه

هذا معضلة من مرحلتين ، لسبب منطقي هو أن عليه - بحكم ظروف البيئة العربية وتاريخها - أن يتحدث عن نشأتين ، أولاهما تتعلق بظهور (الكتابة) - مطلق الكتابة - في البيئة العربية ، أما النشأة الأخرى - وهي الأعقد - فتتمثل في تخلق السمات والخصائص التي بفعل تحققها في المستوى العادي من الكتابة . . . يكتسب هذا المستوى صفة (الفنية) . النشأة الأولى - نشأة الكتابة - وجودية ، أي هي وجود بعد عدم ، أي وجود الكتابة بعد أن كانت غير موجودة ، والنشأة الأخرى نوعية ، وتعنى تخلق نوع الكتابة الفنية في رحم الكتابة العادية بفعل تضافر ظروف حضارية معينة . هما - إذن - معضلتا الميلاد ثم التحول إلى النضج جمعهما الباحث وأودعهما عنوان كتابه .

ولم يكن الباحث غافلاً عن ذلك ، كما لم يكن غافلاً عن التحدى الذى يمثله اختياره للنوع الأدبى ذى الحظ الأدنى - وربما المعدوم فى البداية - من عناية قدامى النقاد ، إذ كانت السيطرة ، بل الغلبة ، على اهتمام النقاد هى للنوع الآخر الأعلى صوتاً والأوسع انتشاراً ، وهو الشعر .

لقد كان هذا الصنيع منهم - كما يقول - هو الذى شجعه على اختيار هذا الموضوع والتمسك به ، ومحاولة التغلب على العقبات التى تعترض الطريق أمام الباحث «فى أمور تركها القدماء ولم يرتدّها إلا قليل من المحدثين»^(١) .

ويصف لنا كيف تدرج تفكيره فى رسم حدود موضوعه : فهو لن يدرس النثر جملة ، وإنما سيدرس الكتابة النثرية فحسب ، ثم هو لن يدرس الكتابة النثرية جملة ، وإنما سيقصر على الرسائل والكتابة التاريخية ، لكنه لن يدرس هذين الفنين على نحو مطلق ، وإنما سيقف على ما تحققت فيه صفة الفنية . ولهذا كان لا بد من النص على أنه سيستبعد من مجال دراسته :

- ما ليس نثراً .
- ما كان نثرياً ولكنه غير كتابي .
- ما كان كتابياً ولكنه غير فني .
- ما كان نثراً فنياً من غير الرسائل والكتابات التاريخية .
- ما كان من الرسائل والكتابات التاريخية ولكنه جاء بعد زمن الدراسة^(٢) .

(١) حسن نصار : نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى القديم . القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠١م ، ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧ ، ٨ .

ولقد حدد زمن دراسته بعصور الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بنى أمية ، معتبرا هذه العصور الثلاثة حقبة واحدة هي حقبة النشأة ، كما حدد مادة دراسته بالآثار النثرية الكتابية الفنية من نوعى الرسائل والكتابات التاريخية ، ثم حدد مفهومه لصفة الفنية ، ودافع عن دخول الكتابة التاريخية فى عداد ما هو فني^(١) ، [وهما مسألتان سوف نقف عندهما فيما بعد] ، وسجل أنه سيدرس هذين الفنين فى أى من أقاليم الدولة العربية فى إطار المدى الزمنى الذى حدده دون أن يلتفت إلى الفوارق البيئية أو الإقليمية التى لم تكن قد تحددت فى فترة الدراسة^(٢) .

ثم أعلن عن هدفه من الدراسة وهو محاولة الإمام على نحو موجز شامل بنشأة هذا النوع من الكتابة عند العرب ، ومحاولة بحثه والتعرف على خصائصه^(٣) . ثم ألزم نفسه بعدد من الأسس ، أو الخطوات المنهجية ، منها :

- الحياد المطلق ، والعمل على أن يصل إلى الحقيقة وحدها عارية لا يحجبها شيء^(٤) .

- الاكتفاء بالتعرض للنصوص الموجودة فعلا وبحثها ومحاولة تعرف خصائصها ، دون التفكير فى النصوص المفقودة .

- مواجهة النصوص الكتابية موضع الدرس والتعرف عليها مباشرة لا من خلال الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين .

- إمكان الرجوع إلى هؤلاء ، بل والإفادة منهم ، بعد استيحاء كل ما يمكن استيحاؤه من النصوص المدروسة مباشرة .

- تقسيم الدراسة - أو مادتها - بحسب الموضوعات لا بحسب الأزمان مع مراعاة التقسيم الزمنى فى داخل الأبواب والفصول إذا لزم الأمر .

(٣)

ولنبداً باختبار وعده الأخير فى تقسيم مادة الدراسة بحسب الموضوعات ، لنرى كيف وضعت الخطة النظرية موضع التطبيق .

ويبدو أن مادة الدراسة قد حددت هيكلها التنظيمى . وإذا كانت هذه المادة منحصرة فى الرسائل والكتابة التاريخية ... فقد جاء الكتاب فى جزئين ، أولهما (كتابة الرسائل)

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠ ، ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

والثاني (الكتابة التاريخية) .

الجزء الأول - وهو فى كتابة الرسائل - يقع فى أربعة أبواب ، تتجه الثلاثة الأولى منها إلى دراسة الرسائل بأنواعها الثلاثة كما حددها ، وهى :

الرسائل السياسية فى الباب الأول
الرسائل الإخوانية فى الباب الثانى
الرسائل الدينية فى الباب الثالث
ثم أهم كتّاب الرسائل فى الباب الرابع

وبينما يجد متنفساً للتقسيم الزمنى فى البابين الأول والثانى - حيث يتحدث فى الباب الأول عبر فصوله الثلاثة عن الرسائل السياسية فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصر الأموي ، وفى الباب الثانى بفصليه عن الرسائل الإخوانية فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموي - نراه فى الباب الثالث الخاص بالرسائل الدينية لا يجد هذا المتنفس الزمنى ، أو لا يجد مسوّغاً له فى فصلى الباب ، فالرسائل الدينية وليدة العصر الإسلامى ، ولا داعى لاختبار احتمال وجودها فى العصر الجاهلى ، وهكذا تفرض القسمة النوعية نفسها على الرسائل الدينية بتوزيعها على فصلى الباب الثالث ليختص أحدهما بالرسائل الوعظية ، ويختص الآخر بالرسائل الجدلية .

أما الباب الرابع - وهو فى (كتّاب الرسائل) فيتناول بالحديث فى فصله الأول حلقة سالم مولى هشام بن عبد الملك وتلاميذه ، وفى فصله الثانى عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، حيث يعرض لإنتاج كل من هذين الأديبين وخصائصه ، منوهاً بمكانة عبد الحميد على وجه الخصوص بين أعلام الكتابة النثرية .

الجزء الثانى وهو فى الكتابة التاريخية لا ينقسم إلى أبواب كالجزء الأول ، وإنما ينقسم مباشرة إلى فصول ثلاثة ، يتناول أولها ظهور الكتابة التاريخية ، ويعود بالبحث إلى العصر الجاهلى ليقرر عدم وجود كتابة تاريخية من أى نوع فى ذلك العصر^(١) ، فى حين قامت مع ظهور الإسلام - بفعل دواعى عديدة - حركة تاريخية أخذت فى الاتساع حتى خلّفت - فيما يقول - ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربى^(٢) .

أما الفصل الثانى فموضوعه (المؤرخون وكتبهم) ، وفيه يعرض لعدد من أصحاب

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ١٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

الكتابات التاريخية ، وعلى رأسهم عبيد بن شريّة ووهب بن منبه ، ويختتمهم بمحمد ابن إسحاق صاحب كتاب «المغازى» الذى اعتمد عليه ابن هشام فى سيرته . وهو لافت بأسلوبه فى التأليف ، صاحب عبارة جذابة ومقدرة لافتة فى سياقة الخبر وتصوير الأحداث والأشخاص^(١) . وبين هذه الأسماء الكبيرة تتردد أسماء أخرى فى فروع مختلفة من الكتابات التاريخية ، مثل دَغْفَل النسابة الذى شهر بمجالس مسامراته مع معاوية^(٢) ، وعروة ابن الزبير فى مجال المغازى والسير ، والذى تمثل آثاره أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية^(٣) ، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى (ت ١١٩ هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ هـ) الذى «كان أول من قرن بين الأحاديث المختلفة المصادر فى موضوع واحد لإدماجها فى حديث واحد إجمالى يُصدّره بأسماء الرواة مجتمعين»^(٤) .

أما الفصل الثالث من الجزء الثانى فهو فى (مظاهر الكتابة التاريخية) ، وفيه يقرر أن الكتابة التاريخية العربية نشأت نشأة عربية خالصة لا يد فيها للفرس أو اليونان^(٥) ، وأنها انبعثت من تيارين مختلفين : تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب ، وتيار جديد استحدثه الإسلام وهو تيار السيرة التى جمعت بين القصص الصحيحة والخيالية التى أحاطت بشخصية الرسول بسبب إجلال المسلمين له . وقد لعب التيار الأول - تيار القصص الخيالية والأساطير - دوره فى هذا التيار الثانى ، هذا إلى آثار يهودية ومسيحية ، بل وفارسية ضئيلة^(٦) .

وقد تفاعلت هذه التيارات والآثار وتطورت فوجد التاريخ القبلى الجاهلى ، أو الأنساب والأيام^(٧) ، كما وجدت القصص الخرافية الشعبية وكذلك تاريخ المغازى والسير ، ثم التأريخ للخلفاء الراشدين ثم الأمويين^(٨) . وقد جاء أسلوبها جميعا عربيا سهلا بسيطا مبنيا قويا فى تصوير الحوادث وعرضها تتخلله الأشعار التى تشرح حادثة أو تعلق عليها^(٩) .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

وخاتمة الكتاب مهمة فى تثبيت كل ما سبق وتأكيدده ، ولكن أهميتها القصوى هى فى إبراز فكرة الكتاب فى التفسير الحضارى لظهور النوع الأدبى ، وازدهاره أو انحساره من ظرف إلى آخر ، وهو ما سنعرض له فيما بعد .

هكذا يقوم الكتاب على خطة مرنة ، فالجزء الأول يتكون من أبواب وفصول ، بينما تقوم بنية الجزء الثانى على فصول ثلاثة فحسب . وفصول الأبواب فى الجزء الأول لا تتساوى فى عددها ، فالباب الأول يقع فى ثلاثة فصول بينما تقع الأبواب الثلاثة الأخرى كل فى فصلين . كذلك تتفاوت أبواب ذلك الجزء فى المدى الزمنى - خاصة نقطة البداية - فالرسائل السياسية ترجع إلى العصر الجاهلى ، بينما تبدأ الرسائل الإخوانية وكذلك الدينية مع عصر صدر الإسلام . وبينما يسيطر التقسيم الزمنى على فصول البابين الأول والثانى يجيء تقسيم الفصول فى الباب الثالث على حسب موضوع الرسائل ، وفى الباب الرابع تبعاً للكاتب الذى يترجم له .

أما الجزء الثانى فقد تجافى عن نظام الأبواب المشتملة على فصول ، واكتفى بأن يضم ثلاثة فصول فحسب ، أحدها لظهور الكتابة التاريخية والثانى للمؤرخين وكتبهم ، والثالث لمظاهر الكتابة التاريخية .

ذلك عرض مكثف للكتاب : جزئيه وأبوابه وفصوله . والمتتبع لخبطته يدرك أنه قد وفى بما وعد به من تقسيمه على حسب الموضوعات ، مع مراعاة التقسيم الزمنى فى داخل الأبواب ، وأحياناً فى داخل الفصول ، كما يدرك تمسكه بالتعامل مع النصوص الداخلة فى مجال دراسته مباشرة دون التعرف عليها عبر وسائط دخيلة من رأى أو فكرة سابقة ، ثم يدرك كذلك اكتفائه بالنظر فى النصوص الموجودة وإقامة أحكامه على أساسها ، لا على تصورات لنصوص متخيلة ، أو مشكوك فيها^(١) .

(٤)

ورغم ذلك فإن تقديم الكتاب - أو عرض خطته - بهذا التجريد والوضوح قد يفضى إلى غمط الكتاب حقه ، لما يوحى به من سهولة الوصول إلى هذه الخطة ، وربما سهولة إخراجها إلى حيز الوجود .

(١) راجع ص ٣٤ فى تعليل انصرافه عن الحديث عن رسائل فنية من العصر الجاهلى .

والواقع أن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك فى الكتاب الذى نحن بصدد تقديمه على وجه الخصوص ، سواء رجعنا إلى مسلك المؤلف وجهده فى التثبيت من سلامة مادته ، أو إلى تلك المعارف التى ساقها فى كتابه ، والتى تتعدد وظائفها ما بين حاجة الكتاب وموضوع الدراسة فيه من جهة ، والرغبة غير المصرح بها فى إفادة القارئ وإثراء معرفته من جهة ثانية .

ولمزيد من الإيضاح نقول : إنه إذا كان من وظيفة الكتاب مطلقاً أن يقدم إلى قارئه جانباً من المعلومات المتعلقة بموضوع معين ، فإن الكتاب الجيد هو الذى يعلم قارئه أكثر من موضوع ويلقنه أكثر من درس فى وقت واحد ، بشرط أن لا تُدفع هذه الدروس إلى القارئ بطريقة مباشرة ، إذ هى قد تنساب إليه عبر الطريقة التى يدير بها المؤلف دفعة عمله أثناء مُضيّه به من نقطة البدء وحتى لحظة الاكتمال . كما قد تتسلل إليه من خلال المعلومات التى يسوقها المؤلف خدمة لغرضه الأسمى فى إطار موضوع كتابه ، ثم يكون لها - إضافة إلى ذلك - دورها الخاص فى توعية القارئ وتنمية معارفه .

هكذا - فى تقديرنا - ينطوى الكتاب الجيد على جهتين لإفادة القارئ :

إحداهما : سلوك المؤلف نفسه فى تخليق عمله .

والأخرى : المواد التى يشتمل عليها العمل ، وما تحمله من دلالات تتجاوز دورها المباشر فى بنية الكتاب .

هنا يدفعنا إيماننا بجودة الكتاب الذى نتحدث عنه - «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» لأستاذنا حسين نصار - إلى محاولة اختبار هذا الشرط ، أو تطبيقه ، بشقيه ، على الكتاب .

ولنبداً بالجهة الأولى للإفادة ، أعنى روح المؤلف فى كتابه ، ومسلكه فى توثيق مادته . حيث تلفتنا فى البداية ، ثم بعد ذلك ، كلمات لا أظن أنها عادية ، فبعد تفنيده لآراء القائلين بعزلة العرب فى جزيرتهم طوال العصر الجاهلي ، يقول : «أظننا الآن نستطيع أن ننكر العزلة المدعاة إنكاراً شديداً ، دون أن نخاف لوم أحد»^(١) . وفى موضع آخر يصادفنا قوله «ونستطيع - دون وجل - أن نطلق على كتابتهم اسم (الكتابة الفنية)^(٢)» ، وفى موضع ثالث

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

يتحدث عن الرسائل الدينية «التي نستطيع أن ندخلها في باب الرسائل الإخوانية أو الدينية دون حرج»^(١).

(الخوف من اللوم) و(الوجل) و(الخرج) كلمات أخفها وأقربها إلى لغة الاحتياط والحرص على الأمانة والدقة في إصدار الأحكام هي كلمة (الخرج)، وأما (الخوف) و(الوجل) فألفاظ أظن أنها غير مألوفة في مثل هذه السياقات، لكنها في الوقت نفسه دليل قاطع على موقف الالتزام والإحساس بالمسؤولية من جانب المؤلف أمام قارئه سواء كان هذا القارئ أستاذاً من أساتذته أو واحداً من تلاميذه.

هذا (الخوف من اللوم) و (الوجل) فضلاً عن كونهما فضيلة في أي باحث، وكونهما - بالمفهوم لا باللفظ - إرثاً نبيلاً حملته إلينا عبارات من تراثنا من نوع (من ألف فقد استهدف، فإن أحسن فقد استعطف وإن أساء فقد استقذف)، فضلاً عن البعد الشخصي الإنساني فيهما، هما اللذان دفعاه إلى أن يدقق في كل كلمة يقولها، وقد دفعاه - قبل ذلك - إلى تحديد موضوعه وتجريده مما سواه مما قد يتداخل معه لسبب أو آخر. أما بعد ذلك فقد دفعاه إلى الحرص على تخليص مادته مما قد يكون دخيلاً عليها، ومن أجل ذلك نراه يصطنع عدداً من المعايير لفحص هذه المادة واختبار مدى أصالتها.

من ذلك عرض المادة المدروسة على أسلوب الكاتب في بقية نصوصه. ومن هذا القبيل ما صنعه مع رسالة عبد الحميد الكاتب التي وجهها إلى بعض من خرج عن الطاعة^(٢). فقد لاحظ أنه يلتزم السجع التزاماً شديداً لم نره عنده في رسائله الأخرى وقال: إن هذا «مما قد يجعل شيئاً من الشك يتسرب إلى نفوسنا في صحة نسبة هذه الرسالة إليه. غير أن هناك بعض الفقرات من الرسائل الأخرى تحدّ من ازدياد هذا الشك، فإننا نرى هذا السجع الملتزم أو ما يقاربه في رسالته إلى العرب»^(٣). وسواء تأكدت نسبة الرسالة إلى عبد الحميد أو انتفتت، فلن يكون السبب سوى ملاءمتها - في حالة تأكدها - أو مخالفتها - في الحالة الأخرى - لهذا الموضع أو ذاك من الرسائل الأخرى التي صحت نسبتها إلى الكاتب.

(١) نشأة الكتابة الفنية، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.

وقد يعرض المادة المدروسة على روح العصر بجملته ، من ذلك ما صنعه مع الرسالة المنسوبة إلى عمرو بن العاص فى وصف مصر ، فقد لاحظ أنها تكتظ بعناصر الصنعة الفنية بما يخالف طابع الرسائل فى عصرها ، هذه التى كانت تسير نحو الفن دون أن تبلغ مرحلة الفنية الكاملة ، فصرح بأنه لا يطمئن إليها^(١) . وكذلك صنع مع كلام حملة على النابغة دغفل النسابة فى أحد مجالسه فى بلاط معاوية ، يقول حسين نصار : «إننا لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها ، فإننا نرى الكلام ملازماً للسجع ، وفيه أشياء منافية لروح العصر ، لم نعتد العثور عليها فيه ، كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد قبل ظهوره . ونحن إذا لم نشك فى هذا التكهن ، فإننا نشك فى تكهن النابغة بإسلام الحارث»^(٢) .

ومن الواضح أن المناقاة لروح العصر قد تجيء من قبل عناصر الصنعة الفنية ، كما فى الحديث عن رسالة عمرو بن العاص ، وقد تجيء من قبل الصنعة ومن قبل المضمون معا كما هو الحال فى كلام النابغة غير أن المضمون قد يكون هو الفيصل وراء الشك فى نسبة النص المستهدف للدرس ، وهذا هو المعيار الذى استند إليه فى شكه فى رسالة منسوبة إلى معاوية وموجهة إلى ابنه وولى عهده يزيد : «أما هذه الرسالة فأشك فيها شكاً قوياً بسبب ما فيها من العبارات التى تحط قدر يزيد وتبلغ عنه ما يريده خصمه ، مما لا يصح أن يصدر عن أبيه الذى يرشحه لولاية العهد»^(٣) .

وقد طبق نفس المعيار - معيار المضمون معروضاً على الموقف - على بعض الأخبار المنسوبة لعبيد بن شربة . «هناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد ، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أنه يتفوه بها أمام معاوية» . والكلام يدور حول رجوع الأمر إلى الفاطميين فى آخر الزمان دون أن يعترض عليه معاوية حسب ما جاء فى الرواية بل يقول معاوية : «قلت الصواب إن شاء الله» ، ويعقب حسين نصار : «ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبید أمام معاوية . أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد ، فإنه أوهى من أن يحتاج إلى الإنكار»^(٤) .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٥ ، وهو يجعل الإفراط فى عناصر الصنعة مما يخل .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

وهناك إجراء آخر لا يقل أهمية عما سبق من معايير قبول النصوص أو نفيها ، وهو رجوعه إلى دواوين الشعراء للثبوت من الأشعار التي نسبت إليهم في بعض الكتابات التي يدرسها ، فعبيد بن شربة يورد في أخباره أشعاراً لشعراء معروفين كالعباس بن مرداس وحسان ابن ثابت وأمية بن أبي الصلت وغيرهم ، يقول حسين نصار : «وقد وجدت هذه الأشعار في دواوين أصحابها ، وإن كانت قد تختلف في بعض الألفاظ أو العبارات»^(١) . ويفعل الشيء نفسه مع الأشعار التي أوردها وهب بن منبه في كتابه (التيجان) فيقول : «أما بيت النابغة ومقطوعة لبید فهما في ديوانيهما ، وأما مقطوعتا الأعشى وامرئ القيس فلم أجدهما في ديوانيهما المطبوعين»^(٢) .

هكذا يسلك الباحث حسين نصار الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين عندما فرغ من كتابه «نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي» . أقول : يسلك كل السبل لإخراج ما ليس من مادة كتابه ، ثم للتحقق من أصالة ما يدخل ضمن هذه المادة ، وهو بهذا المسلك لا يخدم مادة الكتاب فحسب ، بل يعلم قارئه أيضاً كيف يتعامل مع مواد بحوثه إن قدر له أن يعاني عملية البحث في وقت من الأوقات . وهذا - كما سبق القول - هو الجانب الأول من الدروس التي يمكن أن يستفيد منها قارئ الكتاب من خلال المسلك أو الطريقة التي يتصرف بها المؤلف خلال إنجاز عمله .

(٥)

أما الجانب الآخر الذي يفيد القارئ من الكتاب إضافة إلى موضوعه الأصلي ، فهو تلك المعلومات التي يقدمها المؤلف خدمة لغرضه الأساسي من كتابه ، ثم يكون لها دورها الخاص المستقل في توعية القارئ وتصحيح معلوماته إلى جانب دورها في سياق الكتاب .

وفي هذا الصدد يقوم المؤلف بتصحيح الكثير من معلوماتنا حول جزيرة العرب ، طبيعتها ونشاط سكانها وثقافتهم وعلاقتهم بالآخرين . . . إلخ . لقد كان الشائع عن بلاد العرب أنها تلك الصحراء المجدبة الممتدة التي لا تعرف الخضرة ولا الخصب . كما كان من الشائع أن أهلها جميعاً من البدو الرُّحَّل الذين لا يعرفون الاستقرار على أى نحو كان ، وهو ما عززه الشعراء العرب الذين دأبوا في مقدمات قصائدهم على وصف رحلاتهم ومرورهم بديار الأحبة الذين رحلوا عنها . كما شاع أيضاً أن سكان هذه الجزيرة كانوا معزولين عن غيرهم من الشعوب المحيطة بهم ، وأنهم كانوا أميين لا صلة لهم بالثقافة .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١١ .

ذلك ما كان شائعاً عن بلاد العرب ، أو شبه جزيرة العرب ، ولكن صاحب البحث يثبت عكس كل ذلك ، أو - على الأقل - خلافاً : «بلاد العرب ليست صحراء مجدبة شاملة كما كنا نحسب دائماً ، وإنما هي صحراء تنتشر فيها المناطق الخصبة الزراعية والمراعى حيثما توجد الآبار والأمطار ، أو حيثما يتيسر الحصول على الماء»^(١) .

هذا عن واقع تلك البيئة بين الجذب والخصب ، ثم يقول : «وكما يخطئ من يظن أن بلاد العرب صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء ، يخطئ الذين يظنون أن أهلها بدو رحّل لا يقرون فى مكان ولا يتصلون بالأرض التى يسكنونها اتصالاً وثيقاً»^(٢) ، ذلك أنهم قد «عرفوا الاستقرار فى المدن والقرى الزراعية والتجارية ، وعرفوا شبه الاستقرار فى المراعى المتناثرة» وإن «عرفوا عدم الاستقرار فى صحاريهم الماحلة»^(٣) . هى - إذن - حياة لها نصيبها من الاستقرار ، وبالتالي فمن الخطأ وصفها بعدم الاستقرار^(٤) .

أما القول بأن بلاد العرب كانت فى عزلة تامة عن غيرها من الشعوب والدول المجاورة ، فهذه أيضاً خدعة أخرى ، إذ «خدعت بلاد العرب الدارسين بقولهم إنها صحراء ، إذ الصحارى أرض فقيرة لا يتيسّر للمتحضّرين العيش فيها ، وفرّغوا على ذلك أن سكانها معزولون عزلة تامة عن أمم الأرض ، فهم منطوون على أنفسهم فى جزيرتهم لا يكاد يحس بهم أحد . ولكن الحقيقة أن العرب كانوا بعيدين عن العزلة والسكون ، إذ اتصلوا بالحضارات التى قامت حولهم منذ قديم الزمن ، على اختلاف أنواعها ومصادرها»^(٥) .

● فقد تعرضوا للغزو من قبل الممالك المجاورة خاصة الفرس والروم^(٦) ، واختلط العرب بالفرس من خلال إمارة الحيرة ، وبالروم من خلال إمارة الغساسنة .

● وعملت التجارة التى مهروا فيها على تدعيم الروابط بينهم وبين كثير من الشعوب الأخرى كالهند والصين والحبشة ومصر والرومان والفرس^(٧) .

● كما تسربت إليهم الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية ، وعملت اليهودية والمسيحية على نشر الثقافة الهلينية فى البلاد^(٨) .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

وهكذا تسقط مقولة العزلة والبعد عن الثقافات التي كانت معروفة لدى الشعوب الأخرى ، وتسقط معها مقولة الأمية التامة وعدم معرفة العرب للكتابة ، إذ وجدت الكتابة ونشأ الخط العربي في بلاد العرب الشمالية ، وعرفت الكتابة وانتشرت نظرا لحاجة المعاملات التجارية والمعاهدات السياسية إليها^(١) ، إلى جانب تدوين بعض الآثار الأدبية ، كالذي يروى عن تدوين المعلقات وتعليقها على جدران الكعبة^(٢) .

هذه هي النظرة الأخرى لبلاد العرب في العصر الجاهلي ، فلم تكن كلها صحراء قاحلة ، ولم يكن أهلها جميعا بدوا مترحلين ، كما لم يكونوا معزولين تماما عن جيرانهم ، وإنما كان هناك مساحات من الخصب والزراعة ، وحالات من الاستقرار ، وعمليات اتصال بينهم وبين الأمم المحيطة بهم ، وربما البعيدة عنهم .

ومن المنطقي أن يحمد قارئ الكتاب لصاحبه إيراد هذه المجموعة من التصويبات لتصوراتنا عن جزيرة العرب في العصر الجاهلي ، وهو قد يوغل في ذلك إلى حد تصور استقلالها بفائدتها بعيدا عن موضوع الكتاب ، وفي هذه الحالة فقد يتساءل عما إذا كان لها بالفعل دور في بحث نشأة الكتابة الفنية ، أعنى هذه المجموعة من المعلومات المصوّبة عن شبه جزيرة العرب .

والواقع أن التنبيه للهدف الحقيقي من الكتاب هو الذي يجنبنا الاندفاع نحو هذا السؤال ، نعم ، لأن الكتاب يمضي في اتجاه التفسير الحضاري لظهور النوع الأدبي ، والنوع الأدبي هنا هو الكتابة الفنية ممثلة في الرسائل والكتابة التاريخية . والكتابة الفنية لا تتخلق إلا في رحم حامل من الكتابة العادية (اللافنية) ، وهذه الأخيرة لا تنشأ في المجتمع إلا في ظل ظروف معينة . من هنا كان لا بد من تصحيح (المقدمة) انطلاقا من (النتيجة) - إن جاز استخدام مصطلحات المنطق - ولنتصور أن انتشار الكتابة - العادية مؤقتا - هو النتيجة ، وقد تحقق ذلك بالفعل بحكم اتساع المعرفة بالقراءة والكتابة في أواخر العصر الجاهلي ، هذه النتيجة ما كان يمكن أن تتحقق في ظل ظروف لا تمثل المقدمة المناسبة ، أعنى في بيئة صحراوية ومجتمع بدوي متنقل لا يعرف الاستقرار ، وسكان منعزلين عن كل ما يحيط بهم ، ليس لهم روابط أو علاقات سياسية أو تجارية مع غيرهم .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨ .

هكذا - فى تصورى - انطلاقا من النتيجة - انتشار الكتابة - راح يفتش عن المقدمات التى تحمل صورة لبيئة الجزيرة العربية وسكانها ومستواهم الحضارى مخالفة لما كان مستقرا وثابتا فى الأذهان . ولا غرابة فى ذلك ، فنحن - على سبيل المثال - نسلم ببلاغة العرب فى فترة الوحي وقبله استنادا إلى نزول القرآن فيهم ومخاطبته لهم .

(٦)

هذه المعلومات المصححة عن جزيرة العرب فى العصر الجاهلى هى فى حقيقة دورها - فى سياق الكتاب - تأكيد لعضوية العلاقة وطرديتها بين التطور الحضارى فى أبعاده المختلفة وظهور الكتابة أولا ثم ارتقائها إلى مرحلة الفنية بعد ذلك . ف «كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت فى عصر مبكر بدافع من الظروف والعوامل التى كانت تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك . وإذن فكتابة الرسائل الفنية العربية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب ، وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها ، بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة . وكذلك ما كانوا قادرين على الرجوع إلى الشعر والخطابة وحدهما فى حياتهم الأدبية . وإذن نعود إلى القول بأن الكتابة الفنية العربية وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، وحولت أنظار العالم إلى تلك الأصقاع التى سترى من الحضارة والرقى ما لم يره كثير من شعوب العالم المتمدين»^(١) . وما يصدق على الرسائل الفنية يصدق على الكتابة التاريخية العربية ، فهى أيضا قد نشأت فى إطار العناية بالأحاديث النبوية الشريفة وجمعها^(٢) .

هذه النقول المستمدة من الصفحات الأخيرة من الكتاب والتى هى خلاصة تحمل إيمان صاحبها بالعامل الحضارى وراء نشأة النوع الأدبى . . . تنتشر تفاصيلها وتجلياتها على صفحات كثيرة من الكتاب :

- فهو يستبعد وجود كتابة فنية فى العصر الجاهلى لأن ظروف العصر لا تستلزمها^(٣) .
- ويسجل ظهور بعض خصائص الرسائل فى صدر الإسلام ، كالبدء بالبسملة - مثلا-^(٤) .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

● وبفعل الجدل السياسى فى عهد الفتنة تدخل الرسائل مرحلة من الإطالة لم تكن تعرفها من قبل^(١).

● وديوان الرسائل - وهو عربى النشأة - مما لم يتهياً وجوده فى عصر صدر الإسلام ، ثم سمحت به وعملت على قيامه مظاهر الترف والتحضر فى الحياة الاجتماعية ، وكذلك تشعب العلاقات التجارية والسياسية فى العصر الأموي^(٢).

● ومع اتساع الدولة الإسلامية تظهر الدواوين فى عهد عمر مثل ديوان الخراج وديوان الجند نتيجة فتح الأمصار وتدفق الأموال والحاجة إلى الكتبة والحسبة^(٣).

● وتترقى كتابة الرسائل وتزدهر عندما يحول الأمويون دواوين الخراج من الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية ، إذ كان ذلك سببا فى دفع الموالى إلى تعلم العربية كي يستعيدوا الوظائف التى انتزعها منهم العرب بهذا التحول . وتلا هذه المرحلة مرحلة أخذوا فيها ينافسون العرب ويحاولون التفوق عليهم فى التعبير بالعربية «وكانت ثمرة هذا التنافس السير بالكتابة إلى طريق الفن . ولا شك أن العرب قابلوا هذا الصنيع بالمثل ، مما سما بالكتابة إلى الدرجات العلى فى هذه الفترة من تاريخها»^(٤).

● وتكتسب الرسائل الأموية خصائص أسلوبية جديدة على العربية على يدى سالم مولى هشام وعبد الحميد بن يحيى كاتب مروان نتيجة للثقافة الأجنبية - اليونانية والفارسية - التى حصلها هذا الكاتبان^(٥).

● والكتابة التاريخية تنشأ وتزدهر لدى المسلمين بفعل عوامل كلها إسلامية^(٦).

● وبفعل الموقف الشخصى والأخلاقى لعمر بن عبد العزيز تصاب الرسائل الإخوانية بنكسة عنده ، وإن لم تعم عهده^(٧). بينما تكثر الرسائل الوعظية ، كما تختفى العهود الحربية فى عهده لتظهر العهود الدينية التى كان يرسلها إلى عماله^(٨).

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٧، ٧٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، ١٨٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

● وتضيق الكثير من الرسائل الإخوانية من الجاهلية وصدر الإسلام نتيجة لعدم الاهتمام بهذا الفن فى ظل ظروف الأدب العربى التى جعلت منه أدب قصور يعيش على موائد الملوك ولا يصل إلينا منه إلا ما اقترب منهم واتصل بهم ، مما حجب الاهتمام عن هذا الفن الذى يرتبط بالحياة الخاصة للأدباء^(١) .

هذه مجرد معالم على طريق الجدل بين التطور الحضارى ونشوء النوع الأدبى - الكتابة الفنية - ثم تطوره .

(٧)

بقيت بعض ملاحظات بسيطة أجتزئ منها بملاحظتين إحداهما حول مفهوم الكتابة الفنية ، والأخرى مجرد تساؤل عما يبدو من التداخل بين الرسائل وما يسمى بـ(العهود) .

قلت من قبل فى سياق حديثى عن وعى صاحب «نشأة الكتابة الفنية» بموضوعه جيداً : إنه حدد مفهومه لصفة (الفنية) فى الكتابة ، ودافع عن دخول الكتابة التاريخية فى عداد ما هو فنى ، وقلت : إنهما مسألتان سوف نعود إليها فيما بعد .

ويجىء حرصه على تعريف (الكتابة الفنية) فى سياق حرصه الدائم على تعريف مصطلحات بحثه ، تجد ذلك فى بدايات أبوابه وفصوله التى يقدم فى كل منها أحد مصطلحات الدراسة ، فيقوم بتعريفه وإضاءة كل ما يتصل به .

وترتبط الفنية فى رأيه بالتجويد المتعمد الناتج عن التروى من جانب المبدع بقصد إثارة اللذة الفنية عند القارئ . ويبدولى أن جوّ الفن الكتابى - خلافاً للشفاهى - قد سيطر على هذا الفهم الذى يوحى بمفهوم الصنعة ، وإلا فالنص الفنى فنى بخصائصه التى جاء عليها ، بصرف النظر عن حال مبدعه وقتها ، متروياً أو مرتجلاً . وقد تحدث النقاد العرب طويلاً عن حالتين من حالات الإبداع هما : التروى - أو الروية - وفى مقابلها تحدثوا عن (البديهة) و(الارتجال) . لكن ذلك كان فى معرض الحديث عن الشعر ، فصرحوا بأن من الشعراء من يجيد على الروية ، ومنهم من يجيد على البديهة والارتجال ، ومنهم من يجىء شعره على البديهة فى جودة شعره المروى فيه . غير أن ذلك - كما قلنا - خاص بالشعر ، أما الكتابة بطبيعتها فنشاط أقرب إلى التروى ، بل ويحتاج إلى تمهل واحتشاد . وإذا صدق ذلك بالنسبة للكتابة غير الفنية فهو أصدق بالنسبة للكتابة الفنية ، ومن هنا كان قولنا بسيطرة تصور «الكتابية» على هذا التعريف .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ٩١ .

أما دخول الكتابة التاريخية في إطار الكتابة الفنية فأمر يحتاج إلى تفصيل ، وفي رأيي أن علينا أن نفرق بين (التاريخ) و(الكتابة التاريخية) . أما التاريخ فلا مندوحة فيه عن نقل الحقائق صادقة وكاملة ، وأي توضيح بالحقائق لصالح جمال العبارة وفنيتها سوف يباعده من أن يكون تاريخاً حقيقياً أميناً .

ولقد وجد فريق من منظري الأدب لا يمنعون أن تجيء المؤلفات العلمية في الموضوعات المختلفة جيدة الصياغة متقنة العبارة ، وفي هذه الحالة يمكن اعتبارها أدبا بمقدار ما تتمتع به عبارتها - بعيداً عن محتواها - من دقة وإتقان وجمال في التعبير . من هؤلاء لاسل أبر كرومبي Lascelles Abercrombie في كتابه «قواعد النقد الأدبي» ، وهو يطلق على هذا النوع من الأدب اسم (الأدب التطبيقي) ، وذلك في مقابل (الأدب الصرف) الذي يكتب لذاته ويُقرأ لذاته دون التفكير في محتواه^(١) .

ولحسن الحظ فإننا لا نحتاج ، في حالة كتابنا الذي نتحدث عنه ، إلى جدل طويل من هذا القبيل . وأحسب أن الدفاع الحار عن دخول التاريخ في عداد الفن الأدبي هو من باب الإدلال بقوة الحجة وغزارة المادة ، وإلا فنحن في «نشأة الكتابة الفنية» لا نتحدث عن (تاريخ) وإنما نتحدث عن (كتابة تاريخية) جاءت - خاصة في بدايتها - امتداداً لفنون القص والمسامرة المفعمة بمغامرات الخيال وسوّق ما هو عجيب غريب في عبارة ممتعة . فالمفهوم واضح ، والمصطلح موفق ، وما من لبس يدعو إلى مثل هذا الدفاع ، انطلاقاً من أننا لا نتكلم عن تاريخ وإنما عن كتابة تاريخية .

ونحن نستأنس في هذا الرأي بما جاء عن الدكتور نصار نفسه في تعقيب له على قطعة منسوبة لوهب بن منبه احتفظ بها صاحب «حلية الأولياء» ، وهي عن وفاة النبي ﷺ . يقول الدكتور نصار : «وهذه الفقرة طويلة مفصلة ، ولكن قارئها لا يسعه إلا أن يشكّ فيها الشك الشديد ، فأسلوبها مما لا نألفه في أساليب تلك الفترة ، وعباراتها غريبة عن الرجل العربي الذي يعيش في ذلك العصر ، وقد لعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، ولذلك إذا صحّت نسبتها لوهب ، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرخ وإنما يلائمه لفظ قصّاص»^(٢) .

والتنافي - من واقع هذا النص - موجود بين المؤرخ والقصّاص ، ومن يصدق عليه أحد اللفظين يجب أن لا يصدق عليه اللفظ الآخر ، ومؤرخ الأدب وصاحب النظرية الأدبية معنيّ - بطبيعة الحال - بـ (القصّاص) لا المؤرخ ، إلا أن يتخفف المؤرخ من صرامة الصدق

(١) أبر كرومبي : قواعد النقد الأدبي . ترجمة : محمد عوض محمد . بغداد : ١٩٨٦م ، ص ٢٧ ، ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

والالتزام بالحقائق ، وبمقدار هذا التخفف يكون اقترابه من رحابة اللغة الأدبية بكل ما فيها من تجوز واتساع .

قضية أخرى لا أجد مفراً من التساؤل بشأنها ، وهى التداخل بين الرسائل وما سُمى بـ (العهود) . وأوضح ما يبدو التداخل إلى حد التوحيد بين النوعين - إن جاز هذا الاسم - فى الفصل الثانى من الباب الرابع من الجزء الأول . ويدور هذا الفصل حول عبد الحميد ابن يحيى كاتب مروان بن محمد ، حيث يعرض الدكتور نصار لرسائله التى كتبها عن الخليفة إلى ولى عهده عند توجهه لمحاربة بعض العصاة . فهو يقرن هذه الرسالة إلى (عهود) الصدر الأول من الإسلام (عهود من الرسول وأبى بكر وعمر^(١)) ، ثم إلى رسالة من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص يسميها (عهدا)^(٢) .

ثم يتداخل الحديث عن نوع جديد من العهود ظهر فى العصر الأموى مع الحديث عن رسالة معاوية إلى ابنه يزيد^(٣) ، ويمائل بين رسالة من الحجاج وبين مجموعة أخرى من العهود^(٤) ، ثم يشير إلى رسالة عبد الحميد إلى ولى عهد مروان فيسميها عهدا^(٥) .

والسؤال هنا : إذا كانت العهود هى الرسائل فَلِمَ لَمْ تحمل نفس الاسم؟ ، وَلِمَ لَمْ يدرجها ضمن مادة الدراسة ؟ وإذا كانت نوعاً منها فَلِمَ لَمْ ينصّ على ذلك؟ ، وإذا كانت غيرها فَلِمَ لَمْ يعرفها؟ ثم لِمَ التداخل بينهما والحديث عن فن بما يتحدثُ به عن الآخر؟ ، ثم لِمَ اجتمع الحديث عنها فى الفصل الخاص بعبد الحميد الكاتب؟ .

مجرد تساؤلات عزّزها وشجع عليها شدة التزامه بالوضوح ، وحرصه على تعريف مصطلحاته أولاً بأول فى معظم مواضع الكتاب . وذلك نفسه ما جعلنا نتساءل من قبل عن مفهوم الكتابة الفنية ، وموقع الكتابة التاريخية بينها وبين التاريخ ، واثقين أن هذه التساؤلات وغيرها لا تقدح فى قيمة الكتاب الذى يُعد - بكل المقاييس - رائداً فى مجاله .

(١) نشأة الكتابة الفنية ، ص ١٥٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

الدكتور حسين نصار ومنهجه في دراسة

الأدب المصري

د. عوض الغباري*

تختلف آراء الباحثين ، قديماً وحديثاً ، حول منهج دراسة الأدب العربي . وتتجلى بعض معالم هذا الاختلاف فيما يتعلق بتطور هذا الأدب في الأقاليم العربية المختلفة . ومن هذا المنطلق ثارت مشكلة ما اصطلح عليه بالأدب الإقليمي .

وقد قام أمين الخولي في كتابه : «في الأدب المصري : فكرة ومنهج» بطرح تصور لدراسة الأدب المصري على أساس وجود شخصية أدبية مصرية نظراً لاختلاف البيئة الطبيعية في كل إقليم عربي ، واختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية مما يحتم ، في رأيه ، وجود أدب عربي مختلف ومتميز في كل إقليم تأثر الأدباء فيه بهذه العوامل المختلفة .

وانطلاقاً من الإيمان بالشخصية المصرية يعتقد أمين الخولي أن دراسة الأدب المصري من منطلق الذاتية المصرية هي أهم معالم تجديد الدراسة الأدبية في مصر ، أو البيئات العربية الأخرى التي تنحو هذا النحو في دراسة الأدب .

وأساس الدرس الإقليمي من هذا المنطلق هو : «أن لكل بيئة منفردة مزاياها وخصائصها التي تنفرد بها بين الأقاليم . وتلك المزايا والخصائص هي التي توجه الحياة الأدبية فيها ، وتؤثر في سيرها ، وباختلاف هذه المميزات المادية والمعنوية تختلف حياة الإقليم الأدبية ، ويختلف نظام سيرها من نشأة وتدرج وتفرع»^(١) .

والأدب المصري أدب عربي إسلامي ، لا شك في ذلك ، ولن تغرى الإقليمية بالانفصام الذي يهدد أمل وحدة العرب ، لأنها تستند إلى أصول البحث العلمي الذي يهدف إلى حل المركب إلى بسائطه دون جور منهجي على كليهما . وهذه الوحدة المركبة «لن يضيرها أن يشعر كل جزء من أجزائها ، وكل جانب من جوانبها بوجوده وذاته وشخصيته ، فيكون بذلك جزءاً أو عنصراً نافعاً مجدياً على الوحدة التي يدخلها»^(٢) .

(*) أستاذ الأدب المصري المساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

(١) أمين الخولي : في الأدب المصري ، فكرة ومنهج . القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٣ ، ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥-٣٦ .

والإقليمية ، منهجاً للدراسة الأدبية تكشف عن خصائص الأدب العربى فى كل بيئة نتج عنها تفاعل وتأثر وتأثير بالعربية أو فيها ، فتطورت هذه اللغة ، وهذا الأدب العربى فى تذوق كل إقليم له .

والإقليمية ، بمفهومها عند الخولى ، عامل منظم لدراسة الأدب العربى إذا تضافرت جهود الدارسين فى كل إقليم عربى ، كما أنها ترسخ الشعور بالشخصية فى نفس أصحاب كل إقليم ، إذ تؤلف - بتنوعها - وحدة الأدب العربى الشاملة ، وهو - على حد تعبير جمال حمدان - ما يُعرف بمبدأ التنوع فى الوحدة أو الوحدة فى التنوع^(١) .

وقد بذر أمين الخولى بذرة الإقليمية منهجاً لدراسة الأدب المصرى ، واكتفى بهذا الدور ، ولم يزعم لنفسه أنه وافى بفكرته عنها الإجابة عن التساؤلات المتعلقة بماهية الأدب المصرى ، عاقدا الأمل على وحدات جيش المعرفة ، على حد تعبيره^(٢) ، لبيان معالم الشخصية المصرية فى ميادين الحضارة والثقافة والعلم والفن والأدب . وكان الأستاذ الدكتور حسين نصار فى طليعة هذه الكتابات التى أثرت دراسة الأدب المصرى بكتب قيّمة ، وأبحاث رفيعة ، وجهود جادة ، أذكر منها دراسته لشعر ابن وكيع التنيسى ، الشاعر المصرى فى القرن الرابع الهجرى ، وظافر الحداد الشاعر المصرى الفاطمى فى القرن الخامس . إلى جانب تنظيره للأدب المصرى فى كتبه الأخرى ، وأهمها : «مصر العربية» .

(١)

ففى تحقيقه ودراسته لشعر ابن وكيع التنيسى يرى حسين نصار أن هذا الشاعر ربيب بيئته المصرية . فشعره معرض فنى لمناظرها المختلفة ، كما أن خفة روحه فى هذا الشعر تعكس وجهها مصرى خالصاً^(٣) .

ويرى كذلك أن شعر ابن وكيع أصدق صورة وأجملها لبيئة تنيس^(٤) ، موطن الشاعر ، وقد كانت مدينة الربيع والخمر ، فكان ابنها شاعر الربيع والخمر^(٥) . كما أثر اشتهار هذه المدينة بالذوق الفنى الجمالى فى صناعة النسيج على مخيلة ابن وكيع فى شعره الذى صور به الربيع وقد حَلَّتْهُ الأزهار بالوشى الجميل حَلَّتْهُ الرسوم^(٦) .

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، ج ١ . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣ .

(٢) فى الأدب المصرى ، ص ١٣٥ .

(٣) حسين نصار : ابن وكيع التنيسى ، شاعر الزهر والخمر . القاهرة : مكتبة مصر ، د . ت ، ص ٥ .

(٤) موضع فى بحيرة المنزلة بين المطرية وبورسعيد ، مازالت تلاله باقية إلى اليوم .

(٥) حسين نصار : ابن وكيع التنيسى ، ص ٥ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٦ .

ويرصد حسين نصار في دراسته لشعر ابن وكيع تأثره بالحياة الاجتماعية والعلمية في بيئته ، وانعكاس الظروف السياسية في شعره ^(١) . ويلاحظ أن شعره الغزلي خصوصا مربعته الشهيرة المعجبة ، بما تجلى فيها من خفة روح تدل على أنه ، بهذه الصفة ، ابن بيئته : مصر ^(٢) .

يتضح ذلك من قوله فيها :

فصرت لا أرغب في الفلاح	بخفة الروح احتوى صلاحى
أملح ما يُعشق في الملاح	والشكل والخفة في الأرواح
فليقصِدِ البيعة وليهو الصور ^(٣)	مَنْ عَشِقَ الْقَدَمَ وَإِنْ دَقَّ الْبَصَرُ
فماله أوفى من عشق القمر ^(٤)	مَنْ كَانَ يَهْوَى مَنْظَرًا بَلَا خَبَرَ

وكذلك يتضح ظرف شعر ابن وكيع الغزلي ، وعذوبته وحلاوته وطرافته في دعوته على حبيبه بأن يصير قلبه عاشقا مثل قلبه إن كان يعلم ما حل به ، ولا يأبه بذلك ، «ثم يتغلب عليه حبه فيتمنى له العيش الطيب ، تفديه نفس الشاعر وماله» ^(٥) :

وَأَنْتَ لَسْتَ تُبَالِي	إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِي
وَصُرْتَ فِي مِثْلِ حَالِي	فَصَارَ قَلْبُكَ قَلْبِي
تَقِيكَ نَفْسِي وَمَالِي	بَلْ عَشْتُ فِي طَيْبِ عَيْشِ
عَلَيْكَ ثُمَّ بَدَأَ لِي ^(٦)	دَعْوَتُ إِذْ ضَاقَ صَدْرِي

ويرى حسين نصار الغزل الحق في قسم ابن وكيع قسما عذبا طريفا «فقد أراد أن يقسم أن الراح تذهب الهم ، فلم يجد عنده أعز من القسم بعين الحبيب تعده بالوصل خوف الرقيب ، والقبلة المختلصة من خده ، والغناء الحلو في القصيدة الفصيحة الجيدة» ^(٧) إذ

(١) ابن وكيع التنيسي ، ص ٦-٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٣) القدم : الأحق الغليظ . ويريد : الذي لا يباطله حبا بحب ، ولا يؤثر فيه غزله ولا استعطافه . المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٤) ديوانه ، المرجع السابق ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٨٧ . وبدا لي : يعنى رجوعه عن هذا الدعاء .

(٧) نفس المرجع ، ص ٢٧ .

يقول :

لا ، ووعد الوصل باللح
واختلاس القُبلة الحلوة
وسَماع مستطاب
ما سوى الراح لداء الهم
ظ على رغم الرقيب
من خد الحبيب
جاء من لفظ مُصيب
عندى من طبيب^(١)

ويقسم ابن وكيع هذا القسم البديع ، أيضا فى قوله :

بما بعينيك من فتون
وبالعذار الذى تولى
ومَضْحَك منك لؤلؤى
جُد لى بالصفح عن ذنوبى
ومن فتور بها وسحر
خلع عذارى وبسط عُذرى
ممتزج مسكُه بخمر
أو لا فعاقب بغير هجر^(٢)

ويعقب حسين نصار على هذا القسم ، مبينا جماله الفنى ، بقوله «وأراد أن يلتمس منه صفحا عن ذنوبه ، أو عقوبة بغير الهجر الذى لا يستطيع احتماله ، فاستحلفه بما فى عينيه من فتون وفتور وسحر ، وبثغره المبتسم اللؤلؤى الثنايا ، الخمرى الريق»^(٣) .

ثم يؤكد حسين نصار جمال هذا الأسلوب الشعرى الذى يفيض ظرفا فى غزل ابن وكيع فى قَسَمه كذلك بأن الصبر لا يجمل عن الحبيب «فكان قسمه بوجه الحبيب يبدى صفحة السيف الصقيل ، وشعره الأسود على خده الأسيل ، وعيونه القاتلة»^(٤) :

لا ووجه لك يُبـدى
وسواد الشَّعر الأسود
وعيون لك لا تطرف
ما جميل الصبر عن
صفحة السيف الصقيل
فى الخد الأسيل
إلا عن قتيل
مثلك عندى بجميل^(٥)

(١) ديوانه ، المرجع السابق ، ص ٤١ . والسماع : الغناء .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٨٩-٩٠ . والصقيل : المصقول المجلو ، شبه خده الناعم المشرق بذلك السيف ، والأسيل : الطويل الناعم الأملس .

ويُرجع حسين نصار أسلوب شعر ابن وكيع ، وما تميز به من موسيقى عذبة وألفاظ سهلة تسم شعره بالهدوء ، إلى الطبيعة المصرية الوداعة الهادئة فى ابن وكيع ^(١) . كما يلاحظ أن الطبيعة المصرية قد أمدت ابن وكيع ببعض التعبيرات المستعملة فى مصر وحدها . ويشير ، كذلك ، إلى نوع من تحرر ابن وكيع من النظم التقليدية للقصيدة العربية تمثل فى تنوع الأنغام الموسيقية فى نظمه للمزدوجة والمربعة ، إلى جانب النسخ القصصى لشعره فى مربعاته الغزلية ، وأرجوزته فى فصول السنة ، وكثير من زهرياته وغزلياته ^(٢) .

ويمثل حسين نصار لخيال ابن وكيع الابتكارى بصوره الشعرية التى تربط بين أمور متباعدة لا شراكها فى بعض الصفات ، حيث سيطرت هذه الصور على مخيلته ، ودفعته إلى أنواع من المشاكلة فى شعره الغزلى ، كأن يقول :

ظبى سُلُوْى عنه مثل جوده خياله أكذب من موعوده
أجفانه أسقم من عهوده أردافه أثقل من صدوده ^(٣)

كذلك يمثل البديع ظاهرة أسلوبية متميزة فى شعر ابن وكيع خاصة الطباق والمقابلة ، يشكلها فى شعره دون تكلف أو تعمد ^(٤) .

والتشكيل البديعى فى الشعر المصرى ظاهرة واضحة ترتبط بمفهوم الشعراء المصريين وكذلك النقاد للبديع ، ويعد من أهم المؤثرات الأسلوبية فى الأدب . فلم ينظروا إليه حلية لفظية ، أو وسيلة لصياغة الشعر ، بل وظفوه توظيفاً جمالياً جعله غاية الأدب ، ودل مفهومهم له - على مستوى الإبداع وعلى مستوى النقد - على تميز مفهومهم للشعر ، مفهوم ما يتسع بالأساليب البديعية فيه اتساعاً يصل هذا الإبداع بما ينتظم القصيدة من ابتكار فى الصور وطرافة فى الخيال ، وتفنن فى عرض المعنى ، ومهارة فى طريقة هذا العرض ، فارتبطت وظيفة البديع الذى استخدمه الشعراء المصريون دون تكلف أو تعمد فى الجانب الإيجابى الأغلب فى شعرهم ، بجمال الصياغة الشعرية ، كما ارتبط البديع بموسيقى الشعر وكان له دوره الهام فى إيقاع التنغيم الموسيقى ^(٥) .

(١) ابن وكيع التنيسى ، ص ٣١-٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٢-٣٣ .

(٥) انتهت إلى مثل هذه النتائج فى دراستى للبديع فى شعر الطبيعة المصرى ، راجع كتابى «شعر الطبيعة فى الأدب المصرى» . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص ٣٤١ ، ٣٥٦-٣٥٧ ؛ وكذلك فى كتابى «نقد الشعر فى مصر الإسلامية» وسنرجع إليه بعد ذلك .

(٢)

وفى دراسته لشعر ظافر الحداد يطرح حسين نصار منهجه لدراسة الأدب ، فيؤكد أن التاريخ السياسى لعصر شاعر ليس هدف الدراسة الأدبية ، فنحن ، على حد قوله «حين نترجم لشاعر لا نؤرخ لعصره ، وإنما نؤرخ لرؤيته لعصره وإحساسه ، وكلما أحسنًا هذا اللون من التأريخ كان منهجنا أقرب إلى دراستنا الأدبية»^(١) .

أما كيف أحس ظافر بمصر ، وتجلّى ذلك فى شعره ، فإننا نختار من التجليات المصرية الكثيرة فى هذا الشعر مايكاد يعد ظاهرة أدبية فى شعر ظافر ، وهو تصويره للغربة فى شعره فى الحنين إلى الإسكندرية ، موطنه ، وقد اضطر إلى فراقه ، والعيش فى الفسطاط (العاصمة) طلبا للجاء والغنى الذى لم يغنه عن فقدانه لأحبابه ولإسكندرية ، وإن لم يظفر فيها بما تمنى من ثمرات موهبته الشعرية من رفعة وغنى ، مما قد يعكس طبيعة الإنسان المصرى الذى يرتبط بموطنه ، ولا يرضى عنه بديلا . والحق أن الحنين إلى الوطن عاطفة إنسانية عامة ، ولكنه عند المصرى فى بؤرة شعوره ، لما ميز الحضارة المصرية ، فى تاريخها العريق ، من استقرار حول وادى النيل ، وارتباط المصرى بمكان ولادته ، والحنين إليه حتى لو نزل فى مكان آخر داخل هذا الوطن الواحد : مصر .

فالحنين إلى الإسكندرية يستولى على خيال ظافر الحداد ، وعلى موضوعاته الشعرية المختلفة . وقد عبر حسين نصار عن ذلك بقوله : «وحدا به الحب إلى التعلق بالطبيعة المصرية ، وتصورها برياضها المثل الأعلى لكل جميل سواء كان مجردا كالعيش الآمن ، والحب المتمتع ، أو كان محسوسا كالحديث العذب ، والوجه الحسن ، والمبنى الفاخر ... إلخ . وكان الحب المحروم الذى عصفت به الأشواق هو الذى أفقده إحساسه بنفسه ، ووعيه بالعالم الخارجى ، وأحياءه (فى الإسكندرية) على حين بقى جسمه فى الفسطاط (جثة مطروحة)»^(٢) .

ويعبر ظافر عن حنينه إلى الإسكندرية ، واضطراره إلى فراقها بالرحيل إلى الفسطاط فيقول :

محل فؤادى فيه أسنى وأشرف
عذارى ، ولم أحفل بلاح يُعْنَفْ .

وسكنائى بالفسطاط عز وإنما
صحبت به عيش الشبيبة خالعا

(١) حسين نصار : ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

وأهل وإخوان وبشر وغبطة وأمن ومحبوب وجاه ومسعف
تخلفت عن تلك الديار ضرورةً وبالرغم منى دونهن التخلف^(١)

ويؤكد حسين نصار أن استقرار ظافر بالفسطاط كان له أبعد الآثار في حياته وشعره^(٢) ،
فالفسطاط في نظر ظافر ، لاتعوضه عن حبه للإسكندرية ، وإن جرى نيلها له فضة ، وغدا
سفع مقطمها له ذهباً ، إذ يقول :

والله ما اخترت مصرا عنك عن مقة وإن غدا العيش لى فيها كما يجب
ولو جرى نيلها لى فضة وغدا سفع المَقْطَم منها وهو لى ذهب
ما اخترتها عوضاً ممن نشأت بها ولا شفى لى منها غلَّةً أرب
جار الزمان على شملى ولا عجب من ذلك الجور بل إنصافه عجب^(٣)

ويجوز الزمان أيضاً ، على ظافر الحداد ، فيأبى القدر أن يمنحه الأمنية الأخيرة في
حياته ، والتي ظل يحلم بها فى شيخوخته :

عسى مُنيةٌ قبل المنيّة تنقضى فيرشف ثغرَ الثغر طرفى إذ رنا
سألتك رباه عَوْدًا فَجُدْ به وجازٍ بخير مَنْ دعوتُ فَأَمْنَا^(٤)

ويجعل حسين نصار شعور ظافر بالغربة مصدر شاعريته وبراعته الفنية فى الوصف . وقد
تجلى ذلك فى تفاوت القيمة الفنية بين ما نظمه فى الإسكندرية من شعر ، وما قاله فى
غربته ، إذ تومئ الأولى إلى «براعته فى الوصف ، وقدرته على التخيل ، ولكنها لا تبارى ما
قاله فى غربته»^(٥) .

وقد أثارت طبيعة الإسكندرية فى ذهن ظافر صورة تلو صورة من الخيال البديع ،
وألهمته حساً مرهفاً ، ومخيلة شعرية حساسة يقظة . فنراه يصور النخيل هيفاً حساناً تحلت
بعقود الثمر ، ارتوت أغصانها خمراً فتراقصت نشوى ، وشدت طيورها شدوا رخيماً جذاباً ،
أوحى إليه بما يعتلج فى قلبه ، كما يصور أنين سواقى هذا الخليج والحي الذى نشأ فيه ،
ويتحدث عن بعض أحياء الإسكندرية الأخرى ، ويرسم صورة عامة للإسكندرية جنة واسعة

(١) ديوانه ، بتحقيق حسين نصار . القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤٣ .

(٢) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص ٢١-٢٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٣١-٣٢ .

(٤) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص ٦٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

الأرجاء ، زادها الربيع جمالا وألوانا ووشيا ، وهب فى جنباتها الهواء البليل العطر ، وكللت شمس الأصيل ماء بحرها اللجبنى برداء من ذهب^(١) .

وينتهى حسين نصار بعد دراسة ضافية لصورة الإسكندرية فى شعر ظافر الحداد إلى ما يؤكد علاقة إبداعه فى رسم هذه الصورة بحنينه وشوقه إلى الإسكندرية قائلا إنه «لم يترك مجلى من مجالى الجمال ، ولا مشهدا من مشاهد الحسن ، ولا أثرا من آثار الخلود ، ولا خاصية من المفاسخ ، ولا ميزة من المزايا فى الإسكندرية إلا صورها فى شعره ... فأعطاه صورة دقيقة مفصلة تحوى كل جميل من معالمها . وصور كل جزء من ذاكرته ، وقد غلفه البعد بسحره ، والشوق بحسنه ، فأحاطه الخيال بمجموعة من الصور التى تكمل شكله ، وتزهى لونه ، وتعمق إيحاءه»^(٢) :

يا بلدتى إن يَغِبْ مغناك عن نظرى فإنه فى سواد القلب لم يَغِبْ^(٣)

فذكريات الشاعر فى الإسكندرية ألهمته - حين رحل عنها - قصائد كاملة لا يشاركها فيها موضوع آخر ، على حد تعبير حسين نصار^(٤) ، الذى أكد ، كما بينا ، الارتباط بين غربة ظافر عن الإسكندرية وبين إبداعه الفنى ، إذ يراه حسين نصار ، وقد أقبل على ذكرياته فيها إقبال الحفى الذى أخلص قلبه لها ، وأفرغ ذهنه لصورها ، فينظم فى رسمها أجمل ما قاله من شعر ، غنى فى الانفعال ، وتنوعا فى الرسم ، وعذوبة فى النغم ، واستلهاما للخيال^(٥) .

لقد استولى حب الإسكندرية والشوق إليها على قلب ظافر فهو فى الفسطاط «بائس حزين بعيد عن الأصدقاء والأحباب والأهل وموطن الجمال والمتعة ، قد فقد شبابه ، وأضر به حبه الثابت لمسقط رأسه ، ولوعة حنينه إلى الإسكندرية . ينظر إلى الإسكندرية من خلال أطياف الحب ، ورؤى الشوق ، وأحلام الحرمان فلا يرى إلا سحرا وفتنة ورواء»^(٦) .

وشعر الطبيعة فى ديوان ظافر ، فى رأى حسين نصار ، يجعله ابنا للطبيعة المصرية^(٧) ، وشعره فى الحنين إلى الإسكندرية ، خاصة ، أروع ما نظم «فقد نمت فيها قدراته جميعا ،

(١) ظافر الحداد ، ص ٩٨ - ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها ، وراجع أيضا ، ص ٢٣٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

وأبرز خصائصه الفنية كلها ، وأصدرها مفعمة بأعمق مشاعره وأزخرها ، وألبسها أعذب حله وأحلاها»^(١) .

ولا يقتصر أثر الحنين إلى الإسكندرية في إبداع ظافر الحداد لشعر الطبيعة ، بل يتجلى هذا الحنين في شعره الغزلي كذلك ، «إذ يسمو ظافر بالغزل فيجعله جوهر الشعر وينبوعه»^(٢) ، مبدعا من فنونه معاني وصورا يرتبط فيها شوقه إلى الإسكندرية بشوقه إلى حبيبته ، فهو على حد تعبير حسين نصار ، «يكتوى بنار الحب ، وتحرقه جمرات البعاد ، فيعصر الشوق فؤاده كما عصر فؤاده هو حنينه إلى الإسكندرية»^(٣) ، فيدرك «من المعاني والصور عند التعبير عن حبه ما لا يدرك هو نفسه في غير الغزل من فنون الشعر :

كم فكرة أنتجت معنى لملتهب بالشوق لو رامه في غيره عَزَبًا^(٤)
وينتهي حسين نصار إلى أن الطابع الابتكاري الذي يطبع الشخصية الشعرية لظافر الحداد يتجلى في شعره الذي يجعل الإسكندرية والطبيعة والحبيبة شيئا واحدا^(٥) .

وتجلت شخصية ظافر الشعرية كذلك ، في ارتباطه بالفنون المصرية مثل العمارة والنقش والخط والغناء ارتباط صانعها بها ، فتعرف على جوانب متعددة منها . فإذا كان قد صور الكثير من مجالي الجمال في الطبيعة المصرية ، والكثير من الرجال والمثل والوقائع في المجتمع المصري ، فإنه قد منحنا مجموعة من الرسوم المعبرة تعبيرا وافيا عن هذه الفنون»^(٦) .

وهنا يلتقي ظافر الحداد مع ابن وكيع في بعض الظواهر الفنية التي تتجلى فيها بعض خصائص الشعر المصري ، كما يلتقى به في استمداده من البيئة المصرية معاني وصورا شعرية تتصل بمجتمعه ، وبالواقع الجاري أمامه ، ويصور مصر : الأهرام والنيل هذه الصورة الشهيرة البديعة :

تأمل هيئة الهرمين وانظر	وبينهما أبو الهول العجيب
وماء النيل تحتها دموع	وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهرُ سجن يوسف مثل صَبٍّ	تخلف فهو محزون كئيب ^(٧)

(١) ظافر الحداد ، ص ٢٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

(٧) ديوانه ، ص ٤ .

ويمثل البديع ، خاصة الطباق والجناس ، ظاهرة فنية فى شعر ظافر الحداد^(١) ، كما تميز هذا الشعر بظاهرة أخرى هى الميل إلى الفكاهة والسخرية ؛ فاتسمت صوره بخفة الظل وحلاوة الروح^(٢) ، وهنا يلتقى بابن وكيع التنيسى فى شعر يكشف عن بعض جوانب الشخصية المصرية .

(٣)

وتمثل دراسة الأدب فى مصر بعد الفتح العربى لها فى السنة العشرين للهجرة معضلة من المعضلات التى تواجه قضية الشخصية المصرية فيه ، لفقدان النصوص وعدم العناية بدراساتها ، لأن مصر كانت تابعة للخلافة الراشدة أو للخلافة العباسية^(٣) فى هذه العصور الأولى من تاريخها العربى ، ومن ثم فإن الحكم على خصوصية أدبها فى تلك الفترة يواجه تحديات أكبر من التحديات التى تواجهها عصور الاستقلال والقوة فيها .

وقد واجه حسين نصار هذه المشكلة ، ورأى أن تتبع الأفواج العربية المهاجرة إلى مصر ، واستقصاء ماضيها فى شبه الجزيرة العربية هو «المنهج السليم للتعرف على الألوان الأدبية التى دخلت مصر ، واطلع عليها المصريون ، وتمثلوها ، وربما حاكوها ، فهو إن لم يعطنا خصائص الأدب المصري ، أعطانا خصائص الأدب الذى كان يصدره من وفدوا على مصر قبل وفادتهم ، ولا شك أنهم حملوه إليها ، وربما استمروا فى التحلى بها فيما أصدروه بها»^(٤) .

ومع ذلك ، فإن ما عُرف من هذا الأدب العربى فى مصر فى بداياته المبكرة قد أدى إلى الوقوف على بعض الملامح الفنية لهذا الأدب المصري . فقد برع المصري ، على حد رأى حسين نصار ، فى فن السخرية ، واتخذ الإضحاك سلاحاً من أسلحة المقاومة ضد خصومه ، وصور شعره اتصال الأدب بأحداث الحياة والمجتمع ، كما فى هجاء سعيد بن عفير للأمير وصاحب الخراج ، وانتقاده لسوء الأحوال فى مصر بسبب الغلاء والإسراف فى جمع الضرائب حيث يقول :

ما كنت أحسب أن الحينَ يجمع ما أمسى بمصر من الأندال في الإمَرِ^(٥)

إلى آخر القصيدة .

(١) حسين نصار : ظافر الحداد شاعر مصرى من العصر الفاطمى ، ص ٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) وإن تخللها استقلال سياسي لمصر فى العصرين الطولونى والإخشيدى .

(٤) حسين نصار : مصر العربية ، ص ٥ ، منشورات اقرأ ، ط الثالثة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٧٧ ، وراجع أيضا ص ٧٥ ، ٧٦ .

وكما في تصوير الأحداث السياسية في مصر ، ورتاء الشعراء لدولة الطولونيين ، والبكاء على زوال مجدهم في قصيدة سعيد القاص المطولة :

جرى دمعُه ما بين سحر إلى نحر ولم يجرِ حتى أسلمته يدُ الصبر^(١)

ويخلص حسين نصار بعد دراسته لألوان من هذا الشعر إلى أن «الشاعر المصري من أول الشعراء الذين حاولوا أن ينظموا أمجاد بلادهم ، والصفحات المشرقة من تاريخها ، وأن يبكو الدول التي وفرت لبلادهم الحضارة والترف والنعيم»^(٢) .

ويتناول حسين نصار أثر مصر في شعر الهذليين . ورغم اتضاح موقفه من أن الشعراء الهذليين قد نضج شعرهم في بيئتهم الأصلية قبل وفودهم إلى مصر ، فإنه لا ينفي تسرب أثر ضئيل لمصر في شعرهم لا يتنافى مع شخصيتهم العربية ، حيث واجه «الشاعر الهذلي في مصر طبيعة تخالف طبيعة بلاده من وجوه عدة ، فتنبه إلى المظاهر الكبرى التي أثرت في حياته الجديدة»^(٣) .

ويرى نصار أن أبرز مظاهر تأثير البيئة المصرية في شعر الهذليين تتجلى في حديثهم عن النيل ، هذا النهر العظيم «الذي ارتقى به المصريون فسموه البحر ، والذي لم ير له العرب مثيلاً»^(٤) . وأخذ يتتبع الصور الشعرية التي ألهمها النيل وواديه وزروعه ، خاصة القمح ، خيال الشعراء الهذليين ، مميزة عن الخيال العربي الخالص^(٥) .

ولعل مصر ، في رأى حسين نصار ، قد أثرت في الشعراء الوافدين إليها ، فقد زودت أبا تمام ، مثلاً ، بالتذوق الرائع للأدب العربي ، والقدرة على الإسهام فيه ، كما زودته ، في رأى بعض الباحثين «ببعض خصائص مذهبه الذي عُرف به ، وأخذها الشاعر عن شاعر مصر السراج دون أن يدري»^(٦) ، وهو «الإغراب الذي عابه أبو تمام على السراج ، ثم عابه النقاد ، بعد ذلك ، على أبي تمام»^(٧) .

(١) حسين نصار : مصر العربية ، ص ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ، من ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

(٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

وتأصيلاً لبواكير الإقليمية منهجاً لدراسة الأدب العربي ، يشير حسين نصار إلى تمييز بعض علماء اللغة اللهجات العربية على أساس بيئتها ، وحكمهم على فصاحة بعضها أو عدم فصاحتها بهذا المعيار . فقد عدوا عربية نجد ، مثلاً ، أفصح من عربية مكة قبل عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحتى العصر الأموي ، فلم يأخذوا عمن ابتعد عن نجد من الشعراء ، ولذا رحل بعضهم إلى البادية لتعلم اللغة على أساس أن اللهجات الفصيحة هي لهجات القبائل التي عاشت فيها بعيداً عن المؤثرات الخارجية التي شابت اللهجات العربية الأخرى لقبائل عاشت بعيدة عن البادية ، أو اتصلت بشعوب غير عربية مما سبب ضعفها ، وبعدها عن الفصاحة العربية الخالصة .

وقد أشار نصار إلى الفئات التي ربطت بين الشعراء وبيئاتهم ، عد منها فئة النقاد ممن فرقوا بين ذوق أهل البادية وأهل الحاضرة ، فوصفوا أهل البادية بالغلظة والخشونة خلافاً لرقه أهل الحاضرة . كما أشار إلى اعتداد ابن سلام بأثر البيئة في الشعر ، قلة وكثرة ورداءة وجودة ، فقد كان كتابه «طبقات فحول الشعراء» أول كتاب في تاريخ الأدب يلتفت إلى أثر البيئة في الشعر^(١) .

وربط ابن قتيبة^(٢) بين تنقل البدو وبدء قصائدهم بالوقوف على الأطلال . ووصل ابن طباطبا إلى القمة في إبانة أثر البيئة في المضمون الشعري ، على حد تعبير حسين نصار ، حيث أعلن أن «العرب أودعت أشعارها ما أدركه عيانها ، ومرت به تجاربها» بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فنفي أن يكونوا أتوا بشيء من خارج بيئتهم «فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها»^(٣) .

كذلك أشار حسين نصار إلى التفات على بن عبد العزيز الجرجاني^(٤) إلى أثر البيئة بادية أو حاضرة ، في الأذواق والأسلوب الشعري وأنه «وازن بين عدد من الشعراء للبرهنة على صحة ما أدلى به من أحكام ، بل اختار شعراء جاهليين وإسلاميين لهذه الموازنة ليبين أن أثر المكان أقوى من أثر الزمان»^(٥) .

(١) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربي ، تعبيره عن الوحدة والتنوع . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة الأمم المتحدة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٢٩ .

(٢) في كتابه «الشعر والشعراء» .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ . وراجع أيضاً : ابن طباطبا : عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق : محمد زغلول سلام . الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) في كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» .

(٥) حسين نصار (بالاشتراك) : الأدب العربي ، تعبيره عن الوحدة والتنوع ، ص ٢٢٠ .

كذلك ينبه حسين نصار إلى أن بعض الشعراء قد ربطوا بين البيئة والشعر مثل كثير الذي كان يرى «أن هناك بيئات تسد مسالك الشعر أمام الشاعر، وهناك بيئات تدفعه إلى النظم، وأن البيئة التي يتوافر لها الجمال الطبيعي تدخل بالشاعر في حالة انفعالية تصل به إلى عملية الإبداع، وتستدعي ما أحب من الشعر، بل يمتاز الشعر الآتي في مثل هذه البيئة بجمال فني قد لا يتوافر في إنتاج غيرها من البيئات»^(١).

أما أظهر كتاب اتخذ مؤلفه من التقسيم البيئي أساساً لدراسة الشعر^(٢) فهو كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي، الذي رتب شعراء عصره الذين ذكرهم في أقسام أربعة:

القسم الأول: في محاسن أشعار آل حمدان (من أهل الشام، وما يجاورها من مصر والموصل والمغرب).

القسم الثاني: في محاسن أشعار أهل العراق.

القسم الثالث: في محاسن أشعار أهل الجبال وفارس وجرجان.

القسم الرابع: في محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر^(٣).

وقد تابعه الباخري في كتابه «دمية القصر وعُصرة أهل العصر»، وابن بسام في «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»^(٤). ويجمل حسين نصار تصوره لعلاقة الشعر بالبيئة في قوله: «ومجمل القول أن الشعراء خضعوا للآثار التي تفرضها كل بيئة، وما يجرى فيها من تيارات ثقافية متغايرة عن وعي من بعضهم، وعن غير وعي من أكثرهم، ولذلك اختلفت صورة ما أصدره من شعر في الأقطار العربية المتعددة، والعصور المتعاقبة، ولم يقف الأمر بهم عند هذا، بل كان منهم من له حس أرق، وفطنة أثقب، فتنبهوا إلى أثر البيئة في المجالات الشعرية المتعددة، وكشف أقدم الأخبار التي عثرنا عليها أن أقدم تنبه كان في مجال عملية الإبداع، عوناً لها أو إعاقاً، ثم فطن الشعراء إلى ما تخلفه البيئة من آثار في شكل القصيدة ومضمونها، بل إلى عناصر جزئية في المضمون، وقد أثار هذا التنبه أول ثورة عامة على العرف العربي القديم في بناء القصيدة»^(٥).

وهذا تصور يضع الأدب الإقليمي في نصابه، ويتناوله تناولاً موضوعياً، ولا يهدر خصوصية الإبداع الأدبي لحساب الإقليمية، بل يضعها في سياقها حركة من حركات تطور الأدب العربي.

(١) حسين نصار (بالاشتراك): الأدب العربي، تعبيره عن الوحدة والتنوع، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٣) راجع مقدمته، بتحقيق: علي محمد عبد اللطيف. القاهرة: مطبعة الصاوي، ١٩٣٤.

(٤) حسين نصار (بالاشتراك): الأدب العربي، تعبيره عن الوحدة والتنوع، ص ٢٣٤.

(٥) المرجع السابق.

الدكتور حسين نصار ملحقاً للنصوص المعجمية

أ . عشره ملحق الفول*

تنوع الإنتاج العلمى وغزارته .

يُعدُّ الأستاذ الدكتور حسين نصار علماً من الأعلام البارزة فى حاضر الثقافة العربية ، وذلك لما يتحلى به من ثقافة موسوعية استوعبت العديد من الجوانب الفكرية التراثية والمعاصرة ، وكان من نتيجة ذلك أن تنوع إنتاجه العلمى ، فلم تقتصر جهوده على فرع واحد من فروع العلم ، بل امتدت لتشمل مجالات متعددة ، منها ما يتصل بالدراسات اللغوية والأدبية ، ومنها ما يتعلق بالتاريخ والحضارة العربية والإسلامية وغيرها ، كما اختلفت طرق معالجته لهذه الدراسات ما بين التأليف والتحقيق العلمى والترجمة . وقد عكف سيادته على خدمة التراث العربى لسنوات طويلة امتدت لأكثر من نصف قرن ، أثرى خلالها المكتبة العربية بستين كتاباً ، مما يشهد له بالتمكن والريادة .

ولا يقف المتأمل للإنتاج العلمى للدكتور حسين نصار عند تنوعه وغزارته فقط ، وإنما يدرك للوهلة الأولى تميزه الواضح فى هذا الإنتاج ، لاسيما اللغوى منه . فعلى الرغم من صعوبة التأليف فى تاريخ المعجمات العربية ، إلا أن أستاذنا قد اختار العمل فيه ، ويعد كتابه «المعجم العربى : نشأته وتطوره» المصدر الرئيس للباحثين فى هذا المجال ، وذلك لما وجدوا فيه من علم غزير واطلاع واسع ونظرة شمولية للتدوين اللغوى بعامة ، والمعجم العربى على نحو خاص .

الحاجة إلى المعاجم اللغوية .

على الرغم من وفرة المعاجم اللغوية القديمة إلا أنها لا تفى بحاجة العصر ومقتضياته ، لوقوفها عند فترة زمنية لم تتجاوزها ، وهى القرن الثانى بالنسبة لعرب الحواضر ، والرابع بالنسبة لعرب البوادي ، مما أصاب اللغة بالجمود وعاقها عن التطور^(١) ، كما وقفت كذلك عند حدود مكانية لم تتعدها ، وهى وسط شبه الجزيرة العربية (نجد) ، و«معظم هذه المعاجم قد تصونت عن إثبات ما وضعه المولدون والمحدثون فى الأقطار العربية من الكلمات والمصطلحات والتراكيب»^(٢) .

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .

(١) انظر : أحمد مختار عمر : البحث اللغوى عند العرب . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٩٦ ، ص ٣٠٠ .

(٢) مقدمة المعجم الوسيط ، ط ٣ ، ١٢ / ١ .

واللغة دائماً أوسع من المعاجم ؛ لأنها ظاهرة مفتوحة ولا تستقر على حال ، لذلك أكد الدكتور حسين نصار على ضرورة أن نتدارك ما أهمله أصحاب المعاجم القديمة من الألفاظ المولدة ، وقد حاول أحمد تيمور باشا أن يطلعنا على بعض الألفاظ العباسية التي أهملتها المعاجم فى مقالاته التى نشرها فى مجلة المجمع العلمى بدمشق^(١) .

غير أن هذه المقالات لم تغن عن صناعة المعاجم التى تُخصَّص للعاميات المعاصرة فى الأقطار العربية المختلفة ؛ لتبين مدى العلاقة بين هذه العاميات واللغة العربية الفصيحة . من هذا المنطلق اعتنى الدكتور حسين نصار بتحقيق «معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية»^(٢) لمؤلفه أحمد تيمور باشا ، يقول : «أصبحنا فى حاجة كبرى لوضع كتاب كاف ، يكشف عن أصول الكلمات العامية ومعانيها ، ويحل معقودها ، ويوضح غامضها ، ويبين مرادفها من الفصح»^(٣) .

وترجع القيمة العلمية لهذا المعجم إلى المكانة العلمية واللغوية التى وصل إليها مؤلفه ومحققه فى أن معا ، حيث كان الأول عضواً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والمجمع العلمى العربى بدمشق ، والثانى عضواً مراسلاً فى مجمعى اللغة العربية فى بغداد ودمشق .

ولا غرو ، والأمر كذلك ، أن اعتبر المحقق هذا المعجم «أكبر كتاب فى العامية : أكثرها ألفاظاً ، وأوسعها مجالا ، وأشدّها وصلاً بين العامية واللغة الفصحى ، وبين العامية المصرية وغيرها من العاميات ، وأشملها للجوانب المختلفة من اللغة العامية ، وأحسنها تصويراً لها فى مفرداتها وقواعدها وأدبها ، وأقربها عهداً بنا ، وأسهلها ترتيباً»^(٤) .

معجم تيمور الكبير

يقع المعجم فى ستة أجزاء ، خصَّص المحقق الجزء الأول للقواعد ، والسادس للفهارس^(٥) ، وبقية الأجزاء لمتن المعجم ، وقد شملت مداخل المعجم «المفردات التى استعملها العامة من معاصريه ، ومن الأجيال السابقة عليهم . أما العامى المعاصر له فقد

(١) راجع : حسين نصار : المعجم العربى ، نشأته وتطوره . القاهرة : مكتبة مصر ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ٢ / ٦٠٥ .

(٢) قام الدكتور حسين نصار أيضاً بتحقيق الجزء السادس من «تاج العروس» للزبيدي ، ١٩٦٩ م ، والجزء الثالث عشر ، ١٩٧٤ م ، سلسلة التراث العربى ، الكويت . كما قام بمراجعة المعجم العربى الأساسى ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٨٩ م .

(٣) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية ، تحقيق : حسين نصار ، إفتتاحية المؤلف . القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ، ط ٢ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م ، ١ / ١٨ .

(٤) المصدر السابق ، مقدمة المحقق ١ / ١٣ .

(٥) قام الدكتور حسين نصار بالتخطيط للفهارس وقام الأستاذ صابر إدريس بصناعتها .

أخذه من أفواه من اتصل بهم من المصريين ، وحاول ما استطاع الاستقصاء والتنويع فى هذا الأخذ ، فوردت فى كتابه ألفاظ من جهات متفرقة من ربوع مصر المتباعدة . وأما العامى القديم فالتقطه من بطون الكتب ، وحاول فيه أن يبين منشأه ، بأن يذكر أقدم مصدر ورد فيه اللفظ العامى . وقد أفاد ذلك الكتاب ثراء فى المادة ، واتساعا فى مجال البحث فلا تتحدد بمصر وحدها ، ونهجها تاريخيا - أو ذا مسحة تاريخية - فى التناول^(١) .

وكان لابد أن ترتب مداخل المعجم وفق نظام معين ، وقد «رأى - المؤلف - أن أيسر سبيل لترتيب هذه الألفاظ النظام الألفبائي ، تخضع له من حرفها الأول فالثانى فالثالث إلى آخر الحروف ، لا فرق فى ذلك بين حرف أصلى ومزید»^(٢) .

وكان الغرض من هذا المعجم «إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامى ، وتفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربى الأصل ، أو بيان مرادفه - إن لم يكن كذلك - ليحل محله ، ويرجع إليه فى الاستعمال . فإن جهلناه اقتصرنا على تفسير المعنى وتوضيحه ، ليتسنى لمن وجده بعدنا أن يتم ما بدأنا به»^(٣) . والصلة بين العامية والفصحى لا يشك فيها أحد ، وكل ما فى الأمر أنها قد تتفاوت فى العاميات المختلفة وهنا وقوة ، بل فى العامية الواحدة فى الأطوار الزمنية التى تمر بها^(٤) .

جهود المحقق فى إعداد المعجم

ما إن بدأ المحقق المراحل الأولى فى تحقيق المعجم حتى ظهرت له مجموعة من الصعوبات ، نظرا لطبيعة المعجم من ناحية ، وطريقة صاحبه فى التأليف من ناحية أخرى . يقول المحقق : «وتصورت الأمر يسيرا ، فإن لى بعض الدربة على التحقيق ، ولكن دراسة ما خلفه المغفور له أحمد تيمور باشا قد بددت هذا التصور ، وكشفت أن الأمر ليس تحقيقا مجردا ، بل لابد من عمل يضاف إليه»^(٥) .

وترجع الصعوبات التى قابلت المحقق فى تحقيق الكتاب إلى أن مؤلفه قد تركه على هيئة مسودة ، يقول المحقق : «فقد تبين أن النسخة التى حصلت عليها مسودة دون أدنى

(١) معجم تيمور ، مقدمة المحقق ، ١٢/١ .

(٢) المصدر السابق ، ١٢/١ .

(٣) المصدر السابق ، ١٨/١ .

(٤) المصدر السابق ، ٦/١ .

(٥) المصدر السابق ، ١٣/١ .

شك ، وأن المؤلف لم يجد فسحة من الوقت لتبيض الكتاب^(١) . مما يضاعف من دور المحقق ، ويجعل الكتاب فى حاجة إلى التهذيب والإعداد حتى يخرج بالصورة التى ينتفع بها الباحثون . وقد بذل المحقق جهدا كبيرا للتغلب على هذه الصعوبات ، ونوضح ذلك فيما يلي :

١- ترتيب القواعد .

من أولى الصعوبات التى واجهت المحقق صعوبة ترتيب القواعد ، «فقد خصّص المؤلف كراسين كبيرين للقواعد ، وأفرد مجموعة من الأوراق لكل ظاهرة من الظواهر اللغوية التى تحدث عنها ، دوّن فيها ما عثر عليه من النصوص والأقوال والآراء التى يمكن أن تندرج تحتها . وبمرور الوقت ، اكتشف ظواهر لم يظن إليها فى أول الأمر ، فمنحها مجموعة من الأوراق الأخيرة . وعندما أعاد النظر فى هذه الظواهر المتجمعة عنده ، وجد أنه يجمل به أن يجرى شيئا من التغيير فى ترتيب هذه الظواهر ، لأن بعضها يتصل بظواهر بعيدة عنه . فأشار إلى الموضع الذى يراه أهلا لهذه الظواهر»^(٢) .

فالمؤلف كان يكتب القاعدة مرة واثنين وثلاثا فى الموضع الواحد ، تقاربت هذه المواضع أو تباعدت . وقد يظن القارئ إلى أن المواد المدونة ترد حسب موضعها من مصادرها الأصلية ، ولكن الكاتب لم يلتزم ترتيب الأجزاء فى الكتب التى قرأها ، وقرأ الكتاب الواحد أكثر من مرة ، فاستدرك ما فاتته فى القراءة السابقة^(٣) .

على هذا النحو خلت المادة من الترتيب ، وترك بعض الظواهر غير محددة الموضع . وكان على المحقق أن يتدخل ، يقول : «وكان محالا أن نترك المادة على هذه الفوضى التى لم يقصد إليها المؤلف ، وتطرد القارئ ، وتحجب الفائدة . فرأيت أن أخضعها للترتيب الذى اضطررتنى إلى التقديم والتأخير فيها ، وإلى زيادة بعض العناوين من عندى بين معقوفتين ، وإلى حذف العناوين المكررة التى تبين انتماء الخبر . وشجعنى على ذلك أن الكاتب نفسه أوصى بشيء من ذلك فى بعض المواضع . فأوصى بنقل الحديث عن الباء من فصل المؤنث والمذكر إلى حرف الزاى»^(٤) .

(١) حسين نصار : التعامل مع نسخة المؤلف ، مجلة تراثيات (مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية) ، العدد الثالث ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٣ .

(٢) معجم تيمور ، مقدمة المحقق ، ١٤/١ ، ١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ١٤/١ .

(٤) المصدر السابق ، ١٥/١ .

٢ - تدوين العناوين بلا معلومات .

ومن المشكلات أيضا تدوين العناوين بلا معلومات تحتها ، يقول المحقق : «وجدت بعض العناوين لم يسجل تحتها شيئا ، فاحتفظت بها ؛ لتبين أنها واحدة من الظواهر العامة ، وإن لم يكتب [تيمور] عنها شيئا»^(١) .

٣ - الفصل بين المتن والحاشية .

ومن المشكلات أيضا مشكلة الفصل بين المتن والحاشية ، يقول المحقق : «لم يدون الكاتب بعض النصوص واكتفى بالإشارة إلى المرجع وموضع ذلك فيه ، خاصة النصوص الطويلة والعلاج المستقصى للظواهر . فرأيت أن ذلك يكون قائمة غنية بمراجع كثير من الأبحاث (ببليوجرافيا) ، وهى عظمة النفع لأنها تهدي الباحث وتضيئ سبيله ، ولكنها ثقيلة أمام القارئ لا يستطيع أن ينفذ خلالها ، واعتقدت أن الموضع اللائق بها الحاشية . فأنزلت إليها هذا القسط من المادة أو أغلبه ، بالرغم من أن الكاتب لم يفرق بين متن وحاشية . وحافظت جاهدا - فى الحاشية - على عبارة الكاتب»^(٢) .

٤ - ترتيب مداخل المعجم .

وكان ترتيب المداخل المعجمية من أهم المشكلات التى واجهت المحقق ، وذلك لما يحتاجه هذا الترتيب من عمل يكاد يضارع الصناعة المعجمية نفسها . ولا بد من التفرقة بين نوعين من هذا الترتيب ، النوع الأول : هو الترتيب الخارجى للمداخل ، وهو يعتمد على ترتيب الجذور ، فالجذر أخ ذ مثلا يأتى قبل الجذر ض ر ب ، والنوع الثانى الترتيب الداخلى للمداخل ، وهو يرتبط بترتيب مشتقات الجذر الواحد ، كتقديم الأفعال على الأسماء مثلا .

وبالنسبة للنوع الأول من الترتيب فإن تيمور رتب معجمه ترتيبا ألفبائيا ، إلا أن طريقته فى القراءة والتأليف قد اضطرتة فى كثير من الأحيان إلى إضافة مداخل جديدة استدركها على المداخل القديمة ، وقد قام المحقق بترتيب هذه المداخل ، يقول : «رأيت المداخل فى حاجة إلى إعادة ترتيب ورودها ، فرتبتها»^(٣) .

(١) معجم تيمور . مقدمة المحقق ، ١ / ١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ١ / ١٥ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أما بالنسبة للنوع الثانى من الترتيب فقد لاحظ أستاذنا أن المادة العلمية فى مداخل المعجم جاءت متناثرة ، ومكررة أحيانا . فكانت فى حاجة إلى من يرتبها ؛ ليجعلها مماثلة للمداخل المعتادة فى المعاجم اللغوية وصالحة للقراءة النافعة . ولذلك قام بإعادة ترتيب المادة فى هذه المداخل ، يقول : « رأيت المعلومات فى داخل المداخل فى حاجة إلى إعادة تنظيم ، اضطررت إلى شيء من الحذف والعطف ، ففعلت دون أن أضيف شيئا من عندى غير أدوات العطف فى أحيان قليلة »^(١) .

وهكذا رتب أستاذنا الدكتور حسين نصار المداخل المعجمية داخليا وخارجيا ، وحرص على تقديم المعجم فى صورة هى أقرب ما تكون لمببضة المؤلف ، يقول : « سميت ما فعلت (إعدادا وتحقيقا) . ولم أشعر أننى أخون أمانة الكتاب ، بل أومن أننى خلقت من الأمشاج التى تركها تيمور باشا كتابا سويا »^(٢) .

(١) حسين نصار: التعامل مع نسخة المؤلف ، ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

بیلیو جرافیات

إعداد / أ. أحمد عبد الباسط، وأ. أحمد عبد الستار.

مما لا شك فيه أن تراثنا ثرٌ كثيفٌ ، وجديدٌ ومتنوعٌ أيضاً ، لكن كثيراً من بنى جلدتنا يظنون ظن الخطأ بهذا التراث الأثيل الذي خلفه لنا أجدادنا من علماء الحضارة الإسلامية ؛ فيقولون : إن هي إلا مدونات دونها بعضٌ من طلبة العلم في كواغد بالية لا تصلح الآن لنا . وكأنهم تناسوا ما أحرزه علماء الحضارة الإسلامية من سبق وتقدم ، كان له الفضل على هذا الغرب المتخذ الآن نبراساً في كل شيء .

وقد عرضنا في العدد السابق مجالاً واحداً من مجالات نشاط التحقيق العلمي في هذه الكلية العريقة ؛ ونعرض في عددنا هذا بقية مجالاتها التي عنيت بالتراث المخطوط . فنقدم إليك أيها القارئ العزيز جهوداً أخرى في أقسام : أصول اللغة ، والأدب والنقد ، والبلاغة والنقد ، والتاريخ والحضارة .

وبهذا يكون ختامنا في كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر) ، فرع القاهرة ، أملين من المولى - عز وجل - أن تتبع هذا العرض بجهود بقية الكليات في هذه الجامعة العريقة .
أصول اللغة :

١ - ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس المنسوب للفيروزآبادي [ت ٨١٧هـ] : تحقيق - أحمد لطفي عبد المنعم دويدار ، ١٩٨٤ ، ٢٨٧ صفحة . ماجستير .

٢ - أزهير الرياض المريعة وتفاسير ألفاظ المحاورة والشرعية للإمام أبي الحسن على بن زيد البيهقي [ت ٥٦٥ هـ] : تحقيق ودراسة - محمد السيد عطية ، ١٩٨٢ ، ٥٢٤ صفحة . ماجستير .

٣ - أسرار العربية لكمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي : تحقيق - عبد المعطي جاب الله سالم ، ١٩٧٩ ، ٣٤٢ صفحة . ماجستير .

٤ - الإشارات إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن واللغات لابن الملقن [ت ٨٠٤هـ] : تحقيق ودراسة القسم الثاني - عبد المنعم على نظيف سيف ، ١٩٨٩ ، ٦٦٧ صفحة . ماجستير .

٥ - الأشباه والنظائر لأبي منصور الثعالبي : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (أبي منصور الثعالبي وتحقيق كتابه الأشباه والنظائر) - محمد رياض السيد كريم ، ١٩٨٢ ، ٣٥٠ ، صفحة . ماجستير .

٦ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - عبد الجابر عبد الله سليمان ، ١٩٧٨ ، ١٢٣٥ صفحة . دكتوراه .

٧ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «أجح» إلى مادة «ثأد» - عبد المنعم عبد الله محمد ، ١٩٨٣ ، ٥٢٣ صفحة . دكتوراه .

٨ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «جحد» إلى مادة «أد» - فتحى أنور عبد الحميد ، ١٩٨٣ ، ٧٩١ صفحة . دكتوراه .

٩ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «وأد» إلى مادة «خبر» - أحمد طه عبد العال سليم ، ١٩٨٣ ، ٧٤٥ صفحة . دكتوراه .

١٠ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «خبر» إلى مادة «شبط» - مصطفى عبد الحفيظ على سالم ، ١٩٨٤ ، ٥٥٣ صفحة . دكتوراه .

١١ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «شبط» إلى مادة «احجم» - مناف مهدي محمد ، ١٩٨٤ ، ١٠٢٨ صفحة . دكتوراه .

١٢ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «كأب» إلى مادة «لهب» - أحمد طه حسنين سلطان ، ١٩٨٤ ، ٨٦٥ صفحة . دكتوراه .

١٣ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «حثث» إلى مادة «يرج» - أحمد أبو اليزيد على ، ١٩٨٨ ، ٨٥٦ صفحة . دكتوراه .

- ١٤ - إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على إضاءة القاموس لمحمد بن الطيب الفاسي [ت ١١٧٠هـ] تحقيق ودراسة من باب الباء فصل الجيم إلى نهاية باب الفاء فصل الجيم - عزت عبد الحميد إبراهيم، ١٩٩٠، ٩٥٦ صفحة . دكتوراه .
- ١٥ - الأفعال لابن القطاع الصقلي : تحقيق ودراسة من أوله إلى آخر حرف الفاء - سعيد عبد الخالق إبراهيم، ١٤٠٩هـ، ١٥٥٦ صفحة . دكتوراه .
- ١٦ - الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء للإمام أبي محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الله النكزاوي [ت ٦٨٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - محمد سعد محمد مرسى، ١٩٩٠، ٨٩٠ صفحة . دكتوراه .
- ١٧ - الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء للإمام أبي محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الله النكزاوي [ت ٦٨٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثاني - نعيم عطوة محمد فرج، ١٩٩٠، ٨٨١ صفحة . دكتوراه .
- ١٨ - إكمال الإعلام في ثلاث الكلام لجمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن مالك : تحقيق ودراسة - أحمد إبراهيم الجزار، ١٩٨٦، ١٦١٣ صفحة . دكتوراه .
- ١٩ - إيضاح الأسرار والبدايع في شرح الدرر واللوامع في أصل مقر الإمام نافع لابن المجرد [ت ٨١٩ هـ] : تحقيق ودراسة - ناصر محمد أبو زيد نصر، ١٩٩١، ١٣١٦ صفحة . دكتوراه .
- ٢٠ - البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة لسراج الدين عمر بن قاسم الأنصاري المصري الشهير بالنشار [ت ٩٠٠ هـ] : تحقيق من أول الكتاب إلى سورة الكهف - فوزي يوسف عبده، ١٩٨٥، ٦٤٤ صفحة . دكتوراه .
- ٢١ - تاج المصادر في اللغة للإمام أحمد بن علي بن محمد البيهقي [ت ٥٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - محمد سعد محمد مرسى، ١٩٨٥، ٦٢٧ صفحة . ماجستير .
- ٢٢ - تاج المصادر في اللغة للإمام أحمد بن علي بن محمد البيهقي [ت ٥٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثاني - أحمد أبو العيلة رخا، ١٩٨٥، ٦٧٠ صفحة . ماجستير .

٢٣ - تاج المصادر فى اللغة للإمام أحمد بن على بن محمد البيهقى [ت ٥٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة الجزى الثالث - نعيم عطوة أحمد فرج ، ١٩٨٥ ، ٧١١ صفحة . ماجستير .

٢٤ - التجريد لبغية المريد فى القراءات السبع لابن الفحام [ت ٥١٦ هـ] : تحقيق ودراسة - محمد عيد محمد عبد الله ، ١٩٩١ ، ٨٥٨ صفحة . ماجستير .

٢٥ - التحرير السديد لشرح القول المفيد لبدر الدين بن عمر بن عطاء الله [ت ١١٧٥ هـ] : تحقيق ودراسة - صالح عمر بسيونى أبو الحسن ، ١٩٨٨ ، ٢٠٦ صفحة . ماجستير .

٢٦ - تفريج النفوس فى تجريد هوامش حاشية القاموس للعلامة الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى [ت ١٣٠٥ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول من أوله إلى قول المؤلف «هكذا فى الجمع كلمة وإذا جاءت لجمع حاجة» - جمال محمد عبد الكريم ، ١٩٨٦ ، ٤٤٨ صفحة . ماجستير .

٢٧ - تفسير غريب ما فى الصحيحين لأبى عبد الله محمد بن فتوح الحميرى [ت ٤٨٨ هـ] : تحقيق ودراسة من أول مسند أبى هريرة حتى آخر مسند النساء - نور حامد محمد الشاذلى ، ١٩٨٩ ، ١٠٨٧ صفحة . ماجستير .

٢٨ - التقريب فى علم الغريب لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول من مادة «أب» إلى آخر مادة «روى» - محمد علام محمد ، ١٩٨٤ ، ٨٧٠ صفحة . ماجستير .

٢٩ - التقريب فى علم الغريب لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى من مادة «ريب» إلى آخر مادة «فوم» - سيد أحمد على الصاوى ، ١٩٨٤ ، ٨٥٥ صفحة . ماجستير .

٣٠ - التقريب فى علم الغريب لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثالث - محمود عبد الله محمد عبد الله ، ١٩٨٠ ، ٩٣٧ صفحة . ماجستير .

٣١ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - صلاح صالح أحمد عطية ، ١٩٨٤ ، ٦٣٠ صفحة . دكتوراه .

٣٢ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى - جاسب فالح حسن الربيعى ، ١٩٨٤ ، ١٣٦١ صفحة . دكتوراه .

٣٣ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «صأصأ» إلى مادة «عجو» - عبد التواب مرسى حسن الأكرت ، ١٩٨٧ ، ٥٦٨ صفحة . ماجستير .

٣٤ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة من مادة «عدد» إلى مادة «علا» - ناصر محمد أبوزيد ، ١٩٨٧ ، ٥٤٦ صفحة . ماجستير .

٣٥ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الرابع من مادة «فحل» إلى آخر مادة «كفر» - محمد علام محمد ، ١٩٨٨ ، ٩٧٩ صفحة . دكتوراه .

٣٦ - تهذيب المطالع لترغيب المطالع فى غريب الحديث وتقييده لابن خطيب الدهشة [ت ٨٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأخير - جمال الدين قبيص عبد اللاه ، ١٩٨٧ ، ٥٣٢ صفحة . ماجستير .

٣٧ - التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد بن عبد الرؤوف المناوى [ت ١٠٣١ هـ] : تحقيق ودراسة - محمد السيد عطية السيد ، ١٩٨٤ ، ٧٩٥ صفحة . دكتوراه .

٣٨ - الجامع لأراء روضة الحفاظ بتهذيب الألفاظ فى اختلاف القراء الخمسة عشر للعلامة موسى بن الحسين بن إسماعيل المعروف بالمعدل المصرى [ت ٥٠٠ هـ] : تحقيق ودراسة عبد الحكيم حسين عبد الرحمن ، ١٩٨٩ ، ١٥٣٤ صفحة . دكتوراه .

٣٩ - المجلس الأنيس فى تحريم الخندريس للفيروزآبادى [ت ٨١٧ هـ] : تحقيق ودراسة الجز الثانى - السيد شرف أحمد السيد ، ١٤٠٥ هـ ، ٣٧٣ صفحة . ماجستير .

٤٠ - درر الأفكار فى النهج المختار فى القراءات العشر للشيخ محمد بن أحمد الحوفى : تحقيق ودراسة - السيد شرف أحمد السيد . ١٩٩٠ ، ١٢٦٧ صفحة . دكتوراه .

٤١ - الدرة الفريدة فى شرح القصيدة لحسين بن أبى الفرات بن الرشيد الهمذاني [ت ٦٤٣هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى من أول سورة البقرة إلى نهاية سورة الكهف - عبدالتواب مرسى حسن ، ١٩٩١ ، ١٣٣٢ صفحة . دكتوراه .

٤٢ - الدرة الفريدة فى شرح القصيدة لحسين بن أبى الفرات بن الرشيد الهمذاني [ت ٦٤٣هـ] : تحقيق - محمود محمد حفى الشرقاوى ، ١٩٩٣ ، ٤٤٤ صفحة . دكتوراه .

- الدر المبثثة فى الغرر المثلثة للفيروزآبادى : تحقيق ودراسة : محمد على الحاج عبد الكريم ، ١٩٧٨ ، ٣٨٦ صفحة . ماجستير .

٤٣ - الدر النثير والعذب النمير فى شرح التفسير لأبى عمرو الدانى [ت ٤٤٤هـ] : تأليف : عبد الواحد بن محمد الملقى [ت ٧٠٥هـ] : تحقيق ودراسة - حسن سيد فرغلى ، ١٩٨٩ ، ١١٤٥ صفحة . دكتوراه .

٤٤ - ديوان جميل بثينة : تحقيق - عبد الغنى عبد الله إبراهيم ، ١٩٨٨ ، ٤٦٧ صفحة ماجستير .

٤٥ - الراموز فى اللغة العربية للشريف الأدرنوى السيد محمد بن السيد حسن حسام الدين بن السيد على [٨٦٦هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - الموافق الرفاعى البيللى ، ١٩٨٢ ، ١٠٨٧ صفحة . دكتوراه .

٤٦ - الراموز فى اللغة العربية للشريف الأدرنوى السيد محمد بن السيد حسن حسام الدين بن السيد على [٨٦٦هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى - محمد عبدالحفيظ على العريان ، ١٩٨١ ، ١٠٢٣ صفحة . دكتوراه .

٤٧ - الراموز فى اللغة العربية للشريف الأدرنوى السيد محمد بن السيد حسن حسام الدين بن السيد على [٨٦٦هـ] : تحقيق الجزء الثالث مع دراسة عن حياة مؤلفه السيد محمد حسن بن السيد حسن - محمد على الحاج عبد الكريم ، ١٩٨١ ، ١٥٩٥ صفحة . دكتوراه .

٤٨ - الرسائل اللغوية لأبى عمر الزاهد : تحقيق ودراسة - صلاح صالح أحمد عطية ، ١٩٨٠ ، ٣٩٢ صفحة . ماجستير .

٤٩ - الزاهر فى غريب ألفاظ للإمام الشافعى الموجودة فى مختصر أبى منصور الأزهرى : تحقيق ودراسة - عبد المنعم طوى الشتانى ، ١٩٧٩ ، ٨٨٢ صفحة . دكتوراه .

- ٥٠ - الزاهر فى معانى الكلام الذى يستعمله الناس للزجاجى : تحقيق ودراسة - سعيد عبد الخالق إبراهيم ، ١٩٨٣ ، ٧٩٤ صفحة . ماجستير .
- ٥١ - شرح درة الغواص لشهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن عمر المصرى [ت ١٠٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة - محمد رياض السيد كريم ، ١٩٨٧ ، ٩٩٥ صفحة . دكتوراه .
- ٥٢ - الدرة الفريدة فى شرح القصيدة (حرز الأمانى ووجه التهانى . لأبى القاسم الهمذانى الشاطبى) [ت ٦٤٣ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثانى منه من أول سورة مريم إلى آخر سورة الناس ضمن دراسة بعنوان (الظواهر اللفظية فى كتاب شرح الدرة الفريدة) - أحمد محمود عمر الشيخ ، ١٩٩٩ ، ٤٩٤ صفحة ، دكتوراه .
- ٥٣ - الشمعة المضيئة بنشر قراءات السبعة المرضية لسبط الناصر الطبلاوى : تحقيق ودراسة - على سيد أحمد ، ١٩٨٩ ، ٩٤٣ صفحة . دكتوراه .
- ٥٤ - عقد الخلاص فى نقد كلام الخواص لرضى الدين بن الحنبلى : تحقيق ودراسة ، فتحى أنور عبد المجيد الداوبلى ، ١٩٨٠ ، ٣٩٣ صفحة ، ماجستير .
- ٥٥ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي [ت ٧٥٦ هـ] وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الأول - محمد محمد حسن ، ١٩٨٧ ، ٥٥٣ صفحة . ماجستير .
- ٥٦ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي [ت ٧٥٦ هـ] : وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الثانى من باب «الخاء» إلى باب «الصاد» - محمد عزب أحمد الضاوى ، ١٩٨٢ ، ١١١٤ صفحة . ماجستير .
- ٥٧ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي [ت ٧٥٦ هـ] : وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الثالث من باب «الصاد» إلى آخر باب «القاف» - عبد الحكيم حسين عبد الرحمن ، ١٩٨٥ ، ٩٦٧ صفحة ، ماجستير .
- ٥٨ - عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للعلامة أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي [ت ٧٥٦ هـ] : وهو معجم فى شرح ألفاظ القرآن الكريم : تحقيق ودراسة الجزء الرابع من باب «الكاف» إلى آخر حروف الهجاء - محمد عبد الغنى عثماوى ، ١٩٨٩ ، ١٠٤٧ صفحة ، ماجستير .

٥٩ - عنوان المسرة بشرح محاسن الدرة لزين بن أحمد بن زيد الصياد المرصفي [ت ١٣٠٠ هـ] : تحقيق ودراسة من أوله إلى قوله «وهناك أشياء تختلف أسماؤها باختلاف أصنافها» - مسعد عبد الحارس محمد ، ١٩٩٠ ، ٥٥٥ صفحة .

٦٠ - غوامض الصحاح لأبي الصفاء صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي [ت ٧٦٤ هـ] : تحقيق ودراسة - أحمد أبو اليزيد علي ، ١٩٨٤ ، ٣١٥ صفحة ، ماجستير .

٦١ - قصد السبيل فيما وقع في اللغة العربية من الدخيل : لمحمد أمين بن فضل الله المحبى [ت ١١١١ هـ] - أحمد عبد المجيد عطية ، ١٩٨٨ ، ٤٠٩ صفحة . ماجستير .

٦٢ - قنصة الأريب في تفسير الغريب لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن محمد بن قدامة المقدسى [ت ٦٢٠ هـ] : تحقيق ودراسة - حلمي السيد محمود ، ١٩٨٥ ، ٧٣٠ صفحة . ماجستير .

٦٣ - كنز المعاني في شرح الأمانى ووجه التهاني للجعبرى [٧٣٢ هـ] : من أول الكتاب حتى باب فرش الحروف ، تحقيق ودراسة - صلاح الدين سلطان عبد الرحمن ، ١٩٩٣ ، ١٢١٩ ص . دكتوراه .

٦٤ - كنز المعاني في شرح الأمانى ووجه التهاني للجعبرى [٧٣٢ هـ] : تحقيق من أول الصافات إلى آخر الكتاب - أحمد المرضي سيد أحمد ، ٢٠٠٠ م ، ٧٢٣ صفحة . ماجستير .

٦٥ - اللالكى الفريدة في شرح القصيدة لأبي عبد الله محمد بن الحسن الفاسى [ت ٦٥٦ هـ] : تحقيق الجزء الأول منه من أوله حتى باب سر الحروف - مصطفى أمين أحمد سيد ، ١٩٩٢ ، ١٢٤٩ صفحة ، دكتوراه .

٦٦ - اللالكى الفريدة في شرح القصيدة لأبي عبد الله محمد بن الحسن الفاسى [ت ٦٥٦ هـ] : تحقيق ودراسة - جمال الدين قبيص عبد اللاه ، ١٩٩٣ ، ١١٦٦ صفحة ، دكتوراه .

٦٧ - اللباب في علم الكتاب لأبي حفص الدمشقى : تحقيق ودراسة من أول سورة العنكبوت إلى آخر سورة القمر - محمد المتولى الدسوقي حرب ، ١٩٩٢ ، دكتوراه .

٦٨ - اللفظ المستغرب من شواهد المذهب لأبي عبد الله محمد بن علي بن أبي علي القلعى [ت ٦٣٠ هـ] : تحقيق ودراسة مع مقدمة في دراسة أهم المصنفات في الفقه - مصطفى عبدا لحفيظ علي سالم ، ١٩٨٠ ، ٥٧٥ صفحة ، ماجستير .

- ٦٩ - المثلث المختلف المعنى للفيروزآبادي [ت ٨١٧ هـ] : تحقيق ودراسة - عبد الجليل مفتاظ عودة التميمي ، ١٩٨١ ، ٥٢٥ صفحة ، ماجستير .
- ٧٠ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول منه من أوله إلى آخر باب الباء - كمال حسين أحمد عيد ، ١٩٩٢ ، ١٧٥٨ صفحة . دكتوراه .
- ٧١ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق ما يبدأ من أول التاء إلى آخر باب الحاء ضمن دراسة بعنوان (الاشتقاق ومناسبة الألفاظ للمعاني) - عبدالرؤوف كامل على عبيد ، ١٩٩٤ ، ١١٨٩ صفحة . دكتوراه .
- ٧٢ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق ما يبدأ بفصل السين من باب العين إلى آخر باب الفاء ضمن دراسة بعنوان (الظواهر اللهجية) - محمد عبدالغنى ع شماوى جاب الله ، ١٩٩٤ ، ١٢٧٨ صفحة . دكتوراه .
- ٧٤ - مجمع البحرين ومطلع البدرين لأبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني [ت ٦٥٠ هـ] : تحقيق أبواب «القاف والكاف واللام» إلى آخر الكتاب ضمن دراسة بعنوان (النظام المعجمي في معجم مجمع البحرين ومطلع البدرين) - محمد أحمد صالح ، ١٩٩٤ ، ١١٨٢ صفحة . دكتوراه .
- ٧٥ - مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه : تحقيق ودراسة ضمن دراسة بعنوان (القضايا اللغوية عند ابن خالويه) - إبراهيم البسيوني الصعيدى ، ١٩٩٤ ، ٧٨٦ صفحة . دكتوراه .
- ٧٦ - المسائل المنشورة لأبي على الفارسي : تحقيق - سيد أحمد بخيت ، ١٩٨٠ ، ٢٨٢ صفحة . ماجستير .
- ٧٧ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار في فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى وإيضاح مبهم لغاتها (في غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف الحميري الأندلسي ، [ت ٥٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة ابتداء من «الذال مع الهمزة» إلى «العين مع الصاد» - حسن سيد فرغلي ، ١٩٨٥ ، ٩٤٦ ص ، ماجستير .
- ٧٨ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار في فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى وإيضاح مبهم لغاتها (في غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف

الحميرى الأندلسى ، [ت ٥٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة من أول حرف «الجيم» إلى أول حرف «الدال» - مصطفى محمد على عبد الوهاب ، ١٩٨٩ ، ١٠٤٣ صفحة . ماجستير .

٧٩ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار فى فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى وإيضاح مبهم لغاتها (فى غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف الحميرى الأندلسى ، [ت ٥٦٩ هـ] : من أول حرف العين مع «الصاد» حتى أول حرف «السين مع الهمزة» - أحمد محمود محمد ، ١٩٨٨ ، ٥٥٥ صفحة . ماجستير .

٨٠ - مطالع الأنوار على صحاح الآثار فى فتح ما استغلق من كتب الموطأ ومسلم والبخارى ، إيضاح مبهم لغاتها (فى غريب الحديث) لابن فرقول إبراهيم بن يوسف الحميرى الأندلسى ، [ت ٥٦٩ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأخير من أول حرف «السين مع الهمزة» حتى نهاية الكتاب - خلف السيد رضوان ، ١٩٨٩ ، ٧٧٨ صفحة . ماجستير .

٨١ - المعرب للجواليقى : تحقيق الألفاظ الواردة المعربة والداخلية ضمن دراسة بعنوان (المعرب والدخيل فى اللغة العربية) - عبد الرحيم عيد السجان ، ١٩٧٧ ، ٦٨١ صفحة . دكتوراه .

٨٢ - المقصد النافع لبغية الناشئ والبارع فى شرح درر المقصد النافع لبقية اللوامع لمحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز [٧١٨ هـ] تحقيق ودراسة - عبد الهادى أحمد محمد السلمون ، ١٩٩١ ، ٨٧١ ص . دكتوراه .

٨٣ - الموضح لمذاهب القراء واختلافهم فى الفتح والإمالة للإمام الحافظ أبى عمرو المغربى عثمان الدانى [ت ٤٤٤ هـ] : تحقيق ودراسة - جمال عبد الفتاح أبو العزم ، ١٩٨٩ ، ٥٤٠ ص . ماجستير .

٨٤ - موطئة الفصيح لموطأ الفصيح فى اللغة شرح العلامة أبى عبد الله محمد ابن الطيب [ت ١١٧٠ هـ] : على نظم الفصيح للعلامة مالك بن عبد الرحمن المعروف بابن المرحل [ت ٦٩٩ هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الأول - محمد عزت أحمد القناوى ، ١٩٨٥ ، ١١٢٩ صفحة . دكتوراه .

٨٥ - موطئة الفصيح لموطأ الفصيح فى اللغة شرح العلامة أبى عبد الله محمد ابن الطيب [ت ١١٧٠ هـ] : على نظم الفصيح للعلامة مالك بن عبد الرحمن

المعروف بابن المرحل [ت ٦٩٩هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثاني من باب المفتوح
أوله إلى باب المهموز - محمد محمد حسن البقرى ، ١٩٩٢ ، ١٠٥٤ صفحة .
دكتوراه .

٨٦ - موطئة الفصيح لموطأ الفصيح فى اللغة شرح العلامة أبى عبد الله محمد
ابن الطيب [ت ١١٧٠هـ] : على نظم الفصيح للعلامة مالك بن عبد الرحمن
المعروف بابن المرحل [ت ٦٩٩هـ] : تحقيق ودراسة الجزء الثالث من باب المهموز
إلى آخر الكتاب - عيسى السيد المرسى ، ١٩٩١ ، ٨٤٤ صفحة . دكتوراه .

٨٧ - نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى :
تحقيق ودراسة الجزء الأول - عيسى السيد المرسى ، ١٩٨٧ ، ٧٥٨ . ماجستير .

الأدب والنقد :

١- اختيار الممتع لعبد الكريم بن إبراهيم النهشلى : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (الأدب
فى ظلال الصنهاجيين) - محمد سلامة يوسف ، ١٩٧٦م ، ٢٦١ صفحة . دكتوراه .
٢- أدب ابن الوردى : تحقيق ودراسة - محمد مصطفى رضوان ، ١٩٨١م ، ١٠٦٧ صفحة .
دكتوراه .

٣- الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطى : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (الشمشاطى
وتحقيق كتابه الأنوار ومحاسن الأشعار) - عبد المحسن فراج سيف القحطاني ،
١٩٧٨م ، ١١٨٥ صفحة . دكتوراه .

٤- الأوائى لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى [ت نحو ٤٠٠هـ] : تحقيق
- محمد جميل أحمد غازى ، ١٩٧٦م ، ٧٤٨ صفحة . دكتوراه .

٥- الإيضاح فى شرح مقامات الحريرى للمطرزى : تحقيق ودراسة - شاكراًبو اليزيد
عبد الهادي ، ١٩٨٥م ، ١٧٧ صفحة . ماجستير .

٦- بديعية الفتح المبين فى مدح الأمين وشرحها لعائشة بنت أحمد الباعونية : تحقيق
ودراسة - عبد العزيز عبد السلام محمد مخلوف ، ١٩٨٧م ، ٥٥١ صفحة . ماجستير .

٧- الجليس الصالح الكافى والأنيس الناصح الشافى للمعافى بن زكريا النهروانى : تحقيق
الجزء الأول ضمن دراسة بعنوان (المعافى بن زكريا النهروانى وتحقيق الجزء الأول من
كتابه الجليس الصالح الكافى والأنيس الناصح الشافى) - محمد محمد مرسى
الخولى ، ١٩٧٢م ، ٦٠٥ صفحة . دكتوراه .

- ٨- حماسة أبي تمام : تحقيق مع دراسة لشروحها - عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، ١٩٧٧ م ، ١٤٧٧ صفحة . دكتوراه .
- ٩- ديوان أبي إسحاق الغزى [ت ٥٢٤هـ] : تحقيق ودراسة - عبد الرحمن محمد سالم ، ١٩٧٩ م ، ٩٦٥ صفحة . دكتوراه .
- ١٠- ديوان أبو الحسن على بن محمد التهامي : تحقيق ضمن دراسة بعنوان (أبو الحسن على بن محمد التهامي حياته وشعره وتحقيق ديوانه) - محمد بن عبد الرحمن الربيع ، ١٩٧٧ م ، ٣٢٢١ صفحة . دكتوراه .
- ١١- ديوان ابن دنييز : تحقيق ودراسة - محمود شاكر سعيد ، ١٩٨١ م ، ١٢٠١ صفحة . دكتوراه .
- ١٢- ديوان الزمخشري [ت ٥٣٨هـ] : تحقيق ودراسة لشعره - على عبد الله ، ١٩٧٩ م ، ١٠٢٨ صفحة . دكتوراه .
- ١٣- ديوان ابن سوار الإسرائيلي : تحقيق ودراسة لحياته وشعره - محمود إبراهيم مصطفى ، ١٩٧٧ م ، ٧١١ صفحة . دكتوراه .
- ١٤- ديوان أبو الفتح البستي : تحقيق ضمن دراسة بعنوان أبو الفتح البستي وتحقيق ديوان شعره - محمد محمد مرسى الخولى ، ١٩٦٩ م ، ٤٠٢ صفحة . ماجستير .
- ١٥- ديوان ابن المعلم : تحقيق ودراسة - مؤيد فاضل ملا رشيد ، ١٩٨٥ م ، ٨١٤ صفحة . دكتوراه .
- ١٦- ديوان أبو الوفاء راجح شرف الدين الحلبي : تحقيق - الدوكالى محمد نصر ، ١٩٧٩ م ، ٩٥١ صفحة . دكتوراه .
- ١٧- شرح الصولى لديوان أبي تمام : تحقيق ودراسة - خلف رشيد نعمان ، ١٩٧٦ م ، ٥٠١ صفحة . دكتوراه .
- ١٨- شعر قبيلة بنى سليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى : جمعا ودراسة ونقدا - زكريا عبد الحميد عبد الهادى ، ١٩٩٠ م ، ٦٦٨ صفحة . دكتوراه .
- ١٩- مجمع الأنوار فى شرح إظهار الأسرار للشيخ عمر العطار : تحقيق - سليم محمد سعيد ، ١٩٨٠ م ، ٥٩٣ صفحة . ماجستير .

قسم البلاغة والنقد :

- ١- الأقصى القريب فى علم البيان للتنوخى [ت٧٤٨هـ]: تحقيق ودراسة - أحمد مصطفى الخضراوى ، ١٩٧٩م ، ٤٤٤ صفحة . ماجستير .
- ٢- إيضاح الإيضاح لجمال الدين محمد بن محمد الأقسرائى [ت٧٧١هـ]: تحقيق ودراسة الجزء الأول الخاص بعلم المعانى - فتحى أحمد إسماعيل ، ١٩٨٧م ، ٦٤٢ صفحة . دكتوراه .
- ٣- التبيان فى البيان للإمام الطيبي [ت٧٤٣هـ]: تحقيق ودراسة - عبد الستار حسين مبروك ، ١٩٧٧م ، ٦٠٣ صفحة . ماجستير .
- ٤- التحريرات فى بيان أقسام الاستعارات للشيخ سعد الدين منصور الطيلاوى [ت١٠١٤هـ] تحقيق ودراسة - عبد الله رجب سالم ، ١٩٨٨م ، ٤٩٧ صفحة . ماجستير .
- ٥- تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى يحيى بن قاسم العلوى [ت٧٥٠هـ]: تحقيق ودراسة الجزء الأول - إبراهيم عبد الحميد ، ١٩٨١م ، ١٣٥٢ صفحة . دكتوراه .
- ٦- تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى يحيى بن قاسم العلوى [ت٧٥٠هـ]: تحقيق ودراسة الجزء الثانى - عبد الله محمد سليمان هنداوي ، ٥٦٧ صفحة . دكتوراه .
- ٧- تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف للفاضل اليمنى يحيى بن قاسم العلوى [ت٧٥٠هـ] تحقيق ودراسة الجزء الثالث - مصطفى السيد مصطفى ، ١٩٨٩م ، ١٦٤٩ صفحة . دكتوراه .
- ٨- تفسير ابن كمال باشا : تحقيق ودراسة الربع الأول ضمن دراسة بعنوان (البحث البلاغى فى تفسير ابن كمال باشا) - لطفى السيد صالح ، ١٩٨٧م ، ١٤١٠ صفحة . دكتوراه .
- ٩- تفسير ابن كمال باشا : تحقيق ودراسة من أول سورة الأعراف إلى آخر سورة الكهف ضمن دراسة بعنوان (المسائل البلاغية فى الربع الثانى من تفسير ابن كمال باشا) - محمد على هريدى ، ١٩٨٧م ، ٩٧٠ صفحة . دكتوراه .
- ١٠- تفسير ابن كمال باشا : تحقيق ودراسة من أول سورة مريم إلى آخر سورة النور ضمن دراسة بعنوان (المسائل البلاغية فى الربع الثالث من تفسير ابن كمال باشا) -

- عبدالحافظ محمد عبد الحافظ ، ١٩٨٥ م ، ٥٨٢ صفحة . ماجستير .
- ١١- التوصل بالبديع إلى التوصل بالشفيع ، صلى الله عليه وسلم ، للشيخ عز الدين علي ابن الحسين الموصلي [ت ٧٨٩هـ] : تحقيق ودراسة - الشحات عبد المنعم جمعة ، ١٩٨٩ م ، ٤٦٥ صفحة . ماجستير .
- ١٢- جامع العبارات في تحقيق الاستعارات لأبي العباس أحمد مصطفى الطرودي الحنفي التونسي [ت ١١٦٧هـ] : تحقيق ودراسة - محمد رمضان الحربي ، ١٩٧٨ م ، ٨٩٩ صفحة . دكتوراه .
- ١٣- حاشية البهلوان على تفسير الكشاف للزمخشري : تحقيق ودراسة الجزأين الأول والثاني — صبحي رشاد عبد الكريم ، ١٩٨٥ م ، ١٤٠٠ صفحة . دكتوراه .
- ١٤- حاشية البهلوان على تفسير الكشاف للزمخشري : تحقيق ودراسة من أول سورة النساء إلى آخر سورة الأنعام ضمن دراسة بعنوان (المسائل البلاغية في حاشية البهلوان) — عبد الله علي محمد حسن ، ١٩٨٧ م ، ٩٤٢ صفحة . دكتوراه .
- ١٥- حاشية الشيخ يوسف بن سالم الحفناوي على مختصر التفتازاني : تحقيق ودراسة — فرج كامل أحمد سليم ، ١٩٧٨ م ، ١١٣٢ صفحة . دكتوراه .
- ١٦- حاشية العلامة سعد الدين التفتازاني على تفسير الكشاف للزمخشري : تحقيق الجزء الأول — عبد الفتاح عيسى البربري ، ١٩٧٨ م ، ٩٩٩ صفحة . دكتوراه .
- ١٧- حاشية العلامة سعد الدين التفتازاني على تفسير الكشاف للزمخشري : تحقيق الجزء الثاني مع العرض و التحليل و النقد - فوزي السيد عبد ربه ، ١٩٧٩ م ، ١١٣٩ صفحة . دكتوراه .
- ١٨- حاشية قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي [ت ٧٦٦هـ] : على تفسير الكشاف : تحقيق ودراسة الجزء الأول - إبراهيم طه أحمد الجعلي ، ١٩٨١ م ، ١٢٧٢ صفحة . دكتوراه .
- ١٩- حاشية قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي [ت ٧٦٦هـ] : على تفسير الكشاف : تحقيق ودراسة الجزء الثاني — أيوب عبد العزيز أيوب ، ١٩٨١ م ، ١٥٦٦ صفحة . دكتوراه .
- ٢٠- حاشية كشف الكشاف على تفسير الكشاف للزمخشري للعلامة سراج الدين عمر بن عبد الرحمن الفارسي : تحقيق ودراسة الجزء الأول — محمد محمود عبد الله السلطان ، ١٩٨١ م ، ١٢٤٠ صفحة . دكتوراه .

- ٢١- حاشية كشف الكشاف على تفسير الكشاف للزمخشري للعلامة سراج الدين عمر بن عبد الرحمن الفارسي : تحقيق الجزء الثاني مع العرض والتحليل والنقد - محمد حمدي على عبد العاطي ، ١٩٨٩م ، ١٩٤٧ صفحة . دكتوراه .
- ٢٢- حدائق السحر في دقائق الشعر لرشيد الدين محمد العمري الكاتب البلخي المعروف بالوطواط [ت ٥٧٣هـ] : تحقيق ودراسة - إبراهيم على حسن داود ، ١٩٨١م ، ٦٧٦ صفحة . دكتوراه .
- ٢٣- درر العبادات وغرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات للعالم الفاضل أحمد بن مكى الحسنى الحموى [ت ١٠٩٨هـ] : تحقيق ودراسة - عبد الحكيم محمد إبراهيم ، ١٩٨٢م ، ٣٠٨ صفحة . ماجستير .
- ٢٤- الرسائل البلاغية لشمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا : تحقيق ودراسة - لطفى السيد صالح قنديل ، ١٩٨٣م ، ٤٥٩ صفحة . ماجستير .
- ٢٥- روضة الفصاحة لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر [ت ٦٦٠هـ] : تحقيق ودراسة - محمود محمد السيد حسن ، ١٩٨٣م ، ٤٤٣ صفحة . ماجستير .
- ٢٦- شرح التلخيص للشيخ أكمل الدين محمد بن محمد محمود بن أحمد البابر تى [ت ٧٨٦هـ] : تحقيق ودراسة - محمد مصطفى رمضان ، ١٩٧٩م ، ٧١٦ صفحة . دكتوراه .
- ٢٧- شرح المؤذنى لعلم المعانى من مفتاح العلوم : تحقيق ودراسة - سعد البسيونى سعيد ، ١٩٨٤م ، ٧٦٢ صفحة . دكتوراه .
- ٢٨- طراز الحلة وشفاء الغلة فى شرح بديعية ابن جابر للعلامة شهاب الدين أحمد ابن يوسف الغرناطى الأندلسى : تحقيق ودراسة القسم الثانى - العادلى محمد أحمد سليمان ، ١٩٨٥م ، ٧٤٥ صفحة . ماجستير .
- ٢٩- الغريب الجامع الرائع لابن المقرئ شرف الدين أبو محمد : تحقيق - عادل محمد الأكرت ، ١٩٨٧م ، ٣٠٣ صفحة . ماجستير .
- ٣٠- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى والمسمى علم المعانى فى تفسير القرآن الكريم : تحقيق - فتحى عبد الرحمن أحمد حجازى ، ١٩٩٤م ، ٧٢٦ صفحة . دكتوراه .
- ٣١- فتح منزل المثانى بشرح أقصى الأمانى فى علم البيان والبديع والمعانى لشيخ الإسلام أبى يحيى زكريا بن محمد بن أحمد الأنصارى : تحقيق ودراسة - محمد عبد الحلیم الجيلانى ، ١٩٨٧م ، ٥٤٧ صفحة . ماجستير .

- ٣٢- قانون البلاغة للشيخ العلامة فخر الدين أبو طاهر البغدادي : تحقيق ودراسة - أمان الله سيد أحمد ، ١٩٧٨م ، ١٦٣ صفحة . ماجستير .
- ٣٣- المصباح للسيد الشريف الجرجاني : تحقيق وعرض ونقد - فريد محمد بدوي ، ١٩٧٧م ، ١١٩٣ صفحة . دكتوراه .
- ٣٤- مفتاح تلخيص المفتاح للعلامة شمس الدين محمد بن مظفر الخطيبي الخلخاني : تحقيق ودراسة - هاشم محمد هاشم ، ١٩٨٠م ، ٨٨٨ صفحة . دكتوراه .
- ٣٥- المفتاح لسعد الدين التفتازاني : تحقيق ودراسة القسم الثالث ضمن دراسة بعنوان (بلاغة سعد الدين التفتازاني في كتابه المفتاح) - رأفت إسماعيل غانم ، ١٩٨٣م ، ١٤١٨ صفحة . دكتوراه .
- ٣٦- النتائج الألمعية في شرح الكافية البديعية لصفى الدين الحلبي : تحقيق ودراسة - فتحى أحمد إسماعيل حسن ، ١٩٨٣م ، ٣٥٢ صفحة . ماجستير .
- ٣٧- نحور الحور المقصورات على عقود السمرقندی في الاستعارات للعالم الفاضل محمد بن محمد البديري : تحقيق ودراسة - عبد الجواد محروس المطحنة ، ١٩٨٦م ، ٢٠٠ صفحة . ماجستير .

التاريخ والحضارة:

- ١ - إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى لشمس الدين الصنهاجى السيوطى : تحقيق ودراسة تاريخية - عبد الرحمن سعيد حمودة ، ١٩٨٧ ، ٤٥٩ صفحة . دكتوراه .
- ٢ - إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن لمحمد بن على بن فضل الطبرى [ت ١١٧٣هـ] : تحقيق الجزء الأول - محمد محسن سليم ، ١٩٨٤ ، ٥٨٢ صفحة . دكتوراه .
- ٣ - الأوراق لأبى بكر الصولى : تحقيق القطعة الثانية والتي تشتمل على الفترة التاريخية من ٢٩٥ إلى ٣١٨هـ - محمد نيسان سليمان مناع ، ١٩٧٩ ، ٦٤٢ صفحة . دكتوراه .
- ٤ - تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لتقى الدين عبد الرحمن المحبى : تحقيق - عبد الرحمن أمين صادق ، ١٩٧٩ ، ٤٩٠ صفحة . ماجستير .
- ٥ - التحفة الملوكية في الدولة التركية لبيرس المنصورى الدوادار . تحقيق ودراسة -

عبد الله إبراهيم محمد راجح ١٩٨٨، ٦٩٧ صفحة . دكتوراه .

٦ - شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب لأحمد بن إبراهيم بن نصر الله الحنبلى
القاهرى [ت ٨٧٦هـ] : تحقيق ودراسة - على عبد السلام محمد عيسى ، ١٩٩٠ ،
٦٤٩ صفحة ، دكتوراه .

٧ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى [ت ٨٥٥هـ] : تحقيق ودراسة الفترة من
٧٨٤ هـ إلى ٨٠١ هـ - محمد عبد الحميد راغب إبراهيم ، ١٩٨٩ ، ٦٨٤ صفحة .
دكتوراه .

٨ - عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى [ت ٨٥٥هـ] : تحقيق وتقديم ودراسة
الفترة من ٨٢٤ هـ إلى ٨٥٠ هـ - عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، ١٩٨٠ ، ٨٤٧
صفحة . دكتوراه .

٩ - عيون أخبار الرضا لمحمد بن على بن الحسين بن بابويه [ت ٣٨١ هـ] : تحقيق
ودراسة - عبد الله العلى السند ، ١٩٨٦ ، ٧٦٤ صفحة . دكتوراه .

١٠ - فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر لابن بهادر [ت ٨٧٧هـ] : تحقيق الفترة
التاريخية من ٥٦٣ هـ إلى ٦٥٢ هـ ضمن دراسة بعنوان (محمد بن بهادر وكتابه فتوح
النصر) - محسن سعد عبد الله ، ١٩٨٣ ، ٤٥٣ صفحة . ماجستير .

١١ - فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر لابن بهادر [٨٧٧هـ] : تحقيق دراسة الفترة من
٦٥٢ هـ إلى ٧٥١ هـ - سمير عبد الفتاح رزق خلف ، ١٩٩٠ ، ١٣٥٣ صفحة . دكتوراه .

١٢ - المقفى الكبير للمقرئى [ت ٨٤٥هـ] : تحقيق الجزء الأول ضمن دراسة بعنوان
(المقرئى مؤرخ مصر) - محمد أحمد عيسى عاشور ، ١٩٧٤ ، ٦٣٤ صفحة .
دكتوراه .

١٣ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى [ت ٥٩٧ هـ] : تحقيق الفترة
التاريخية ما بين حوادث ١٩٨ هـ إلى ٢٣٢ هـ - محمد الشيخ عبد الوهاب فضل ،
١٩٧٩ ، ٦٥٦ صفحة . دكتوراه .

من أخبار القرائة

من أخبار التراث

إعداد: حسام عبد الظاهر*

● ذكرنا في العدد السابق من تراثيات ، نقلاً عن بعض الكتابات الصحفية أن المحقق الكبير الدكتور إحسان عباس توفى يوم الإثنين ٢٨/٧/٢٠٠٣ م ، وقد قام الأستاذ عصام الشنطي خبير المخطوطات المعروف بضبط هذا التاريخ فذكر لنا أن صحيح وفاته هو الساعة السابعة مساء يوم الثلاثاء ٢٩ يوليو ٢٠٠٣ ، الموافق ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٤٢٤هـ في عمان بالأردن ، ولذا لزم التنويه مع خالص الشكر للأستاذ الشنطي ، متعه الله بالصحة والعافية .

● خلال شهر يناير الماضي وصلنا البيان الخاص بجائزة مجمع اللغة العربية في تحقيق التراث العربى لسنة ٢٠٠٣/٢٠٠٤ . وهى جائزة سنوية قيمتها ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف جنيه مصرى) تمنح لأجود نص منشور يقدم إليها من التراث العربى ، يُنشر لأول مرة منحقاً تحقيقاً منهجياً وذلك بالشروط الآتية :

١ - أن يكون العمل المقدم فى متن اللغة العربية ، أو فى فقهها ، أو فى نص من نصوصها الأدبية شعراً أو نثراً ، وأن يكون النص المحقق كاملاً إلا إذا لم يكن موجوداً منه إلا العمل المقدم .

٢ - تعد النصوص من التراث العربى إذا كانت مؤلفة قبل نهاية القرن الثانى عشر الهجرى .

٣ - ألا يقل النص المحقق عن عشرين ملزمة ، من ذات الست عشرة صفحة ، ولا تحسب فيها المقدمة ولا الفهارس .

٤ - ألا يكون العمل المقدم قد سبق تحقيقه ونشره من قبل تحقيقاً منهجياً .

٥ - ألا يكون النص المحقق من منشورات مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

٦ - ألا يكون النص المقدم للجائزة قد نال جائزة من قبل من أية جهة .

٧ - يجوز أن يكون العمل المقدم من تحقيق فرد أو أكثر ، كما يجوز أن يشارك المحقق أو المحققين - مراجع أو أكثر .

٨ - ألا يكون العمل المقدم قد مضى على نشره - أو نشر آخر أجزائه إذا كان ذا أجزاء - أكثر من خمس سنوات .

(★) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية .

- ٩ - أن يكون العمل المقدم جيد الطباعة ، حسن الإخراج .
- ١٠ - أن يقدم المتسابق سبع نسخ من العمل المحقق إلى المجمع باسم الدكتور (الأمين العام للمجمع) وليس له الحق فى استردادها .
- ١١ - باب المسابقة مفتوح للمحققين المصريين وغيرهم .

● وفى يوم الثلاثاء ٢٠ يناير ٢٠٠٤م عقد مركز تحقيق التراث ندوته الخامسة فى موسمها الثقافى هذا العام ، ودارت حول أحد رواد تحقيق التراث التاريخى وهو المؤرخ (عزيز سوريال عطية) . وقد تحدث فى الندوة : الأستاذ نسيم مجلى ، والذي ألقى ورقة بعنوان (الدكتور عزيز سوريال عطية ودوره فى تحقيق المخطوطات) . كما تحدث الدكتور عماد أبو غازى عن وثائق دير سانت كاترين ، والتي قام الدكتور سوريال عطية بفهرستها . وقد أدار الندوة الدكتور حسنين محمد ربيع والذي شارك أيضاً فى الحديث عن المُحتفى به بورقة عنوانها (سطور من حياة المؤرخ الجليل الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية) . وعلى هامش الندوة قامت الإدارة المنظمة بتوزيع كتيب بعنوان (المؤرخ المصرى عزيز سوريال عطية ١٨٩٨ - ١٩٨٨م) قام بإعداده أحد باحثى مركز تحقيق التراث ؛ وهو يضم موجزاً لحياة عزيز سوريال عطية وبيلوجرافيا بمؤلفاته وتحقيقاته ومختارات من كتاباته .

- وفى الفترة من السبت ٢٤ يناير إلى الخميس ٢٩ يناير ٢٠٠٤م عُقدت الدورة التدريبية وورشة العمل فى مجال التفكير العلمى وتاريخ العلوم ، وذلك بالتعاون بين مركز دراسات التراث العلمى بجامعة القاهرة ، ومركز تاريخ العلوم والإبستمولوجيا بجامعة ليل بفرنسا ، ومن أهم الأوراق المقدمة فى هذه الدورة :
- أهمية التراث العلمى ، للدكتور أحمد فؤاد باشا .
 - علم المخطوطات ، للدكتور أيمن فؤاد سيد .
 - تاريخ علوم النبات والزراعة ، للدكتور كمال الدين البتانونى .
 - مناهج التاريخ وتاريخ العلوم ، للدكتور حسنين ربيع .
 - تاريخ نظريات الضوء من الفترة العربية إلى القرن العشرين الأوروبى ، للدكتور برنارميت .
 - تاريخ علم الجبر الكلاسيكى ، للدكتور أحمد جبار .
 - مناهج تحقيق التراث ، للدكتور حسين نصار ، والدكتور أيمن فؤاد سيد .

ومن ورش العمل فى هذه الدورة التدريبية :

- ورشة عن (فهرسة المخطوطات) بإدارة الدكتور عبد الستار الحلوجى .
- ورشة عن (ترجمة مصطلحات التراث العلمى) بإدارة الدكتور برنارميت والدكتور أحمد جبار .
- ورشة عن (الخط العربى وفنون كتابة المخطوطات) بإدارة الدكتور عبد الفتاح غنيمه .
- وفى يوم الخميس ١٢ فبراير ٢٠٠٤م وفى إطار فعاليات سيمينار التاريخ الإسلامى والوسيط بجامعة عين شمس ، ألقى الدكتور عبد الحميد حمودة بحثاً عن (عقوبة التشهير أو التجريس فى مدينة القاهرة زمن الفاطميين) .
- وفى يوم الثلاثاء ١٧ فبراير ٢٠٠٤م عُقدت ندوة (صلاح الدين المنجد) وذلك ضمن ندوات الموسم الثقافى الثالث لمركز تحقيق التراث ، وقد تحدث فى الندوة الدكتور فيصل الحفیان بكلمة عنوانها (صلاح الدين المنجد فارس لم يترجل يوماً) ، كما تحدث الأستاذ عصام الشنطى عن (جهود المنجد فى خدمة التراث) . وأدار الندوة الدكتور عبد الستار الحلوجى . وقد شارك المركز فى هذا الاحتفاء العلمى - بجانب تنظيمه للندوة - بطبع كتيب تعريفى بعنوان (سندباد المخطوطات صلاح الدين المنجد) قام بإعداده أحد باحثى المركز ، وتم توزيعه على الجمهور فى الندوة .
- وفى يوم الخميس ١٩ فبراير ٢٠٠٤م وفى إطار سيمينار التاريخ العثمانى بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ألقى عدة بحوث منها :
 - السيرة الذاتية الصوفية ورؤيتها لعلاقة الفرد بالمجتمع فى القرن السادس عشر (فى ضوء كتاب لطائف المنن للشعرانى) ، للدكتور سامى سليمان .
 - الفرد والفلك فى القرن الثامن عشر (رضوان أفندى الفلكى) ، للدكتور صبرى العدل .
- وخلال الفترة من بداية شهر مارس إلى منتصف شهر إبريل ٢٠٠٤م قام المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة بتنظيم معرض (عندما تكلم العلم بالعربية) ، باللغتين العربية والفرنسية ، وهو يتكون من لوحات تقديم وتجارب علمية وصور لمقتنيات وأثار تتحدث عن العلم العربى فى القرون الوسطى .
- وفى يوم الأربعاء ٣ مارس ٢٠٠٤م عُقدت الجلسة الرابعة لسيمينار التاريخ الإسلامى والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية وألقى فيها بحثان هما :
 - الوليد بن عقبة بن أبى معيط والى الكوفة المفترى عليه ، للدكتور أحمد عبد اللطيف .
 - الخلع فى الأندلس ، للدكتورة ناريمان عبد الكريم .

- وفى يوم الثلاثاء ٩ مارس ٢٠٠٤م قام المعهد الثقافى الإيطالى بالقاهرة بتنظيم لقاء مع الدكتور جوزيبي سكاتولين حول موضوع (الشعر الصوفى لعمر بن الفارض الملقب بأمير العشاق) كما تم عرض فيلم تسجيلى وثائقى عن الشاعر والاحتفالات به فى مصر .
- وفى يوم الثلاثاء ١٦ مارس ٢٠٠٤م واصل مركز تحقيق التراث احتفالياته بشوامخ المحققين فعقد ندوة عن المستشرق الألمانى (جوستاف فلوجل) تحدث فيها الدكتور عفت الشرقاوى عن (فلوجل بين المستشرقين) ، كما تحدث الدكتور محمد عونى عبد الرؤوف عن تحقيق فلوجل لكتاب الفهرست لابن النديم . أدار الندوة الدكتور عبد الستار الحلوجى .
- وفى نفس اليوم [١٦ مارس] نظمت جمعية المكتبات والمعلومات بالسعودية بالتعاون مع مكتبة الملك فهد الوطنية ضمن أنشطتها الثقافية لهذا العام محاضرة بعنوان (التوثيق والتزوير فى المخطوطات والوثائق) ألقاها الدكتور قاسم السامرائى .
- وفى يوم الخميس ١٨ مارس ٢٠٠٤م ألقى الدكتور ناريمن عبد الكريم بحثاً بعنوان (الخلع فى مصر الفاطمية) وذلك ضمن فعاليات سيمانار التاريخ الإسلامى والوسيط بجامعة عين شمس ، وأدار اللقاء الدكتور محمد مؤنس عوض .
- وفى يوم الأحد ٢١ مارس ٢٠٠٤م بالسعودية تم تنظيم حفل تسليم جائزة الملك فيصل العالمية السادسة والعشرين لعام ١٤٢٤هـ للفائزين بها بفروعها المختلفة : خدمة الإسلام ، والدراسات الإسلامية ، والأدب العربى ، والعلوم ، والطب . ومن الجدير بالذكر أن جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية ، وموضوعها هذا العام (الدراسات التى عنيت بالقواعد الفقهية) فاز بها مناصفة الدكتور على أحمد غلام ندوى (الهندي الجنسية) تقديراً لجهوده القيمة فى استخراج القواعد الفقهية فى المعاملات المالية من المصادر الأصيلة وربطها بالحاضر المعاصر بصورة تفصيلية مبتكرة . والدكتور يعقوب عبد الوهاب الباحسين (السعودى الجنسية) لجهوده فى مجال القواعد الفقهية وما اتسمت به كتاباته من تأصيل وتجديد .
- أما جائزة الملك فيصل للغة العربية والأدب ، وموضوعها هذا العام : (الدراسات التى تناولت التدوين اللغوى إلى نهاية القرن الخامس الهجرى) فقد فاز بها الدكتور حسين محمد نصار (المصرى الجنسية) تقديراً لإسهامه العلمى الرائد فى مجال الدراسات المعجمية ، وما

تميزت به كتاباته من غزارة العلم ، وسعة الاطلاع ، والنظرة الشمولية لتطور التدوين اللغوى عامة والمعجم العربى على نحو خاص .

● وخلال شهر مارس قام مركز تحقيق التراث بإصدار أعمال الموسمين الثقافيين الأول والثانى فى مجلد خاص ، قام بالتقديم له الدكتور حسين نصار المستشار العلمى للمركز . وقد ضم هذا المجلد الأبحاث التى قدمت فى احتفاليات الشوامخ وهى :

- أحمد تيمور باشا ، للدكتور حسين نصار .
- الخزانة التيمورية ، للدكتور محمد فتحى عبد الهادى .
- الأستاذ عبد السلام هارون (نظرات فى حياته وأعماله) للدكتور على أبو المكارم .
- محمود محمد شاكر وجهوده فى تحقيق التراث ، للدكتور محمود على مكى .
- الدكتور محمد مصطفى زيادة ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
- محمد مصطفى زيادة (منهج تحقيق التراث التاريخى) ، للدكتور حسنين محمد ربيع .
- أحمد زكى باشا شيخ العروبة ، للدكتور حسين نصار .
- الخزانة الزكية ، للدكتور محمد فتحى عبد الهادى .
- بنت الشاطىء ، للدكتور حسن جبر .
- جهود الشيخ أحمد محمد شاكر فى تحقيق التراث الإسلامى ، للدكتور محمد إبراهيم عبد الرحمن .
- المستشرق أنطونى بيقان ، للدكتور محمد عونى عبد الرؤوف .
- من شوامخ المحققين الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، للدكتور حسنين محمد ربيع .

- السيد أحمد صقر ومنهجه فى التحقيق ، للدكتور عادل سليمان .

● وفى خلال هذا الشهر [مارس ٢٠٠٤] أعلنت المنظمة العربية للتنمية الإدارية عن طرح موسوعة ضخمة توثق أسس ومبادئ الإدارة العربية والإسلامية عبر ٤٢٥٠ صفحة فى ٧ مجلدات تجمع أسس الإدارة العربية الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ وحتى سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م . وقد تم إعداد الموسوعة بمشاركة ٣٤ خبيراً عربياً وإسلامياً .

● فى الأسبوع الأول من شهر إبريل ٢٠٠٤م بدأ التشغيل التجريبى لموقع اليونسكو الجديد على شبكة الإنترنت ، الخاص بالتراث العربى ، تحت اسم :

www. Unesco - Cairo. Org/Adhpotal

www. Arabic - Heritage. Com

ويمكن الوصول إليه أيضاً بعنوان :

Arabcivilization. Com

أو بعنوان :

ويشتمل هذا الموقع على مئات الصفحات التي تعكس الأفق الحضارى للثقافة العربية الإسلامية ، من خلال أبواب مثل : القباب والمآذن ، مشاهد من مدن الإسلام ، الخريطة التراثية للمخطوطات فى العالم - وهى خريطة يمكن من خلالها التعرف على كنوز التراث العربى فى ١٦ مدينة كبرى بالعالم ، بالإضافة إلى عدة أبواب ومداخل منها محرك بحث عن المخطوطات ، ويمكن من خلاله الوصول إلى البيانات الوصفية الكاملة لأكثر من خمسة آلاف مخطوطا نادر . ويعمل الموقع باللغتين العربية والانجليزية . وقد قام بإنشاء هذا الموقع بتكليف من اليونسكو الدكتور يوسف زيدان خبير المخطوطات المعروف .

● وفى يوم الإثنين ٥ إبريل ٢٠٠٤م عُقدت ندوة عن (الدكتور محمد سليم سالم ١٩٠٤ - ١٩٩٣م) بكلية الآداب - جامعة عين شمس ، ومن الأوراق المرتبطة بالتراث العربى والتي قدمت فى هذه الندوة :

- التراث والإنسان ، للدكتورة عليّة حنفى .

- تحقيق التراث العربى اليونانى (الدكتور محمد سليم سالم نموذجاً) ، لحسام عبد الظاهر الباحث بمركز تحقيق التراث .

● وفى يومى السبت والأحد ١٧ و١٨ إبريل ٢٠٠٤م نظمت مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية (بالمغرب) مؤتمراً بعنوان (العلم فى المجتمعات الإسلامية ، الاتجاهات والمنظور المستقبلى) ، شارك فيه نخبة من الباحثين من دول مختلفة . وقد علمنا أن الدكتور يوسف زيدان شارك فى هذا المؤتمر ببحث عنوانه (الطرد المغربى للعلم العربى فى القرنين السابع والثامن الهجريين) يركز فيه على الأثر الذى أحدثته هجرة العلماء من المغرب إلى منطقة الشام وكيف أثروا فى العلم العربى .

● وفى الفترة ١٨ - ٢٠ إبريل ٢٠٠٤م نظمت جامعة حلوان بالتعاون مع جامعة الصداقة بموسكو مؤتمراً عن (ظاهرة العنف وانتشار الإرهاب) ومن الأبحاث التراثية المقدمة فى هذا المؤتمر :

- الكتب المقدسة والعنف فى التاريخ ، للدكتورة أولجا أندرييفا .
- المرأة والعنف فى الدولة الأموية ، للدكتور نعمة على مرسى .
- الإرهاب فى العصر الأموى فى الأندلس ، للدكتور صلاح خليل .
- الإرهاب فى الدولة الفاطمية ، للدكتور أحمد التونى .
- تصوير العنف فى الفن الإسلامى ، للدكتور رفعت موسى .

● وفى يوم الثلاثاء ٢٠ إبريل ٢٠٠٤م نظم مركز تحقيق التراث بالتعاون مع دار الكتب والوثائق القومية - فى إطار موسمه الثقافى - احتفالية ضخمة بالدكتور حسين نصار - المشرف العلمى لمركز تحقيق التراث - بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية فى اللغة والأدب . وعقدت الندوة بقاعة الاحتفالات الكبرى بدار الكتب والوثائق القومية . وقد شارك فى هذه الاحتفالية كثير من الأساتذة الدكاترة سواء بالتحديث أو الحضور . وممن شارك فى الحديث عن الدكتور نصار : الأساتذة الدكاترة أحمد مرسى ، ورفعت هلال ، وجابر عصفور ، وعبد الستار الحلوجى ، وكمال البتانونى ، وعفت الشرقاوى ، وحسين ربيع ، ومحمد عونى عبد الرؤوف ، وسيد البحراوى ، ووفاء كامل ، وعبد الحكيم راضى ، وسيدة حامد عبد العال . . . وغيرهم ، وممن تحدث من باحثى مركز تحقيق التراث الأستاذين مرزوق على إبراهيم ، وعشرى محمد على . وقام مركز تحقيق التراث بإعداد طبعة خاصة بالاحتفالية لكتابين من تحقيق الدكتور نصار وهما : العاقل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى ، وكتاب النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة لابن سعيد ، وقام بالتقديم للكتابين الدكتور أحمد مرسى رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية . كما قام ثلاثة من باحثى المركز بإعداد كتاب عنوانه (الأستاذ الدكتور حسين نصار ببليوجرافية بأعماله ومختارات من كتاباته) تم إهداؤه لجمهور الاحتفالية . وعلى هامش الاحتفالية نظم مركز تحقيق التراث معرضاً لكتب الدكتور حسين نصار بدار الكتب . وفى نهاية الاحتفالية أهدى العاملون بدار الكتب هدية تذكارية للدكتور نصار اعترافاً منهم بدوره فى النهوض بمركز تحقيق التراث بدار الكتب .

● فى يومى الثلاثاء والأربعاء ٢٠ - ٢١ إبريل ٢٠٠٤ ، نظمت كلية دار العلوم بجامعة القاهرة مؤتمرها الدولى التاسع للفلسفة الإسلامية والذى دار هذا العام عن (علم الكلام بين التقليد والتجديد) ، وقد شارك فى المؤتمر باحثون من مصر والسودان ، وليبيا ، والسعودية ، والكويت ، وقطر ، والإمارات ، وماليزيا . ومن الأبحاث المقدمة فى المؤتمر :

- نحو علم كلام جديد (القضايا والمنهج) ، للدكتور محمد السيد الجليند .
- مكانة العقل فى علم الكلام ، للدكتور محمد المسير .
- القرآن الكريم وتنمية الوعي بالتاريخ ، للدكتور أبو اليزيد العجمى .
- ترجمة الفلسفة اليونانية وأثرها فى علم الكلام ، للدكتور محمد صالح محمد السيد .
- الشاطبى بين كتابيه «الموافقات» و«الاعتصام» ، للأستاذ محمد الدسوقى .
- منهج التجديد الدينى عند عبد القاهر الجرجانى ، للأستاذ سمير أبو زيد .
- من تراثنا الكلامى - دور المتكلم فى إسهامات اليهود الإسلامية ، للدكتور حسن كامل إبراهيم .
- مفهوم النص عند ابن حزم وأثره فى حل قضية الذات والصفات ، للدكتور خالد السيوطى .
- منهج علماء الحديث النبوى فى حوار الأديان والأمم السابقة فى ضوء نقدهم لمرويات الإسرائيليات وكتب الطب النبوى ، للدكتور خيرى قدرى .
- الأصول الكلامية لنظرية البيان فى البلاغة العربية ، للدكتور عبد الرحيم الكردى .
- منهج المتكلمين فى حوار أهل الأديان ودوره فى تأسيس علم كلام جديد ، للدكتور سلامة عبد العزيز .

● وفى الفترة ٢٦ - ٢٨ إبريل ٢٠٠٤م دارت فعاليات مؤتمر (واقع الدراسات اللغوية فى مصر) والذى نظمه قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة القاهرة . ومن الأبحاث المقدمة لهذا المؤتمر :

- البحث المعجمى فى مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين ، للدكتورة وفاء كامل .
- إشكالية المنهج فى الدراسات اللغوية فى مصر ، للدكتور محمد العبد .
- اللغة العربية المعاصرة فى آثار الدارسين ، للدكتور محمد حسن عبد العزيز .
- الدراسات المعاصرة للتراث النحوى ، للدكتور حسام أحمد قاسم .
- تطور دراسة تاريخ اللغة العربية ، للدكتور محمد الشرقاوى .
- التذكير والتأنيث بين القديم والحديث ، للدكتور محمد أحمد خضير .

● وخلال الفترة ٢٧ - ٢٩ إبريل ٢٠٠٤م نظمت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مؤتمرها السنوى والذى دار هذا العام عن (الفكر العربى عبر العصور بين الأصالة

والإبداع) ومن الأبحاث المقدمة فى المؤتمر :

- الفلسفة العربية بين ماضيها المزهرة وحاضرها المظلم ، للدكتور عاطف العراقى .
- مستقبل الفكر الفلسفى العربى فى عالم متغير (الإشكال والحل) ، للدكتور حسن حنفى .
- الفكر العربى بين النص والاجتهاد ، للمستشار طارق البشرى .
- مصر الإسلامية أم مصر العربية ، للدكتور أيمن فؤاد سيد .
- عروبة مصر فى فكر جمال حمدان ، للدكتور عبادة كحيل .
- أرقامنا العربية الأصيلة قضية تاريخية علمية ثقافية ، للدكتور محمد يونس الحملاوى .
- تاريخ الفكر الجغرافى وتطوره ، للدكتور نعيم سلمان بارود .
- المصطلح فى الفكر العربى (دراسة مقارنة بين العقل العربى والعقل الأوروبى) ، للدكتور عبد الكريم مدون .
- من خصائص التقليد والإبداع والتأليف العربى والإسلامى ، للدكتور كمال عرفات نبهان .
- الفكر الأشعرى وأثره فى مصر فى العصر الأيوبى ، للدكتورة نجوى كمال كيرة .
- موقف الفكر الدينى من العلاقات التجارية بين المسلمين والفرنجة الصليبيين فى عهد الدولة الأيوبية ، للدكتور رياض شاهين .
- الحوار مع الآخر فى الثقافة العربية الإسلامية ، للدكتور أحمد عثمان .
- ابن حزم الأندلسى (فكره الإصلاحى والنهضوى) ، للدكتور محمود إسماعيل .
- فضل الثقافة العربية على العقل اليهودى قبل قيام إسرائيل وبعده ، للدكتور محمد محمود أبوغدير .
- قراءة جديدة للتراث (عهد عمر قراءة جديدة) نموذجًا ، للأستاذ العفيف الأخضر .
- وفى يوم الثلاثاء ٤ مايو ٢٠٠٤م عقدت ندوة بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن (الأرمن فى مصر فى العصر الفاطمى) حاضرت فيها الدكتورة سينا بادويان ، أدار الندوة الدكتور قاسم عبده قاسم ، وعقب على المحاضرة الدكتور أيمن فؤاد سيد .
- وفى يوم الأربعاء ٥ مايو ٢٠٠٤م عُقدت جلسة شهر مايو من سمينار التاريخ الإسلامى والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية وقد قدمت فيها الأبحاث الآتية :

- نقد اتجاهات بعض الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية ، للدكتور محمد مؤنس عوض .
- العبيد السود فى المغرب منذ بداية القرن الثالث إلى منتصف القرن السادس الهجرى ، للدكتور عبد الحميد حمودة .
- البحرية الإسلامية فى الأندلس فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، للدكتورة يمنى رضوان .

● وفى يوم الإثنين ١٠ مايو ٢٠٠٤م ألقى ستيفان بارادين عضو الهيئة العلمية بالمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بحثًا بعنوان (أسوار القاهرة من الفاطميين إلى صلاح الدين الأيوبي) وذلك بمقر المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة .

● وفى يوم الثلاثاء ١٨ مايو ٢٠٠٤م جرت فعاليات الندوة الأخيرة فى الموسم الثقافى لمركز تحقيق التراث هذا العام ، ودارت حول المستشرق الفرنسى (لويس ماسينيون) . تحدث فيها الدكتور عفت الشرقاوى عن (لويس ماسينيون والعولمة الروحية) ، كما تناول الدكتور عبد الحميد مذكور فى حديثه (لويس ماسينيون وتحقيق التراث) . أدار اللقاء الدكتور محمد عونى عبد الرؤوف . وبجانب تنظيمه لهذه الندوة قام مركز تحقيق التراث بطبع كتيب تعريفى بعنوان (لويس ماسينيون ١٨٨٣ - ١٩٦٢م) قام بإعداده أحد باحثى المركز ، وتم توزيعه على جمهور الحاضرين فى الندوة .

● وفى يوم الأحد ٢٣ مايو ٢٠٠٤م عُقدت ندوة عن الاستشراق الألمانى المعاصر بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، حاضر فيها الدكتور أحمد هويدى .

● وفى نفس اليوم [الأحد ٢٣ مايو] نظم المركز الثقافى الإيطالى بالقاهرة احتفالية كبيرة بمناسبة صدور الترجمة العربية لكتاب المستشرق الإيطالى ميكيل أمارى (تاريخ مسلمى صقلية) والذى صدر فى ثلاثة أجزاء ضخمة . وقد تحدث فى هذه الاحتفالية : أنطونيو باديني سفير إيطاليا بالقاهرة ، والدكتور جوزيبى كونتو ، والدكتور إسحق عبيد ، والدكتور محمد مؤنس عوض ، والدكتور محب الدين سعد . وقامت بإدارة الاحتفالية الدكتورة أديليا ريسبولى مديرة المعهد الثقافى الإيطالى .

● وفى اليوم التالى [الإثنين ٢٤ مايو] ألقى الدكتور يوسف زيدان مدير المخطوطات بمكتبة الإسكندرية بحثًا بعنوان (مخطوطات العراق مُدمرة) وذلك أمام مؤتمر الجمعية الأوربية

للمكتبات (مالكوم) ، والذي عُقد بمدينة ميونيخ الألمانية .

● وخلال الفترة من ٢٩ مايو إلى ١ يونيو ٢٠٠٤م نظم المجلس الأعلى للثقافة في مصر مؤتمراً ضخماً عنوانه (الترجمة وتفاعل الثقافات) أُلقيت فيه على مدار أيامه الأربعة مائة بحث ومن هذه الأبحاث :

- دور الترجمة في النهوض بالأمة ، للأستاذ محمد محمد عتريس .
- الترجمة في إطار التنمية ، للدكتور محمد يونس الحملاوى .
- الترجمة تفاعل حضارى ثقافى ، للدكتور مدحت الجيار .
- مصادر يونانية مفقودة حفظتها الترجمات العربية فى العصور الوسطى ، للدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى .
- الترجمة جسر تواصل بين الثقافات ، للأستاذ صالح عالماني .
- أنا مارى شيميل نموذج للتفاعل الخلاق ، للدكتور محمد السعيد جمال الدين .
- فكر إقبال وأثره فى توضيح سماحة الإسلام ، للدكتور حازم محفوظ .
- ترجمة معانى القرآن الكريم ، للدكتورة نجوى عمر كامل .
- الترجمة ضرورة حضارية ، للدكتور عبد العزيز حمدى عبد العزيز .
- معلقة امرؤ القيس بين ترجمتين ، للدكتورين محمود على مكى وجمال عبد الناصر .
- التعامل الثقافى فى ترجمة الأدب العربى القديم ، للدكتورة أنا چيل .
- ترجمات الرازى فى العصور الوسطى ، للدكتور إسحق عبید .
- الترجمة والحوار بين الحضارات ، للدكتور عاطف العراقى .
- حوار الثقافات بين الشرق والغرب ، للدكتور حامد أبو أحمد .
- الترجمة وتفاعل الثقافات ، للدكتور بهاء شاهين .
- الترجمة ضرورة حضارية ، للدكتور فخرى لبيب .
- ترجمة كتب التاريخ الموريسكى ، للدكتور جمال عبد الرحمن .
- الترجمات العربية الأولى ودورها فى الثقافة العربية الإسلامية ، للدكتور مجدى عبد الحافظ .
- النص الدينى وحركة ترجمته إلى الفرنسية ، للدكتورة كاميليا صبحى .
- مشروع التأويلية الإسلامية واليهودية كنقد للحدائثة ، للدكتورة أنجيلكا نيورث .
- الترجمة والنهضة ، للدكتورة زينب الخضيرى .
- النقل ، ترجمة أم إبداع (النموذج العربى القديم) ، للدكتور حسن حنفى .

● وخلال نفس الفترة [٢٩ مايو - ١ يونيو] نظم المجلس الأعلى للثقافة بمصر حلقة بحثية حول كتاب الإلياذة لهوميروس ؛ وذلك بمناسبة صدور الترجمة العربية الجديدة للإلياذة بإشراف الدكتور أحمد عتمان ، بجانب إعادة طبع الترجمة التي قام بها البستاني في أوائل القرن العشرين . ومن الأوراق المقدمة في هذه الحلقة البحثية وله علاقة بالتراث العربى :

- هوميروس فى الأدب العربى ، للدكتورة عليّة حنفى .

- هوميروس فى المصادر العربية القديمة ، للدكتور مصطفى لبيب عبد الغنى .

● وفى يوم الأربعاء ٢ يونيو ٢٠٠٤م نظم المركز الثقافى الفرنسى بالإسكندرية ندوة هى (تاريخ الكتابة العربية / ١٥ قرناً من التطور) حاضر فيها السيد فريدريك امبير مدير قسم التعليم واللغة العربية المعاصرة بالقاهرة .

● وفى خلال الفترة من الأحد ٦ يونيو إلى الثلاثاء ٨ يونيو ٢٠٠٤م نظم المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة مؤتمراً بعنوان (المجتمعات المتوسطية أمام المخاطر) ومما قدم فيه من أبحاث تتعلق بالتاريخ الإسلامى :

- الدولة الإسلامية فى أوج اتساعها فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، للدكتور أيمن فؤاد سيد .

- حدود سياسية أم حدود ثقافية؟ أنموذج الحدود بين البلدان الإسلامية والبلدان المسيحية فى الشرق فى عصر الصليبيين ، للدكتور أنجيليك لاو .

● وفى يوم الإثنين ٧ يونيو ٢٠٠٤م عقد المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة ندوة عن (عمليات الترميم الجارى إنجازها فى القاهرة الإسلامية) حاضر فيها السيد كريستوف بولورئيس المهندسين فى مشروع مؤسسة الأغاخان الثقافية .

إصدارات مركز تحقيق التراث

الإصدارات الجديدة (٢٠٠٤) :

- ١ - أبكار الأفكار في علم أصول الدين ، للآمدى (الأجزاء ١ - ٥) .
- ٢ - التبر المسبوك في ذيل السلوك ، للسخاوى (ج ٢) .
- ٣ - الجوهرتين العتيقتين ، للهمدانى .
- ٤ - الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك (ج ١٧) . (إعادة طبع مع إعداد جديد) .
- ٥ - ديوان ابن الرومى (الأجزاء ١ - ٦) .
- ٦ - شرح كتاب سيبويه ، للسيرافى (ج ٥ و ٦) .
- ٧ - شرح مشكلات الفتوحات المكية ، للجبلى .
- ٨ - العاقل الحالى والمرخص الغالى ، لصفى الدين الحللى .
- ٩ - عقد الجمان (العصر الأيوبى) ، للعينى (ج ٢) .
- ١٠ - عنوان الزمان ، للبقاعى (ج ٢) .
- ١١ - القوافى ، للتنوخى .
- ١٢ - مستوفى الدواوين ، للأزهري (ج ١) .
- ١٣ - الموسم الثقافى لمركز تحقيق التراث (شوامخ المحققين) .
- ١٤ - نزهة النفوس ومضحك العبوس ، لابن سودون .

تحت الطبع :

- ١ - الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك :
 - الأجزاء من (١ - ٦) طبعة جديدة منقحة .
 - (ج ١٨) (بإعداد جديد) .
- ٢ - ديوان ابن مطروح .
- ٣ - ربيع الأبرار ، للزمخشري (ج ٣) .
- ٤ - رسالة في ترتيب أكل الفاكهة ، للرازى .

- ٥ - الفهرست ، لابن النديم .
- ٦ - مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمرى (ج ١٠ فى الموسيقى) .
- ٧ - مستوفى الدواوين ، للأزهري (ج ٢) .
- ٨ - المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى (ج ١١) .
- ٩ - نزهة الأبصار فى خواص الأحجار ، للدمشقى .
- ١٠ - نيل مصر ، للأقفهسى .

كتب يجرى تحقيقها :

- ١ - الآثار - للشيبانى .
- ٢ - إظهار النصر ، للبقاعى .
- ٣ - بغية الفلاحين - للملك الأفضل .
- ٤ - التبر المسبوك ، للسخاوى (ج ٣) .
- ٥ - ربيع الأبرار ، للزمخشري (ج ٤) .
- ٦ - شرح كتاب سيبويه ، للسيرافى (ج ٧ - ٩) .
- ٧ - عقد الجمان - للعينى ، ج ٣ .
- ٨ - عنوان الزمان ، للبقاعى (ج ٣) .
- ٩ - لقط المنافع - لابن الجوزى .
- ١٠ - مدارج السالكين - لابن قيم الجوزية (ج ٥) .
- ١١ - مستوفى الدواوين ، للأزهري (ج ٣) .
- ١٢ - المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى (ج ١٢) .

القسم الأجنبية

روايات شعر الحطيئة

أ. د. إبراهيم عبد الرحمن أحمد*

ورد شعر الحطيئة إلينا فى ثلاث روايات :

الأولى ؛ رواية بصرية عن طريق الأصمعى ، الذى درس شعر الحطيئة على أستاذه أبى عمرو بن العلاء ، كما يرى ابن النديم .

وعلى الرغم مما جاء فى المصادر العربية من أن الأصمعى هو الراوية البصرى الوحيد الذى روى شعر الحطيئة ؛ فإن هناك إشارات تؤكد أن أبا عبيدة الراوية البصرى المعروف قد روى أيضاً شعر الحطيئة . يؤكد هذا ، الإشارات التى يمكن الحصول عليها من الشروح المقدمة لبعض أشعار الحطيئة . ومن المؤسف أنه ليس بين أيدينا مخطوطات من رواية أبى عبيدة هذا! وهذه الإشارات لا تفيد كثيراً فى تعرف طبيعة هذه الرواية ، فكل ما لدينا منها يتمثل فيما هو مدون من رواية الأصمعى فى كتاب : «مختارات شعراء العرب» عن طريق أبى حاتم السجستاني .

الثانية ؛ رواية كوفية ، وصل إلينا منها مخطوطتان :

واحدة برواية أبى عمرو الشيبانى ، وأخرى عن طريق ابن الأعرابى . ومن الملاحظ أن هاتين الروایتين لم تصلا إلينا مستقلتين ، ولكن فى رواية عن طريق ابن حبيب الذى نقلهما إلى تلميذه أبى سعيد السكرى .

أما الرواية الثالثة فهى المعروفة بالرواية المجموعة والمؤلفة من روايات عدة ، وقد وصل إلينا منها روايتان : واحدة عن طريق أبى سعيد السكرى ، والأخرى عن طريق رواية مجهولة .

ومن الجدير بالذكر ، القول بأننا اعتمدنا فى تصنيف هذه الروايات الثلاث على إشارات وردت فى شرح النصوص ، تحدد طبيعة كل رواية ، وأنها أخذنا فى الاعتبار من التعليقات المنسوبة إلى كبار رواة الشعر التى تتخلل شروح ديوان الحطيئة .

Asam'ī and Abu 'Amr al-Shaybani are occasionally mentioned in the glosses; this supports the assumption that this part is a later addition from the Kufite recensions. Only one poem recorded in the second part does not occur in al-Sikkit's compilation, or in any compilation of al-Huai'ah's poetry. It is probable that it has been taken from a recension which has not come down to us at all, and since the name of Abu 'Amr is mentioned in this part, it is probable that it has been taken from a recension of his, a considerable portion of which has been preserved in al-*Mukhtarat*.

(١) هذان البيتان ليسا عند أبي عمرو، وهما أول القصيدة من رواية خالد بن كلثوم، ولم يروهما يعقوب،

وأول رواية يعقوب، قوله هذا . . .

(٢) هذان البيتان من رواية خالد، ولم يروهما أبو عمرو . . . رجع إلى كتاب يعقوب

(٣) وها هنا بيت لم يروه يعقوب، وهو في رواية خالد

(٤) وهذا من رواية الأصمعي، وغيره قال: من رواية خالد

(٥) هذا الخبر عن غير يعقوب

The second part of this compilation is the definitely the work of the unknown transmitter, and contains no quotations from Ibn al-Sikkit's work at all, for he prefaced it with the following statement:³⁹ "This is the end of what Ya'qub has transmitted, and the following poems are quoted from other recensions". Having recorded the poems announced, the transmitter finished his work with the following statement: "This is the end [of the additions] found [in recensions] other than Ya'qub's".⁴⁰

An examination of these poems shows that they are identical with the same poems in the form recorded by al-Sukkari, and had been mainly based on Abu 'Amr and Ibn al-A'rabī; where they differ, the transmitter depends on Abu 'Amr. As for the glosses contained in this part, they are quite short and not valuable from a philological perspective. There is no mention of any of the philologists whose names occur in the comments on the first part. Only the names of al-

39

آخر ما روى يعقوب، وهذه زيادات من شعر الخطبة [من] غير الرواية

40

آخر ما وجد من غير رواية يعقوب

وأنشدنا ابن الأعرابي

وحكى لنا الفراء عن القاسم بن معن

There are some rather interesting points to be stressed concerning the contents of this compilation. To begin with, in the copy available the poems are divided into two contrasting parts. The first, containing a great portion of al-Hutai'ah's poetry, seems to have been copied from an original transcript described as the property of Ibn al-Sikkit (i.e. كتاب يعقوب).³⁷ Furthermore, it is distinguished by long comments on the poems in which the compiler undertakes comparisons with other readings and other comments, i.e. contrasts his own opinion with those of other philologists. He usually resorts to quotations from poetry in general in order to support a certain point. Most of this poetry is quoted anonymously, without referring to the name of its authors, a feature which usually occurs in other books by Ibn al-Sikkit.³⁸

As to the method Ibn al-Sikkit follows in recording al-Hutai'ah's poetry, it can be stated that he utilized the works of Basrite and Kufite philologists on al-Hutai'ah's poetry. However, he did not do so aimlessly, but recorded only what could be authenticated. Ibn al-Sukkit's method can therefore be described as independent research. This becomes clear when it is noted that the transmitter of Ibn al-Sikkit's recensions has made certain additions to the latter's text and noticing that he had utilized both Basrite and Kufite texts, went back to the original works, compared them with the text at hand, and added everything Ibn al-Sikkit's had omitted. Fortunately, he differentiates between Ibn al-Sikkit's recension and his own final product, so that it is still possible to ascertain the workings of Ibn al-Sikkit's critical mind. This assumption is substantiated by the following notes:

³⁷ Thus for instance, having recorded lines to not occur in Ibn al-Sikkit's recension, the transmitter finished with the following statement:

وبعدها أربعة أبيات ليست في كتاب يعقوب، رجع إلى كتاب يعقوب.

³⁸ See Ibn al-Sikkit, *Tslah al-Mantiq*. Cairo, 1949, pp. 48, 50, 52, 53, 82, 83, 108-109, 125-128, 174, 175, 176, 180-187, 189, 194, 198-200, 204, 212, 213, 217, 259, 261, 253, 264, 267, 381, 387, 397 etc.

He was so well-acquainted with it that it is said that there was none like him after Ibn al-Aʿrabi.³⁵ It appears, from a statement occurring in the preface of his book *Tahdhib al-ʿAlfāz*, that Ibn al-Sikkit was interested, from the very beginning of his career, in the collection of poetry, a pursuit which made him well-known to the circles of the learned. This statement implies that he wrote many philological works and commentaries on the diwans of the ancient poets, in which he greatly added to the works of his predecessors.³⁶ In a statement occurring in *Kitab al-Fihrist*, Ibn al-Nadim included his name in the list of the philologists whom he counted as the compilers of al-Hutaiʿah's poetry. To judge by the names of the philologists mentioned in the glosses, the following philologists were concerned with it: Abu ʿUbayda, Abu ʿAmr al-Shaybani, Ibn al-Aʿrabi, Khalid b. Kalthum, al-Farraʿ, al-Tusi, Ibn al-Kalbi, al-Asmaʿi, Hisham al-Nahwi, al-Yazidi, al-Kilabi, Khalaf and Abu Zayd al-Ansari.

His list of authorities comprises both the Basrite and Kufite schools as far as the first half of the third century of the Hijra. Accordingly, the compilation is bound to be the work of a philologist who derived his philological knowledge from both these schools of grammar. This philologist is, undoubtedly, Ibn al-Sikkit, who frequently mentions the names of these authorities directly in his books, e.g. in his book *Islah al-Mantiq* where he often refers to the above-mentioned scholars. We need not emphasize the fact that most of them, as stated by his biographer, were Ibn al-Sikkit's teachers. The following quotations indicate that they were the sources from whom Ibn al-Sikkit derived the material of his compilation:

وحكى لنا أبو عمرو

³⁵ Ibid.

أخذ عن أبي عمرو الشيباني والفراء وابن الأعرابي زالأثر . . . وروى عن الأصمعي وأبو عبيدة وأخذ عنه أبو سعيد السكري ولم يكن بعد ابن الأعرابي مثله وكان يتشيع.

³⁶ Ibn al-Sikkit, Abu Yusuf Ibn Ishaq. *Tahdhib al-ʿAlfāz*. Bayrut, 1986 (Introduction), p. 6; Ibn Khallikan. Abu al-ʿAbbas Ahmad Ibn Muhammad Ibn Ibrahim. *Wafayat al-ʿAyan*. Bulaq. II: 408.

transmitted this poem in his compilation without quoting Bilal's judgments, or even referring to the fact that its authenticity is doubted by some prominent philologists.

IV

The third recension of al-Hutai'ah' poetry is extant in a code discovered by the Institute of Arabic Manuscripts in Cairo, and made public in 1958.³² This code gives no direct mention of the compiler or the scribe, but relying on several references which occur in the glosses, one can infer that it represents, in one way or another, the transmission of al-Hutai'ah's poetry supposed to have been compiled by the celebrated philologist Ibn al-Sikkit.

The name of Ya'qub, and sometimes the agnomen Abu Yusuf, have been occasionally mentioned in the commentaries to denote the author of the original recension on which a great portion of the compilation in question was based. An inquiry on the name and the *kunya* shows that there have been two famous philologists with the same name and the same *kunya*. One was Ya'qub b. Ishaq b. Zayed b. 'Abdul-Allah, the Basrite traditionist referred to as Abu Yusuf,³³ the other was the famous philologist, Abu Yusuf Ya'qub b. Ishaq, known as Ibn al-Sikkit.³⁴ It is doubtful whether Ya'qub b. Zayed was ever concerned with recensions of poems and ever made a collection of al-Hutai'ah's poetry. Ibn al-Sikkit was known not only as a great philologist, but also as a trustworthy transmitter of poetry.

³² See al-Hutai'ah's *Diwan*, edited by Nu'man Amin Taha. Cairo, 1958.

³³ Yaqut. *Irshad*. VII: p. 300.

³⁴ *Ibid.*, VII: pp. 300-302.

which do not figure in al-Sukkari's collection.²⁹ In spite of that, the statistical data contained in the transmission show that Abu 'Amr's recension is quantitatively the most complete. This becomes obvious when all the components of the diwan which his younger contemporary Ibn al-'Arabi did not include or perhaps did not know were eliminated. The following passages from the present diwan are missing from the recension of Ibn al-'Arabi: 15.1.2.5; 16.20; 22; 40; 59; 61; 78; 85; 89-92.

Undoubtedly, al-Sukkari's compilation contains much of al-Hutai'ah's poetry, included what was attributed to him by Hammad. However, apart from the poems No. 89 and 90, there is no indication which of the poems are transmitted by Hammad, or which lines were interpolated by him, or added, or inserted on his authority. The inclusion of such interpolations in al-Sukkari's can be inferred from the fact that it contains lines excluded from al-Sijistani's transmission as having been fabricated by Hammad, without any reference to their doubtful provenance as well as from the compiler's i.e. al-Sukkari's comments on the poems 89 and 90 in which he states that while the poems in question are missing in Ibn al-'Arabi's recension, they are transmitted by Hammad.³⁰

With regard to al-Hutai'ah's eulogy on Abu Moussa al-Ash'ari, Ibn Sallam states that it was fabricated by Hammad who recited it before Bilal b. Abi Burda, putting it in the mouth of al-Hutai'ah.³¹

Thereupon Bilal denied that al-Hutai'ah ever praised Abu Moussa, stating that he knew all of al-Hutai'ah's poems and the poem in question was not among them. Al-Sukkari, however, had

²⁹ The following poems are recorded in Ibn al-Sikkit's compilation but do not figure among the poems contained in al-Sukkari's compilation: 94, 95.

³⁰ Al-Hutai'ah's *Diwan*

وقال في رواية حماد ولم يروها أبو عبد الله
وقال أيضاً ولم يروها أبو عبد الله ورواها حماد .

³¹ Ibn Sallam. *Tabaqat Fuhul al-Sh'ara'*. p. 41.

It is necessary to stress the fact that al-Sukkari is a pupil of al-Sijistani²⁵ as well as Ibn al-Sikkit,²⁶ under whose supervision he is said to have received some of his schooling. Unfortunately, there is no evidence to suggest that the pupil had added to his master's compilation all the poems transmitted by his renowned teachers. A comparative investigation will lead to the fact that there are, in the work of these philologists, poems and lines unrecorded in al-Sukkari's compilation.²⁷ This appears very strange, especially when it is borne in mind that al-Sukkari was renowned among his contemporaries as a painstaking collector.²⁸

Since the compilation is mainly based on the works of Abu 'Amr al-Shaybani and his young contemporary Ibn al-'Arabi, al-Sukkari has presumably popularized most of the poems transmitted by them as the poetical work of al-Hutai'ah's, and even stated the pieces in questions are missing in the recensions of the other philologists. If such was the case, as these remarks show, the transmission of the diwan is uneven in its quality; divergences are observable between the recensions of Abu 'Amr and Ibn al-'Arabi, not only with regard to the corpus of material, but also with regard to the variants in the pieces transmitted by them. Although the recension of Abu 'Amr who seems to have collected everything that was collected in his time in the name of Al-Hutai'ah's is the most comprehensive of all transmissions utilized by al-Sukkari, it is, nevertheless, not quite complete because it does not contain all of al-Hutai'ah's poetry supposed to have been transmitted by him.

This becomes evident when it is compared with Ibn al-Sikkit recension of al-Hutai'ah's poetry where we find some poems and lines

²⁵ Yaqut, *Irshad al-'Arab 'Ila Ma'rifat al-'Adab*. III: Part I: p. 62.

²⁶ *Ibid.* VII: p. 301.

²⁷ *Diwan*. pp. 236; 237; 289; 303; 384; 398; 402.

²⁸ See *Irshad*. III: Part I: p. 62.

الحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد نبيه وعترته والمنتخبين. قال أبو سعيد السكري،
أخبرنا محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو [الشيباني]، قال: قال الخطيئة . . .

This chain of transmitters is corroborated by other references to the same philologists in the glosses to the poems in which the compiler indicates the recessions in which the poem in question is recorded in part or as a whole. In addition, there are references, in the headings of some poems, to Hammad and *al-Mufaddal*,²³ in a way which leads to the assumption that their recensions of al-Hutai'ah's poetry have been utilized in his transmission.

It is interesting to note that the above-mentioned philologists belong to the Kufite school. Unfortunately, there is no reference, in the copies available, to Basrite philologists. Only the name of al-Asma'i is mentioned twice in the glosses. In one place he is referred to as quoting from his own comment, or from a comment attributed to him on the meaning of some words occurring in one of al-Hutai'ah's verses; in another place of the glosses the compiler records an alternative reading of the same poem, attributing it to al-Asma'i. This, however, suggests that al-Sukkari's compilation includes only Kufite recensions of al-Hutai'ah's poetry.

Golziher is of the opinion that this compilation contains all the poems attributed to al-Hutai'ah by the philologists.²⁴ Evidence, however, points to the contrary. One can even go further and assume that the compiler, in recording al-Hutai'ah's poetry, did not even make full use of the works which comprise such important works as al-Asma'i's recension which, as stated before, has been handed down on the authority of Abu Hatim al-Sijistani. Moreover, he failed to utilize the compilation attributed to Ibn a—Sikkit, which is preserved in a copy known to be available in 'Atif's library.

²³ *Diwan*. pp. 333, 392, 293.

²⁴ Introduction . *Diwan*. Leipzig. pp. 49-51.

transmitters from whom the compiler of al-Mukhtarat has derived his selection of al-Hutai'ah's poetry. This assumption is supported by the fact that the names of certain Kufite philologists are mentioned there, such as Ibn al-ʿArabi and Khalid b. Kalthum. Moreover, the compiler of the glosses asserts in the assessment of text variants his won judgment which is opposed to that of al-Sijistani.²⁰

There is no evidence of the chain of authorities who have transmitted the recension. But, since Ibn Durayd is mentioned there, as having commented on the meanings of some words, it is probable that he was one of them. Ibn Durayd is known as a prominent pupil of Abu Hatim al-Sijistani to whom the latter handed down most of his work on the diwans of the ancient poets,²¹ and his name is especially linked with al-Asmaʿi's recension of the diwans of the six poets derived by Ibn Durayd from his teacher Abu Hatim. Several manuscripts of this collection are extant in European and Oriental libraries.

The most important one is recorded by Al-Aʿlam, and goes back, over a chain of authorities, to Abu ʿAli al-Qali, "who derived it from Ibn Durayd, who derived it from al-Sijistani, who derived it from al-Asmaʿi".²² However, there is no evidence to suggest that al-Asmaʿi transmitted it to his pupil Abu Hatim al-Sijistani who transmitted it to his pupil Ibn Durayd.

III

The copies available of the most complete collective transmission, namely the compilation made by Abu Saʿid al-Sukkari, begin as follows,

²⁰ Ibn al-Shajari. *Mukhtarat Shifara' al-ʿArab*. p. 128.

²¹ See Nasir al-Din al-ʿAsad. *Masadir al-Shiʿr al-Jabali*. Cairo, pp. 491-492.

²² See *Masadir al-Shiʿr al-Jabali*. p. 505.

must not argue against the admitted purpose of this recension for there is indirect indication of the fact that the compiler has eliminated from his compilation all unauthenticated poems. In al-^cIsaba, and on the authority of Abu Hatim, Ibn Hajar quotes lines from poem VII, ascribing them to al-Rubay^c b. Duba^c al-Fazari.¹⁷

The source referred to is undoubtedly the *Kitab of al-Mufamarin* by Abu Hatim.¹⁸ This poem is quoted there as having been recited by the poet, who was renowned for his longevity, before Abdul-Malik b. Marwan. These lines are not included in the selection, a fact which corroborates the contention that the compiler had the tendency to eliminate all doubtful poems. There is more evidence to suggest that the selected poems are extracts from al-Asma^ci's compilation of al-Hutai'ah's diwan. The quotations and allusions to al-Asma^ci's recension in the glosses to the collective transmissions and in ancient Arabic books prove that the readings and even the commentaries mentioned there are identical with what is included of al-Hutai'ah's poetry in al-Mukhtarat.

Though it can be said that the selection presents a considerable part of al-Hutai'ah's poetry as recorded by al-Asma^ci, the question remains who has transmitted this recension and provided it with glosses. To judge by the names found in the glosses, the following philologists were concerned with it: Hammad, the Rawiya, whom al-Sijistani accuses of interpolations and fabrications,¹⁹ Khalid b. Kalthum, al-Asma^ci, Abu 'Amr b. al-^cAla', Ibn al-^cArabi and Ibn Durayd. Clearly Ibn Durayd is more recent than al-Sijistani, and this may suggest that not all the glosses have been made by later

¹⁷ See Ibn Hajar al-^cAsqalani. Shihab al-Din Ahmad Ibn 'Ali. *Al Isaba Fi Tamyiz al-Sahaba*. Calcutta, 1856. I: p. 1076.

¹⁸ 'Abu Hatim al-Sijistani, Sahl Ibn Muhammad. *Kitab al-Mufammarin*. Leiden, 1896, p. 6.

¹⁹ Ibn al-Shajari. *Mukhtarat Shu'ara' al-^cArab*. pp. 123, 136.

that al-Asma'ī has excluded, on the grounds of doubtful provenance, a comparatively large number of the poems handed down to him by Hammad and others. This assumption is supported by references in the glosses as well as by the following statement made by al-Sijistani, the transmitter of al-Asma'ī's recension: "This is the end of what al-Asma'ī has authenticated of 'Imru' al-Qays' poetry".¹⁴ This statement, however, is repeated on the authority of al-Sijistani, in the diwan of Zuhayr, and refers directly to the fact that al-Asma'ī's main purpose was to eliminate all the foreign bodies which had slipped into the diwan – exactly as he has done in his compilation of al-Hutai'ah's poetry.

Abu Hatim's transmission of al-Asma'ī's recension of al-Hutai'ah's poetry is, unfortunately, incomplete, but an analysis of the characteristics that distinguish it will yield considerable evidence of the fact that, even if it does not actually coincide with al-Asma'ī's actual recension of al-Hutai'ah's poetry, it is, at least, based on it. These selected poems contain unmistakable traces of al-Asma'ī's method of investigation, and reflect his firm resolution to record only what can be reliably authenticated. This recension is also characterized by the determination to eliminate all the foreign bodies from al-Hutai'ah's diwan.¹⁵

Not only does it point unequivocally to Hammad's fabrication, but eliminates also the poetry of others which has accidentally slipped into the diwan.¹⁶ Since it is only a selection, it cannot be ascertained how many poems of doubtful provenance it includes or excludes. This

¹⁴See Nasir al-Din al-'Asad. *Masadir al-Shi'r al-Jahili*. p. 491.

¹⁵ See Ibn al-Shajari . *Mukhtarat Shi'ara' al-'Arab*. pp. 123, 127, 136. The statistical data of the verses of al-Hutai'ah's poems contained in *al-Mukhtarat* shows that al-'Asma'ī has eliminated a number of lines which occur in the form recorded in al-Sukkari's compilation.

¹⁶ *Mukhtarat Shi'ara' al-'Arab*. p. 156.

as one of his favourite and distinguished students, has handed down most of the ancient Arabic poems transmitted by al-Asma'i. It is hardly necessary to furnish proof of this statement, as it is self-evident. One can even go a step further and assume that most of the information about al-Asma'i's life has come down to us on the authority of his students. Ancient Arabic books contain a certain amount of information about him most of which was handed down on the authority of Abu Hatim.¹⁰ This circumstance points to the fact that there was also, in this case, a deep attachment between teacher and pupil. The recension of the "diwan of the six poets" figures among the works of al-Asma'i transmitted by his pupil Abu Hatim, and a critical study of al-Asma'i's method in the compilation will reveal some interesting similarities, especially when compared with *al-Mukhtarart*. In a statement made by al-Sijistani, Hammad is referred to as the main source of al-Asma'i's recension of 'Imru' al-Qays poetry.¹¹ Hammad's name is not often mentioned in the glosses, but it seems that al-Asma'i never wholly accepted his recension. There are numerous references to dubious poems, and poems that have been, wholly or partly, authenticated by al-Asma'i, are comparatively few. Since al-Asma'i's recension consists of only 27 odes, this seems to be a small number, especially when compared with the Kufite recensions of the same diwan.¹² An attempt to trace *al-Mufaddal's* recension of 'Imru' al-Qays poetry in the form recorded by al-A'lam in the collective transmission of recensions shows that must consisted of 40 odes.

Bearing in mind that *al-Mufaddal* is regarded as restrictive — a virtue for which it is recognized by Basrite scholars¹³ — one can infer

¹⁰ See al-Suyuti. *al-Muzhir*. II: 406; al-Marzubani. *al-Muwashah*. p. 213; 'Abdul-Wahi Ibn Ali. *Al-Lughawi. Maratib al-Nahwiyyin*. Cairo, 1955, pp. 49-50, 57.

¹¹ See al-Suyuti. *al-Muzhir*. II: 406; he relates:

قال الأصمعي: كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا تنقأ سمعنا من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء . . .

¹² See Nasir al-Din al-'Asad. *Masadir al-Shi'r al-Jahili*. p.491.

¹³ See *Masadir al-Shi'r al-Jahili*. p 511.

the glosses, and the notes made by the scribes,⁷ one can safely assume that a considerable portion thereof goes back to Ibn al-Sikkit, the famous Kufite philologist. Apart from the copies available of these collective transmissions, there is no other copy of al-Hutai'ah's diwan. Nor is there a copy of any of the recensions said to have been made by other philologists such as al-Tusi.⁸

II

As for the transmission attributed to Abu Hatim al-Sijistani, there is no doubt that part of it is contained in al-Mukhtarat which, as hinted before, is based on al-Asma'i's recension of al-Hutai'ah's poetry. Definite evidence corroborate this view: there is, first of all, the chain of authorities on which Abu Hatim's transmission is based, and which leads directly to al-Asma'i⁹:

قال أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني: أخبرنا الأصمعي قال كان من حديث الخطبة والزبرقان . . .

In addition, there are, in the glosses, allusions to al-Asma'i. The following quotations can be regarded as typical:

قال أبو حاتم: سمعت الأصمعي يتعجب من جودة هذا البيت، وقال . . .
هذه رواية حماد، ورواية الأصمعي . . . ورواية حماد أجود .

Clearly, Abu Hatim refers directly to al-Asma'i as the authority from whom he has derived what he related. Moreover, in recording an alternative explanation, the compiler mentions al-Asma'i's name in the phrase which shows that the latter is the main authority from whom the text originated. Besides, there is the well-known fact that al-Sijistani, who was deeply attached to his teacher al-Asma'i, and known

⁷ See pp. 110-116.

⁸ See Ibn al-Nadim, *Kitab al-Fihrist*, 157.

⁹ Ibn al-Shajari. *Mukhtarat Shu'ara' al-'Arab*. p. 109.

allusions in the glosses are not of much help because they neither quote from this important recension, nor provide us with indications of its nature. For all we have, we are indebted to the anthologist who preserved, in his book *Mukhtarat Shu'ara' al-'Arab*⁴ a considerable portion of al-Asma'i's recension of al-Hutai'ah's poetry as handed down by Abu Hatim al-Sijistani. Despite its incompleteness, it exhibits all the characteristics of al-Asma'i's manner of recension.

Secondly, there are the Kufite recensions of al-Hutai'ah's diwan from which only two have reached us,⁵ in the recensions of Abu 'Amr al-Shaybani and his younger contemporary Ibn al-'Arabi. It is important to state here that these two recensions have not come down to us through separate channels, but are preserved in a collective transmission handed down by Ibn Habib, who handed it on to his renowned pupil, Abu Sa'id al-Sukkari.⁶

The third group is of the kind known as collective transmission (i.e. الرواية المجموعة), composed of different recensions by different compilers which, for the most part, distinguish between discrepant readings and quote their sources. Only two of these collective transmissions have reached us, namely the one compiled by Abu Sa'id al-Sukkari and referred to above as containing the Kufite recensions, and another by an unknown compiler. But relying on the references in

⁴ Although the anthology *Mukhtarat Shu'ara' al-'Arab* is attributed to Ibn Shajari, this book is not contained in the list of books he is said to have composed. See, al-Kutubi, Muhammad Ibn Shakir Ahmad. *Fawat-al-Wafayat*, Cairo, 1951, II: pp. 610-612; al-Qiffi, 'Ali Ibn Yusuf. *Inbah al-Ruwat 'ala 'Anbah al-Nuhat*. Cairo, 1952, III: 356.

⁵ Apart from the names of the Kufite philologists cited by Ibn al-Nadim as the compilers of al-Hutai'ah's poetry, there are, in the glosses to al-Hutai'ah's poetry, allusions to and even quotations from recensions made by other Kufite philologists such as Khalid b. Kalthum, Khalaf and al-Mufaddal. See *Diwan*, pp. 332, 341, 492, 455, 518.

⁶ The copies available begin with the statement:

قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري: أخبرنا محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو [الشيباني] قال، قال الخطبة ...

RECENSIONS AND PROBLEMS OF TRANSMISSION: A STUDY IN MANUSCRIPTS OF AL-HUTAI'AH'S DIWAN

Professor IBRAHIM ABDEL RAHMAN MOHAMED
AIN SHAMS UNIVERSITY

I

Relying on the statement made by Ibn al-Nadim to whom we owe most of our knowledge of the works of the ancient philologists, and on certain indications provided by the commentaries on al-Hutai'ah's poetry, the transmissions of the latter's diwan may be grouped into three categories:

The first group are the Basrite recensions of al-Hutai'ah's diwan. As stated by Ibn al-Nadim,¹ it was al-Asma'i who compiled al-Hutai'ah's poetry. This is corroborated by a statement attributed to Abu Hatim al-Sijistani, al-Asma'i's most prominent student, in which he relates that al-Asma'i studied al-Hutai'ah's poetry under the supervision of his teacher Abu 'Amr b. al-'Ala'.² Although the Arabic sources mention only al-Asma'i as the Basrite compiler of al-Hutai'ah's diwan, there are references to another Basrite recension, made by the famous philologist Abu 'Ubayda. These references are found in the glosses to al-Hutai'ah's poems.³ Unfortunately, none of the manuscripts containing this recension has been preserved, and the

¹ See Ibn al-Nadim, Abu Al-Faraj Muhammad Ibn Ishaq Ibn Ya'qub. *Kitab al-Fihrist*, Leipzig, 1871, p. 157.

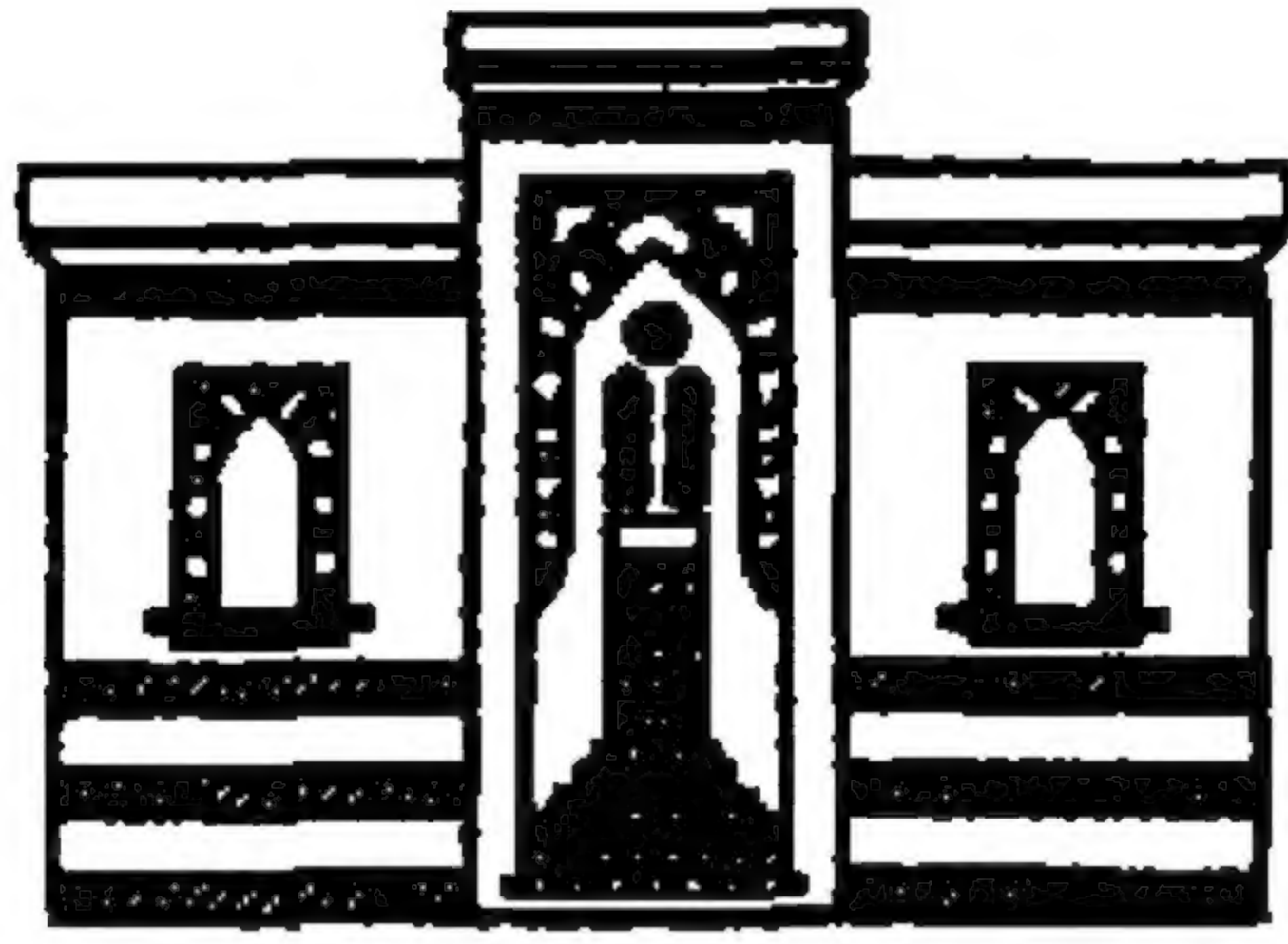
قرأ الأصمى على أبي عمرو بن العلاء شعر الخطبة ، فقرأ قوله:

وغررتني وزعمت أنك لابن بالضيف تامر

-أي كثير اللين- فقرأها "لا تنى بالضيف تامر" يريد لا توانى عن ضيفك تامر بتعجيل القرى إليه. فقال أبو عمرو . . .

² See al-Suyuti, Jalal al-Din 'Abdul-Rahman Ibn 'Ali. *Al-Muzhir*. 2nd ed. II: 355.

³ The Diwan, pp. 458, 522.



**Egyptian National Library
and Archives
MS Editing Centre**

TURÁTHIYYÁT

A SEMI-ANNUAL PERIODICAL PUBLISHED BY THE MS. EDITING CENTRE

ENGLISH SECTION

**A STUDY IN MANUSCRIPTS
OF AL-HUTAI'AH'S DIWAN**

National Library Press

Cairo

2004

